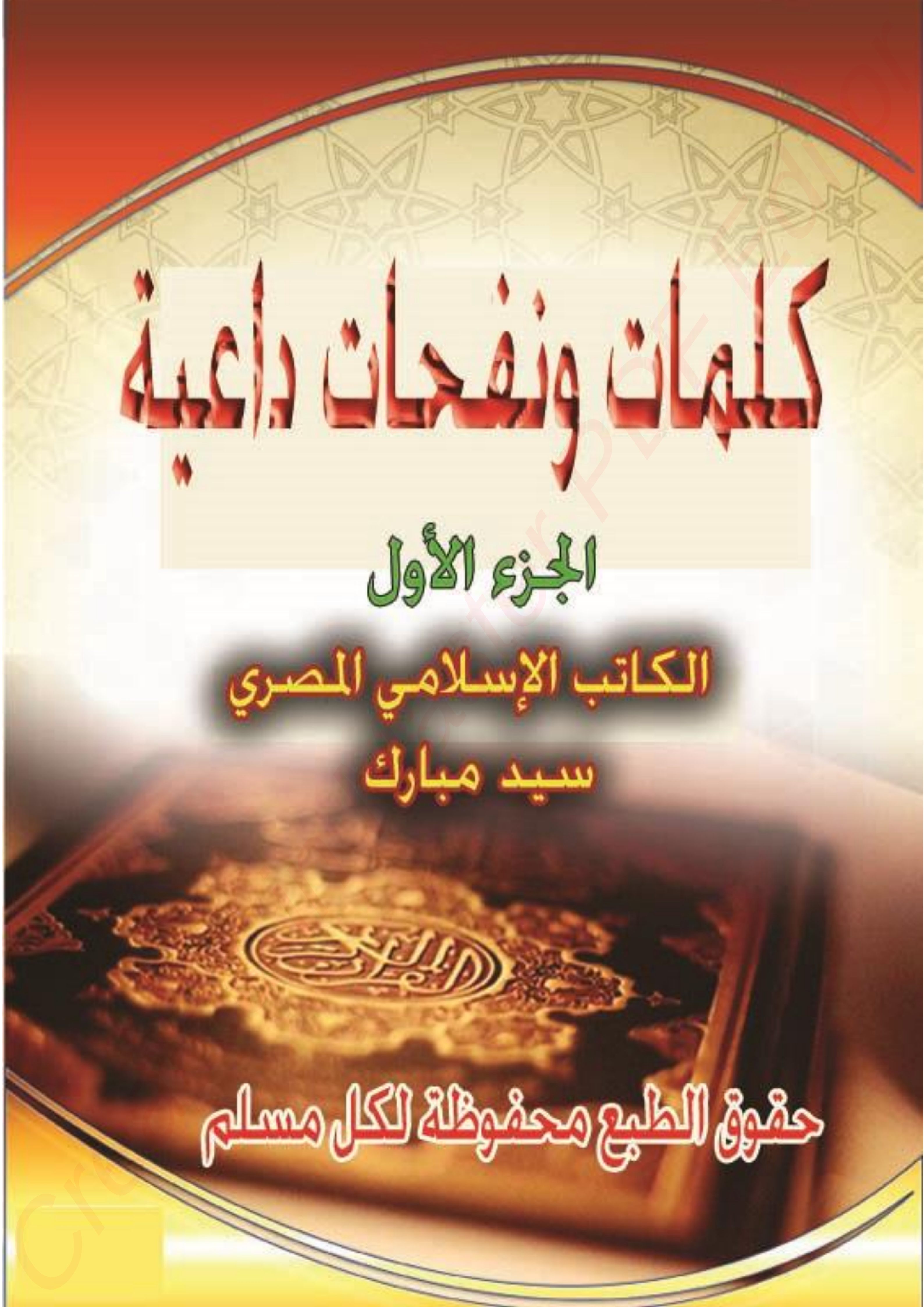


كلمات ونفحات داعية
الجزء الأول
الكاتب الإسلامي المصري
سيد مبارك
حقوق الطبع محفوظة لكل مسلم

كلمات ونفحات داعية

الجزء الأول

الكاتب الإسلامي المصري
سيد مبارك

مقدمة الكاتب

إن الحمد لله، نَحْمده ونستعينه، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شُرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربِّي وسلامُه عليه، وعلى آله وصَحْبه أجمعين.

أما بعد..

هذه جملة من المقالات المنشورة لي علي الانترنت علي موقع الألوكة وغيره كتبتها علي مراحل وأخذت مني الوقت والجهد الكثير ، ورأيت لو جمعتها في كتاب واحد مع الاستمرار في جمعها في أجزاء أخري كلما تيسر سيكون أفضل فنفيد ونستفيد .

فمن شاء نشرها مقالات فبها ونعمت ومن شاء نشرها ككتاب تحت العنوان المختار "كلمات ونفخات داعية "فليفعل كل ما نريده إعطاء الفضل لأهله فتنشر بأسمى لحفظ حقوقي الفكرية ومن نشرها فهو في حل مني عن أي حقوق مادية فهي حق لكل مسلم سواء للدعوة أو التجارة والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

وكتبه/ سيد مبارك

كاتب وداعية إسلامي مصري

١

سبل علاج النفس وتقومها

إن الحمد لله، نَحْمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرُور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربِّي وسلامُه عليه، وعلى آله وصَحْبه أجمعين.

أمَّا بعد:
فسبُل إصلاح النَّفس وتهذيبها يكون على مَرْحلتين: الأُولى قصيرة المَدى، لا تحتمل التَّأجيل والتسويف، وإلاَّ هلَكَت النفس، وباءت بسخط الله تعالى، والثانية طويلة المدى، فيها جِمَاع كلِّ خير، يؤدِّي إلى نَجاتها وفلاحها في الدُّنيا والآخرة.

ولْنَبدأ في بيان الأمر، والله الْمُستعان.

سبل علاج النفس وتقويمها على المدى القصير:
وتلك السُّبُل لازمة لِاسْتقرار النَّفس والمحافظة على مُسْتواها من الْهُبوط للأَدْنَى، فيصعب العلاج ويطول الأمر، ويفقد المرء الأمل، فتَخُور عزيمته، وتضعف قُوَّتُه، ويهلك نفسه، وأكتفي هنا بذِكْر سبيلين من أهمِّ السُّبل التي فيهما حياة النُّفوس، وفي تركهما ضياعٌ للنَّفس، وليس في إصلاحها بعد ذلك فائدة ألبتَّة، وهما:
١- إخلاص التوحيد لله تعالى بلا شوائب.
٢- المحافظة على الصلوات الخمس المفروضة.

ولا مَفرَّ من تقويم النَّفس وترويضها على هذين السَّبيلين على المدى القصير دون تأجيل أو إبْطَاء، إذا نَوى العبد بإخلاص إصْلاح ما بينه وبين الله - جلَّ شأنه - حقًّا، وقد يكون هذا صَعْبًا وشاقًّا بعض الشَّيء على النَّفس التي طُبِعَت على المعصية، ولكنه فيه نَجاتها وفلاحها.

وإليك البيانَ والتَّوضيح لهما، والله المستعان:

١ - إخلاص التوحيد الله تعالى بلا شوائب:

ولماذا التَّوحيد؟

لأنَّ الشِّرك الذَّنبُ الذي لا يغفره الله تعالى؛ لقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) -النساء: ٤٨].

ولقوله - تعالى -: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) -البينة: ٥].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قال النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلم -: ((أتاني آتٍ من ربِّي فأخبَرَني - أو قال: بشَّرَني - أنه مَن مات مِن أُمَّتِي لا يُشْرِك بالله شيئًا دخل الجنَّة))، قلتُ: وإنْ زنَى وإن سرق؟ قال: ((وإن زنَى وإن سرق))-[١].

وأنت بتوحيدك لله يكون لنفسك حقٌّ عند الله تعالى أن يُدْخِلها الجنة:

• عن معاذ بن جبل قال: كنتُ رِدْفَ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلم - على حِمَار يُقال له: عُفَير، فقال: ((يا معاذ، تدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله؟)) قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يَعْبدوا الله ولا يُشْركوا به شيئًا، وحقُّ العباد على الله - عزَّ وجلَّ - ألاَّ يُعذِّب من لا يُشرك به شيئًا))، قال: قلتُ: يا رسول الله، أفلا أُبَشِّر الناس؟ قال: ((لا تُبَشِّرْهم فيتَّكلوا))-[٢].

فإيَّاك والشِّركَ، سواء كان أكبر، كالطَّواف بالقبور، ودُعاء الأموات من دون الله، أو الذَّبح والسُّجود لغيره، أو ما أشبه ذلك مما يُخْرِج الإنسان من المِلَّة، أو شركًا أصغر، لا يُخرج الإنسان من الملَّة، ولكنه لا يَأْمَن على نَفْسِه من سخط الله عليه، فضلاً عن إحباطه للعمل، ومن أنواع هذا الشِّرك الحلف بغير الله، أو تصديق العرَّافين والدجَّالين، أو الرِّياء أو الطِّيَرة، وما أشبه ذلك.

ويجب علينا ترويض النَّفس على التوحيد الخالص لله تعالى بأنواعه الثلاثة:

• (توحيد الربوبيَّة)؛ أيْ: لا ربَّ سواه، وإفراده - سبحانه وتعالى - بالخلق، والمُلْك، والتَّدبير، قال - تعالى -: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) -فاطر: ٣].

• (توحيده الألوهيَّة)؛ أي: لا إله سواه، وإدراك أنَّ مَن يشرك به ويموت على ذلك مَصِيره النَّار؛ لقوله - تعالى -: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) -النساء: ٣٦].

• (توحيد الأَسْماء والصفات)؛ أيْ: إفراد الله - سبحانه وتعالى - بما سَمَّى ووصف به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله - صلَّى الله عليه وسلم - مثل صفة النُّزول من السماء، والضَّحِك والفرَح والعجَب، واليد، والعين، والرِّجل... إلخ، وذلك بإثْبات ما أثبَتَه سبحانه وتعالى لِنَفْسِه، وما أثبته له رسولُه - صلَّى الله عليه وسلم - من غير تَحْريف، ولا تَعْطيل، ومن غير تَكْييف، ولا تمثيل؛ لقوله - تعالى -: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) -الشورى: ١١].

٢- المحافظة على الصلوات الخمس المفروضة:
الصَّلاة هي الرُّكن الثَّاني من أركان الإسلام، وهي عمود الدِّين وذرْوة سَنامه، مَن أقامها فقد أقام الدِّين، ومن تركها فقد هدم الدِّين، وهي الصِّلة التي تربط العبد بربِّه خَمْسَ مرَّات في اليوم واللَّيلة، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، لماذا؟

لأنَّها تجعل العبد دائمًا مُراقِبًا لله تعالى في أعماله وأقواله، في ذَهابه وإيابه، في سَريرته وعلانيته؛ لأنَّه سبحانه معه حيث كان، فتطمئنُّ نفسه، وتَسْكن جوارحه، ويستريح قلبه وفؤاده من هُموم الدُّنيا ومتاعبها؛ ولهذا كان النبِيُّ - صلَّى الله عليه وسلم - إذا حان وقت الصَّلاة يقول لِمُؤذِّنه بلال - رضي الله عنه -: ((قُمْ يا بلال، فأرِحْنا بالصَّلاة))-[٣].

ومِن ثَم أداء الصلاة أمر لا يحتمل التَّأجيل، وإلاَّ وقع صاحب هذه النَّفس المتمرِّدة على شرع الله تحت وعيد قوله - تعالى -: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ

وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) -مريم: ٥٩ - ٦٠].

قال ابن كثير في "تفسيره" ما مُخْتصَرُه: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ) -مريم: ٥٩]؛ أيْ: قرون أُخَر، (أَضَاعُوا الصَّلَاةَ) -مريم: ٥٩] وأقبَلوا على شهوات الدُّنيا وملاذِّها، ورَضُوا بالحياة الدُّنيا واطمأنُّوا بها، فهؤلاء سيَلْقون غيًّا؛ أيْ: خسارًا يوم القيامة، وقد اختلفوا في الْمُراد بإضاعة الصَّلاة هاهنا، فقال البعض: المراد بإضاعتها تَرْكُها بالكُلِّية، وقال غيرُهم كالأوزاعيّ: إنَّما أضاعوا المواقيت ولو كان تركًا كان كفرًا.

وقال الأوزاعي: قرَأ عُمَر بن عبدالعزيز: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ) -مريم: ٥٩]، ثم قال: لَم تكن إضاعتُهم تَرْكها، ولكن أضاعوا الوقت، وقال مُجاهد: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالِحي أُمَّة محمد - صلَّى الله عليه وسلم - يَنْزُو بعضهم على بعض في الأَزِقَّة، وقال الحسن البصريُّ: عَطَّلوا المساجد ولزموا الضَّيعات))-[٤].

• وقوله - تعالى -: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) -المدثر: ٤٢ - ٤٨].

وفي السُّنَّة الصحيحة عشرات من الأدلَّة، فيها من التحذير والوعيد الشديدَيْن؛ ما يجعل ترك الصلاة كبيرة من أعظم الكبائر التي تؤدِّي بصاحبها إلى النار، والعياذ بالله الرحيم منها.

من ذلك:

• ما رواه أحمد وغيرُه أن النبي - صلَّى الله عليه وسلم - قال: ((مَن حافظ عليها كانت له نورًا وبُرْهانًا ونَجاة يوم القيامة، ومَن لَمْ يُحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفِرْعون وهامان وأُبَيِّ بن خلف))-[٥].

• ما رواه مسلم عن جابر بن عبدالله قال: سمعتُ النبي - صلّى الله عليه وسلم - يقول: ((إنَّ بين الرجل وبين الشِرك والكُفْر تَرْكَ الصلاة))-[٦].

وقال النوويُّ في شرح الحديث ما مُختصره: "ومعنى ((بينه وبين الشرك ترك الصلاة)): أنَّ الذي يَمْنع من كُفْره كونُه لم يَتْرك الصلاة، فإذا ترَكَها لم يَبْقَ بينه وبين الشِّرك حائل، بل دَخَل فيه، وأمَّا تارك الصَّلاة فإنْ كان مُنْكِرًا لِوُجوبها فهو كافِرٌ بإجْماع المُسْلمين، خارج من ملَّة الإسلام؛ إلاَّ أن يكون قريبَ عَهْد بالإسلام، ولم يُخالِط المُسْلِمين مُدَّة يَبْلغه فيها وجوب الصَّلاة عليه، وإن كان تَركه تكاسُلاً مع اعتقاده وجوبَها كما هو حال كثير من الناس، فقد اختلف العلماء فيه، فذهب مالك والشَّافعي - رحمهما الله - والجماهيرُ من السَّلَف والخلَف إلى أنَّه لا يكفر، بل يفسق ويُستتاب، فإن تاب وإلاَّ قتلناه حدًّا كالزَّاني المُحْصَن، ولكنه يُقْتَل بالسَّيف، وذَهب جماعة من السَّلَف إلى أنه يكفر" اهـ.

ومن ثَمَّ، فمَن أراد لِنَفسه النَّجاة ينبغي أن يَحْملها على عمَلِ المكاره، فالجَنَّة لا يدخلها أحدٌ إلاَّ بِمَشقَّة، والصَّلاة يجب أداؤُها في أوقاتها وهي ثقيلة على النُّفوس الغافلة، ولا يُواظِب عليها إلاَّ مَن عرف كيف يُرَوّض نفْسَه ويحملها على المكاره ومرضاةِ الله تعالى.

وكلمة أخيرة قبل أن نَشْرع في بيان السُّبُل على المدى الطويل لأصحاب النُّفوس الضعيفة الَّذين لا يجدون غَضاضة في ترك الصلاة، أقول لهم: لقد رخَّص الشَّرع لأصحاب الأعذار بالصَّلاة في البيوت حتَّى زوال العذر، كمَرض، أو مطَر، أو بَرْد شديد، أو ظُلْمة، وغير ذلك، وكذلك رخَّص بالتيمُّم عند فَقْد الماء، والجمع بين الصلوات عند المشقَّة، وقَصْرها عند السَّفر وما أشبه ذلك، وفي ديننا سعَة، ولله الحمد والمِنَّة.

ولكن لَمْ يُرَخِّص الشرع في تَرْكها بالكُلِّية أبدًا، ولو فرضًا واحدًا، مهما كانت الأعذار والمُبَرّرات، اللَّهم إلاَّ مَن ينطبق عليه قول النبيِّ - صلى الله عليه وسلم -: ((رُفِع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتَّى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصَّبِي حتى يَحْتَلم))-[٧]، ثُم إنِّي لَم أجد ما أقوله لمن يستسلم لنفسه الأمَّارة بالسُّوء ويترك

الصَّلوات الخمس المفروضة، أو بعضها إلاّ قوله - تعالى وجلّ شأنه -:
(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) -القيامة: ١٤ - ١٥].

فقد صارت الصلاة عند مثل هؤلاء ثقيلةً على القلوب، وصار لسان حالِهم يقول: "يا بلالُ، أرِحْنا من الصَّلاة"! وحسبنا الله ونِعْم الوكيل.

ثانيًا: السُّبُل التي تعين النَّفْس على المدى الطويل:
وهذه السُّبل تحتاج لتحقيقها جميعًا على المدى الطويل إلى صَبْر ويقين برحمة الله لا يتزَعزع، وتوكُّلٍ عليه وعزيمة لا تَلِين، ومن هذه السُّبل على سبيل المثال لا الحصر، وفيها مُجْمل الأمر في اعتقادي:
١- لا تَفْتُر عن ذِكْر الله تعالى.

٢- أتبْع السيّئة الحسنة تَمْحُها، وحافِظْ على حسناتك.

٣- تفقَّهْ في دينك؛ لِتَعبد الله على بصيرةٍ من أَمْرك.

٤- لا تفرح بما آتاك الله، ولا تَحْزن على ما فاتك.

٥- لا تغترَّ بِكَثْرة الهالكين، والحَقُّ أحَقُّ أن يُتَّبع.

٦- لا تَخْش إلاّ الله تعالى، ولا تأخُذْك فيه لومةُ لائم.

٧- إيّاك وطولَ الأمل في الدُّنيا، واذكر الموت والبِلَى.

٨- لا تُحبَّ إلاّ في الله، ولا تُبْغِض إلاّ فيه.

٩- لا يَغُرَّك الحسَب والنَّسب والمال عن أمر الحِساب.

١٠- تخَلَّص من آفات الجوارح المُحْبِطة للعمل.

١١- لا تُهْمِل محاسبة نفسك ومراقبتها يوميًّا.

١٢- لا تتحمَّل أوزار غيرك، وكُنْ قوَّامًا على أهلك.

١٣- أَطِبْ مطعمك، ولا تأكل من حرام أو شبهة.

١٤- أحْسِن الظنَّ بالله، ولا تيئس من رحمته أبدًا.

١٥- جاهِدْ نفسك على ترك الشَّهوات وإتيان المكاره.

١٦- لا تقترب من مواضع الفِتَن حتَّى لا تقع فيها.

١٧- الْتَزِم بمنهج أهل السُّنة والجماعة؛ لأنَّها الفرقة الناجية.

وحتَّى لا يَطول بنا البيان في شَرْح كلّ هذه السُّبل؛ أكتفي هنا ببيان الثَّلاثة الأولى منها، وأترك الباقي لفِطْنة واجتهاد القارئ في معرفة تفاصيلها وبيانها.

وأُوصيه بالبحث والتأمُّل في هذه الكتب الثلاثة النَّفيسة للعلاَّمة ابن القيّم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمهما الله تعالى - وفيها ما يَكْفي ويشفي، والله المستعان:
١- "إغاثة اللَّهفان من مصائد الشيطان".
٢- "الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشَّافي".
٣- "روضة المُحِبِّين ونزهة المشتاقين".

ولْنَشرع في بيان السُّبل الثَّلاثة الأولى بلا تطويل مُملّ أو تقصير مُخِل، والله المستعان.

١ - لا تفتر عن ذكر الله تعالى:
قال - تعالى -: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي) -البقرة: ١٥٢]، وقال - تعالى -: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) -الأعراف: ٢٠٥].

وقال النبِيُّ - صلَّى الله عليه وسلم -: ((مثَلُ الذي يَذْكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه، مثَلُ الحيِّ والميّت))-[٨].

واعلم - أخي القارئ - أنَّ الذَّاكر لله تعالى قريبٌ من ربِّه، وفي جَناب رَحْمته وكرَمِه، تَستغفر له ملائكتُه، وينبغي أن يَلْتَزِم بآداب الذِّكر وشروطِه؛ ليكون مقبولاً عند الله تعالى، وتَسْمُو نفْسُه بِقُربِها من الله تعالى.

قال النوويُّ في كتابه "الأذكار" (١/ ص ١٠) ما مُختصَره:
"الذِّكر يكون بالقلب، ويكون باللِّسان، والأفضل منه ما كان بالقَلْب واللِّسان جميعًا، فإن اقتصر على أحدِهما فالقلب أفضل، ثُمَّ لا ينبغي أن يَتْرك الذِّكر باللِّسان مع القلب؛ خوفًا من أن يُظَنَّ به الرِّياء، بل يَذْكر بهما جميعًا، ويقصد به وَجْه الله تعالى".

ثم قال - رحمه الله تعالى -:
"اعلم أنَّ فضيلة الذِّكر غير مُنْحَصِرة في التَّسبيح والتهليل، والتحميد والتَّكبير ونَحْوها، بل كلُّ عاملٍ لله تعالى بطاعة فهو ذاكِرٌ لله تعالى، كذا قاله سعيد بن جُبَير - رضي الله عنه - وغيره من العلماء.

وقال عطاء - رحمه الله -: مَجالس الذِّكر هي مَجالس الحلال والحرام؛ كيف تَشْتري وتبيع؟ وتصلي وتصوم؟ وتنكح وتطلّق؟ وتحجُّ؟ وأشباه هذا"؛ اهـ.

والنفس تطمئنُّ إلى ما يطمئِنُّ إليه القلب، والقلب يطمئن بذِكْر الله؛ كما قال - تعالى -: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) -الرعد: ٢٨].

ومِن ثَمَّ، لا مندوحة من كَثْرة الذِّكر؛ لِمَا له من الفوائد العظيمة في صَلاح النَّفس والقلب معًا.

وقال ابن القيّم - رحمه الله تعالى - في "الوابل الصَّيّب من الكَلِم الطيّب"، (١/ ص٥٦) عن فوائد الذِّكر ما مُختصَرُه:

"ولا ريب أنَّ القلب يَصْدأ كما يصدأ النُّحاس والفِضَّة وغيرهما، وجِلاؤه بالذِّكر، فإنه يَجْلوه حتى يَدَعَه كالمِرْآة البيضاء، فإذا ترك صَدِئ، فإذا ذكَر جلاه.

وصدَأُ القلب بأَمْرين؛ بالغفلة، والذَّنب، وجِلاؤه بشيئين؛ بالاستغفار، والذِّكر.

فمَن كانت الغفلةُ أغلبَ أوقاته كان الصَّدأ مُتَراكبًا على قلبه، وصدَؤُه بحسب غفلته، وإذا صَدِئ القلب لم تَنْطبع فيه صُوَر المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحقّ، والحقَّ في صورة الباطل؛ لأنَّه لَمَّا تراكَم عليه الصَّدَأ أظْلَمَ فلم تَظْهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ واسودَّ ورَكِبه الرَّان، فسَد تصَوُّره وإدراكه، فلا يَقْبل حقًّا ولا يُنْكِر باطلاً، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتِّباع الْهَوى؛ فإنهما يَطْمِسان نور القلب ويعْمِيان بصرَه؛ قال - تعالى -: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) -الكهف: ٢٨].

فإذا أراد العبد أن يَقْتدي برجل فَلْينظر: هل هو من أهل الذِّكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكِمُ عليه الهوى أو الوحي؟

فإن كان الحاكم عليه هو الْهَوى وهو من أهل الغَفْلة، كان أمره فرُطًا، ومعنى الفرُطِ قد فُسِّر بالتضييع؛ أيْ: أمْرُه الذي يجب أن يَلْزَمَه ويقوم به، وبِه رشْدُه وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفُسِّر بالإسراف؛ أيْ: قد أفرط، وفُسِّر بالإهلاك، وفُسِّر بالخلاف للحقّ، وكلها أقوال متقاربة، والمقصود أنَّ الله - سبحانه وتعالى - نَهى عن طاعة مَن جَمَع هذه الصِّفات.

فينبغي للرَّجل أن ينظر في شيخه وقُدْوته ومَتْبوعه، فإنْ وجَده كذلك فلْيبْعد منه، وإنْ وجَدَه ممن غلب عليه ذِكْر الله - عزَّ وجلَّ - واتِّباع السُّنة، وأمره غير مَفْروط عليه، بل هو حازم في أمره - فلْيَستمسك بِغَرْزه، ولا فرق بين الحيِّ والميت إلاَّ بالذِّكر، فمَثَل الذي يَذْكر رَبَّه والذي لا يذكر ربَّه كمثَل الحيِّ والميت.

ثم ذكر - رَحِمَه الله تعالى - عشرات من فوائد ذِكْر الله تعالى، والتي فيها صلاحُ القلوب والنُّفوس، نَذْكر بعضها هنا، والله المستعان:

١- أنَّه يَطْرد الشَّيطان ويقمعه ويكسره.

٢- أنه يُرْضي الرحمن - عزَّ وجلَّ.

٣- أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

٤- أنه يَجْلب الرِّزق.

٥- أنه يكسو الذَّاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

٦- أنه يورثه المَحبَّة التي هي رُوح الإسلام وقُطْب رحَى الدِّين، ومدار السعادة والنَّجاة، وقد جعل الله لكلِّ شيء سببًا، وجعل سبب المَحبَّة دوام الذِّكر، فمن أراد أن يَنال مَحبَّة الله - عزَّ وجلَّ - فلْيَلْهَج بذِكْره؛ فإنه الدَّرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذِّكْر باب المَحبَّة وشارعها الأعظم وصِرَاطها الأقوم.

٧- أنَّه يورثه المراقبة حتى يُدْخِله في باب الإحسان، فيَعْبد الله كأنَّه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذِّكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

٨- أنه يورثه الإنابة، وهي الرُّجوع إلى الله - عزَّ وجلَّ - فمتَى أكثر الرُّجوع إليه بِذِكْره أورثَه ذلك رجوعَه بقلبه إليه في كلِّ أحواله، فيَبْقى الله - عزَّ وجلَّ - مَفْزَعَه وملجأه، وملاذَه ومَعاذَه، وقِبْلة قلْبِه، ومَهْرَبه عند النوازل والبلايا.

٩- أنَّه يورثه الهيبة لربِّه - عزَّ وجلَّ - وإجلالَه؛ لشدَّة استيلائه على قلبه، وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل، فإنَّ حجاب الهيبة رقيقٌ في قلبه.

١٠- أنَّه يورثه ذِكْرَ الله تعالى له؛ كما قال - تعالى -: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) -البقرة: ١٥٢]، ولو لم يكن في الذِّكر إلاَّ هذه وحدها لكَفى بها فضلاً وشرفًا، وقال - صلَّى الله عليه وسلم - فيما يَرْوي عن رَبِّه - تبارك وتعالى -: ((مَن ذكَرَني في نفْسِه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكَرني في مَلأٍ ذكَرْتُه في ملأٍ خير منهم)).

١١- أنه يحطُّ الخطايا ويُذْهِبها؛ فإنَّه من أعظم الحسنات، والحسنات يُذْهِبن السيِّئات.

١٢- أنه سبب اشتغال اللِّسان عن الغيبة والنَّميمة، والكذب والفُحْش والباطل، فإنَّ العبد لا بُدَّ له من أن يتكلَّم، فإن لم يتكلَّم بِذِكْر الله تعالى وذِكْر أوامره تكلَّم بهذه المُحَرَّمات أو بعضها، ولا سبيل إلى السَّلامة منها ألبتَّة إلاَّ بذِكْر الله تعالى.

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك، فمَن عوَّد لِسانه ذِكْرَ الله صان لسانه عن الباطل واللَّغو، ومن يبس لسانه عَن ذِكْر الله تعالى ترَطَّب بكلِّ باطل ولَغْو وفُحْش، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

٢- أتْبِع السيِّئة الحسنة تَمْحُها، وحافِظْ على حسناتك:

فلو نطَق لِسانُك بكلمة لا يَرْضاها الله تعالى كغِيبة أو نَميمة أو كذبة فهذه سيِّئة، وللمحافظة على رُجْحان كفَّة حسناتك، أتْبِع السيِّئة الحسنة، وهذا ما أوصانا به الحبيبُ - صلَّى الله عليه وسلم - قال: ((اتَّق الله حيثُما كنتَ، وأتبِع السيِّئةَ الحسنة تَمْحُها، وخالِق الناسَ بِخُلُق حسن))-[٩].

فعليك بذِكْر الله، ولك بكلِّ تسبيحة صدقَة، وكلِّ تهليلة صدقة، وكلِّ تكبيرة صدقة، أو قل بعدها: "أستغفر الله العظيم، وأتوب إليه"، وإيَّاك والإصرارَ على الخطأ في الكلام، فرُبَّما كانت كلمة تُخْرجك من المِلَّة؛ لحديث البخاريِّ عن أبي هريرة، عن النبي - صلَّى الله عليه وسلم – قال: ((إنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة من رضْوان الله لا يُلْقِي لَها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله لا يُلْقِي لها بالاً يهوي بها في جهنَّم))-[١٠].

ومن رحمة الله أنَّه يُجازي السيّئة بالسيِّئة، والحسنة بِعَشر؛ لِحَديثِ مُسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلم -: ((قال الله - عزَّ وجلَّ -: إذا هَمَّ عبدي بسيّئة فلا تَكْتبوها عليه، فإنْ عَمِلَها فاكتبوها سيّئة، وإذا هَمَّ بحسنة فلم يَعْمَلها فاكتبوها حسَنة، فإنْ عَمِلَها فاكتبوها عشرًا))-[11].

فالمقصود: إنْ عَمِلْت عملاً لا يَرْضاه الله حرَّضك عليه شيطانُك؛ لِغَضب أو كِبْر، فعليك بِعَمَل يمحو العمل السيّئ؛ لأنَّ الحسنات تُذْهِبْن السيّئات.

وهذا الأمر يَسْتلزم من العبد أن يكون مُراقِبًا ومُحاسبًا لِنَفْسِه، وإلاَّ هلك بتراكُم السيّئات، وقِلَّة الحسنات يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلاَّ مَن أتى الله تعالى بِقَلب سليم.

ويَجِب على مَن تستحلُّ نَفْسُه المعصية أيًّا كانت أن يُبادر إلى تقويمها وترويضها، ولا يتركها على هواها، فتُفْسِد عليه دينَه ودنياه، ولا يكتفي بإصلاح خُطاها بالحسنات الماحية، بل لا بُدَّ من تغييرها للأفضل ولو بالتدرُّج؛ وذلك عن طريق المجاهدة.

قال العلاَّمة ابن القيّم في "الفوائد" (١/٦٠) ما نَصُّه:
"قال - تعالى -: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) -العنكبوت: ٦٩]
علَّق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمَلُ الناس هداية أعظَمُهم جِهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النَّفس، وجهاد الْهَوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدُّنيا، فمَن جاهَدَ هذه الأربعة في الله هداه الله سبُلَ رضاه المُوصلة إلى جَنَّتِه، ومن ترك الجهاد فاته مِن الْهُدى بحسب ما عطَّل من الجهاد، قال الْجُنَيْد: والذين جاهدوا أهواءَهم فينا بالتَّوبة لَنهدِيَنَّهم سبُلَ الإخلاص، ولا يتمكَّن من جهاد عدوّه في الظاهر إلاَّ مَن جاهد هذه الأعداء باطِنًا، فمن نُصِر عليها نُصر على عدوّه، ومن نُصِرَتْ عليه نُصِر عليه عدوُّه"؛ اهـ.

٣- تفَقَّه في الدِّين؛ لِتَعبد الله على بصيرة مِن أمرك:

أغْلَب عيوب وآفات النَّفس تأتي من الجهل بالحلال والحرام، ولو تفقَّه العبد في دينه لاسْتَطاع ترويض نفسه وتقويمها على طاعة الله تعالى، وفي القرآن والسُّنة من الحَثّ على العلم والتعلُّم نصوص كثيرة، أذكر منها:

- قوله - تعالى -: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) -طه: ١١٤].

- وقوله - تعالى -: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) -المجادلة: ١١].

- ومن السُّنة قوله - صلى الله عليه وسلَّم -: ((لا حسَدَ إلاَّ في اثنتَيْن: رجُلِ آتاه الله مالاً، فسُلِّط على هلَكَتِه في الحقّ، وآخر آتاه الله حكمة فهو يَقْضي بها ويُعَلِّمها))-[١٢].

- وقوله - صلَّى الله عليه وسلم -: ((مَن سلَك طريقًا يَلْتمس فيه عِلمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنَّة))-[١٣].

والوسيلة للتفقُّه تأتي من عدّة طُرُق، منها:

١- أن يُحضِّر درسًا أسبوعيًّا على الأقلِّ، في المسجد أو عن طريق الاستماع أو المشاهدة، ولْيُكثِر من الاطِّلاع والقراءة لِكُتُب العلماء الثِّقات من أهل السُّنة والجماعة.

٢- أن يَسأل أهل الذِّكر ويَسْتفسر حتَّى يستوثق من الصَّواب عندما تستشكل عليه بعضُ المسائل؛ لتوضيح ما لم يَفْهمه، ولْيَحْذر من تفسيرها على هواه، فيفهم غير مرادها، فيقع في معاصٍ لم يكن يَرْتَكِبها، ولْتَكن أسئلته في المُهمّ، وليس في إشكالات وتفاهات، وإنَّما ما ينفع دينه ودُنياه.

٣- أن يعمل بما يَعْلم، ولا يكون التزامه أجوف؛ لأن العمل بدون عِلْم لا يكون، والعلم بدون عمل جنون.

يقول ابن القيّم في كتابه "طريق الهجرتين"، (١/ ٢٧٨) ما نصُّه:

"فمِن الناس مَن يكون له القُوَّة العلميَّة الكاشفة عن الطريق، ومنازلِها وأعلامها، وعوارضها ومَعاثرها، وتكون هذه القُوَّة أغلب القُوَّتَيْن عليه، ويكون ضعيفًا في القوَّة العمليَّة، يبصر الحقائق ولا يعمل بِمُوجبِها، ويرى الْمَتالف والْمَخاوف والْمَعاطب، ولا يتوقَّاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل، وإذا حضر العمل شارك الجُهَّال في التخلُّف، وفارَقهم في العلم، وهذا هو الغالِب على أكثر النُّفوس المشتَغِلَة بالعلم، والمعصومُ مَن عصَمَه اللهُ، ولا قُوَّة إلاَّ بالله.

ومن النَّاس مَن تكون له القُوَّة العمَليَّة الإراديَّة، وتكون أغلب القُوَّتين عليه، وتقتضي هذه القوَّة السَّيْر والسُّلوك، والزُّهد في الدُّنيا، والرَّغبة في الآخرة، والجِدَّ والتَّشمير في العمل، ويكون أعمى البصَر عند وُرود الشُّبهات في العقائد، والاِنْحرافات في الأعمال والأقوال والْمَقامات كما كان الأوَّل ضعيف العقل عند وُرود الشَّهوات، فَداءُ هذا مِن جهله، وداء الأوَّل من فَساد إرادته وضَعْف عقله.

وهذا حال أكثر أرباب الفَقْر والتصوُّف السَّالكين على غَيْر طريق العِلْم، بل على طريق الذَّوْق والوجد والعادة، يرى أحدهم أعمى عن مَطْلوبه لا يَدْري مَن يَعْبد ولا بِمَاذا يعبده؟ فتارةً يَعْبده بِذَوقه ووجده، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه، مِن لبْس معيَّن، أو كشف رأس، أو حَلْق لِحْية ونحوها، وتارة يَعْبُده بالأوضاع التي وضَعَها بعضُ المُتَحذْلِقين، وليس له أصْلٌ في الدِّين، وتارة يعبده بما تُحبُّه نفسه وتهواه، كائنًا ما كان، وهُنا طرُق ومَتاهات لا يُحْصِيها إلاَّ ربُّ العِباد.

فهؤلاء كلُّهم عمي عن ربِّهم وعن شريعته ودينه، لا يعرفون شريعته ودينه الذي بَعَث به رسُلَه، وأنزل به كتُبَه، ولا يَقبل مِن أحدٍ دِينًا سواه، كما أنَّهم لا يَعْرفون صفات ربِّهم التي تعرَّف بها إلى عِباده على أَلْسِنَة رسُلِه، ودعاهم إلى معرفته ومَحبَّتِه مِن طريقها، فلا معرفة بالرَّبِّ، ولا عبادة له، ومن كانت له هاتان القُوَّتان استقام له سَيْره إلى الله، ورُجِيَ له النُّفوذ، وقويَ على ردِّ القواطع والموانع بِحَول الله وقُوَّته، فإنَّ القواطع كثيرة، شأنها شديدٌ، لا يَخْلص مِن حبائلها إلاَّ الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطَّريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها، وذهب بها، ولكنَّ الله يَفْعل ما يريد.

والوقت - كما قيل - سيفٌ، فإنْ قطَعْتَه، وإلاَّ قطَعَك، فإذا كان السَّير ضعيفًا، والهمَّة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفًا، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة، فإنَّه جَهْد البلاء، ودَرَكُ الشَّقاء وشَماتة الأعداء، إلاَّ أن يتدارَكَه الله برحْمَة منه مِن حيثُ لا يَحْتسب، فيأخذ بِيَدِه، ويخلصه من أيدي القواطع، والله ولِيُّ التوفيق؛ اهـ.

ونكتفي بما ذكَرْنا من شَرْح وبيان لسُبُلِ علاج النَّفْس وتهذيبها، والله من وراء القصْد، وهو يهدي السبيل.

---

[1]- أخرجه البخاري في الجنائز ح/ ٢٣٧، ومسلم في الإيمان ح/ ٩٤.
[2]- أخرجه مسلم في الإيمان ح/ ٣٠، والبخاري في الجهاد ح/ ٢٨٥٦.
[3]- أخرجه أبي داود في الأدب، وصحَّح الألبانِيُّ إسناده في "سنن أبي داود"، ح/ ٤٩٨٦.
[4]- "تفسير القرآن العظيم"، لابن كثير، (٣/ ١٢٥).
[5]- أخرجه أحمد، والبيهقيُّ في "شُعَب الإيمان"، وصحَّح الألبانِيُّ إسناده في "المشكاة"، ح/ ٥٧٨.
[6]- أخرجه مسلم في الإيمان ح٨٢، وأبو داود في السُّنة ح/ ٤٦٧٨.
[7]- قال الألباني: "صحيح"؛ انظر حديث رقم: ٣٥١٢ في "صحيح الجامع".
[8]- أخرجه البخاري في الدَّعوات ح/ ٦٤٠٧.
[9]- أخرجه التِّرمذي في "البِرّ والصِّلة"، وصحَّح الألباني إسناده في "الجامع"، ح/ ٩٧.
[10]- أخرجه البخاري في الرّقاق ح/ ٦٤٧٨.
[11]- أخرجه مسلم في الإيمان ح/ ١٢٨.
[12]- أخرجه البخاري في العلم ح/ ٧٣، ومسلم في صلاة المسافرين ح/ ٨١٦.
[13]- وإسناده صحيح، انظر حديث رقم: ٦٢٩٨ في "صحيح الجامع"، للألباني.

٢

الاختلاط الفاحش بين الجنسين

وعواقبه في الدين والدنيا

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شُرور أنفُسِنا وسيّئات أعمالنا، مَن يهده الله فهو المُهْتدي، ومن يُضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد:

فالاختلاط الفاحش بين الجنسَيْن أصبح في عصرنا الحاليّ يُنبئ بانحطاط الأخلاق، وانهدام القِيَم والمبادئ، وضَياعٍ للشَّرف والكرامة، وللأسف الشديد يُشجِّع الاختلاط ويُحثُّ عليه كثيرًا ممن لا يتَّقون ربَّهم من أدعياء التقدُّم والتمدُّن، يريدون بذلك أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، والله تعالى قال: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) - النور: ١٩].

ولا يستحي الواحد منهم أن يطلق الأسماء الباطلة على الاختلاط؛ حتى يصير حلالاً، فيقولون لنا عن اختلاط رجل بامرأة لا تحل له بأنَّها صداقة بريئة، أو زمالة، أو غير ذلك، وكلُّه يُراد به باطل، وتحليل ما حرَّمه الله تعالى.

قال - تعالى -: (وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) -النحل: ١١٦ - ١١٧].

هذا، وقد تفشَّى وعمَّ الاختلاط بين الجنسين في جميع مجالات الحياة؛ من مدارِسَ وجامعات، ومؤسَّسات ومصانع، والعجب كل العجب أنَّ المرأة المُسْلمة تركَتْ تعاليم دينها إلى ما حرَّم الله من ابتذال وعُرْي، وسُفور واختلاط فاحش، كما تفعل المرأة الأوربية شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، ولو أضفنا كساد سوق الزَّواج؛ لارتفاع تكاليفه الفَلَكيَّة؛ من شقَّة،

وأثاث، ومهر مُغالى فيه، ومصاريف (الفرَح)، و(الكوافير)... إلى آخره مما لم يشرعه ديننا، ولم يأمر به نبيُّنا - صلَّى الله عليه وسلَّم.

كل ذلك جعل الزَّواج - الذي هو السبيل إلى العِفَّة والفضيلة، والحصانة من الفاحشة والرذيلة - صعْبَ المنال، ومن رابع المستحيلات! لماذا؟ لأنه، فضلاً عمَّا ذكرنا آنفًا من صعوبة توفير المبالغ الفلكية لمشروع الزواج، فإنَّ الشباب - إلاَّ من عصمهم الله تعالى عن الوقوع في الحرام - رَأى أمامه الحرام ميسورًا؛ من فتيات يَعْرِضن زينتهنَّ، ويكشفْنَ أكثر ممَّا يَسْتُرن من أجسامهن، فضلاً عن اختلاطهن الفاحش بلا ضابط أو رابط، أو حسيب أو رقيب، وخلوتهنَّ بشباب هاجَتْ غرائزُه، فأخذ يمتِّع عينيه بالنَّظر إليهن، وتحت دعاوى الحُبِّ والرومانسية اختلط الحابل بالنابل، ووقع كثيرٌ من الشَّباب من الجنسين - في سبيل إرواء وإشباع الرَّغبات الجنسيَّة المحمومة - فيما حرَّم الله، فتزوَّجوا سرًّا عن طريق ما يُسمَّى بالزواج السرِّي، أو زواج الدَّم، أو غيرهما من صُوَر الزواج (المودِرْن) الذي يتمُّ بلا ولي أو شهود، وظُنَّ شرًّا ولا تسأل عن الخبَر.

وحصيلة كلِّ هذا بلا مُوارَبة انتشارُ حالات الاغتصاب، وهتْك الأعراض، مما يدلُّ ويثبت خطورة الاختلاط الموجود في المجتمع، وعلى هذه الصور الفجة، وما زالت النِّساء والفتَيات يَخْرجْن عاريات الصُّدور والنُّحور، والأرداف والسِّيقان... إلخ، وعلى مَسْمَع ومرأى الأهل، بلا رادع من دين أو ضمير أو قانون! ولا حول ولا قوَّة إلاَّ باللَّه العليِّ العظيم.

المجتمع في حاجة إلى إنعاش:

حقًّا إنَّ المجتمع كُلَّه بأفراده في حاجة إلى إنعاش الذَّاكرة؛ كَيْ يستيقظوا ويرَوا الخطر الذي يُحيط بهم، ومِن ثمَّ فإنِّي أوجِّه نظر أولياء الأمور، وكلِّ مَن يُهمُّه الأمر من أهل الحَلِّ والعَقْد إلى حديث خطير للنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أخرجه البخاريُّ عن النُّعمان بن بشير - رضي الله عنهما - عن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((مثَلُ القائم على حدود الله والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استهموا على سفينة، فصار بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفَلَها، وكان الَّذين في أسفَلِها إذا استقوا من

الماء مَرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرَقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقنا، فإن ترَكوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجوا ونجوا جميعًا))؛ أخرجه البخاري في الشركة - (٢٤٩٣)، والترمذي في الفِتَن - (٢١٧٣).

إنها نصيحة نبويَّة، وعلاجٌ لعدم المبالاة التي عمَّت أفراد الأُمَّة بصفة عامة، والقائمين على تطبيق شرع الله من أولياء الأمور بصفة خاصة، فهل يا تُرى يَستيقظ أفراد الأمَّة رجالاً ونساءً قبل فوات الأوان؟ قبل أن يغرق الجميع في مستنقع يُثير الغثَيان والتقزُّز من الفواحش التي فاحَتْ روائحها التي تزْكم الأنوف من المعاصي التي تُرتكَب جهارًا نهارًا، ولا أحد يتكلَّم، ولا أحد يبدأ بِنَفسه، ألَمْ يحذِّر النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - الجميع في الحديث الذي رواه عنه حذيفة - رضي الله عنه - أن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تَدْعونه فلا يُستجاب لكم))؛ أخرجه الترمذي في الفِتَن - (٢١٦٩) وإسناده حسن.

إن حالات عدم المبالاة التي يشعر بها كثيرٌ من أفراد الأمَّة بِتَرْك الاختلاط على هذه الصُّوَر المزرية والشاذَّة؛ لَيُدمِّر الأخلاق والقِيَم، وما تعارَف عليه الجميع من تقاليدَ أصيلة - لَعارٌ سوف يظلُّ يلاحق هذا الجيل من الآباء والأمَّهات الذين أهملوا تربية أبنائهم وبناتهم، وترَكُوهم بلا توجيه أوِ رعاية دينيَّة؛ ممَّا أدَّى إلى ضياعهم وانحرافِهم عن الطريق السويّ، ولأَولياءُ الأُمور الَّذين بيدهم الحَلُّ والعَقْد لهم نصيبٌ في هذا العار؛ لأنهم صَمُّوا آذانهم عن الاستماع لكلمة الحقّ من العلماء المخلصين الثِّقات، وهم أهل الذِّكر الذين أمرَنا الله بِسُؤالهم؛ قال - تعالى -: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) -النحل: ٤٣].

لقد حَذَّروا من الاختلاط والتبرُّج والسُّفور، وترك الحبل على الغارب، ولكنَّهم - للأسف الشديد - حاربوهم ورفضوا الإصغاء لصوت الحقّ والعقل، في الوقت الذي تركوا فيه أهل الفساد والإفساد من أدْعِياء التَّقدُّم والتمدُّن يسيطرون على وسائل الإعلام المختلفة، فأغرَقوا الأُمَّة بأفلام الجِنْس والمخدِّرات، والفجور والإباحيَّة، وسَخِروا من العلماء وأهل

السُّنة حتى في الشكل الخارجي، فصارت اللِّحية والقميص الأبيض والسِّواك مادَّة للسُّخرية والاستهزاء!! وصار أهل الفنّ التمثيلي والموسيقا قِمَمًا يُشار لهم بالبَنان؛ فهم ثَرْوة قوميَّة يجب الحفاظ عليهم.

ونحن نحذِّر من استمرار هذا الوضع المعكوس والشاذّ، الذي لا يؤدّي إلاَّ إلى إغراق الأُمَّة في الشهوات والملذَّات، وإرضاء النفس والهوى على حساب الدِّين والخير والجمال، وأسأل الله أن يهدي وُلاة أمورنا إلى الحقّ بإذنه، وأن يوفِّقهم إلى تطبيق شريعته وسُنَّة رسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - على عباده؛ لِمَا في ذلك من ثواب الدُّنيا والآخرة، ونزول البرَكة والخير على الجميع.

شبهات يُثيرها أنصار الاختلاط:

إنَّ أنصار الاختلاط والتبرُّج والسفور يُثيرون عدَّة شبهات؛ يريدون بذلك ثغرةً يُشَكِّكون من خِلالها في القرآن والسُّنة النبوية، أو يستحلُّون الحرام بتأويل الأدلَّة على هواهم؛ لإباحة الاختلاط بين الجنسَيْن بلا ضابط أو رابط من دين أو ضمير.

ولا بأس أن نردَّ على هذه الشبهات، ونوضِّح زَيْفَها وبُعْدَها عن الصواب والحقّ؛ حتى يَعلم الجميع خطَأَ ما هم فيه من خداع وزيف وباطل، وتُثبت في نفس الوقت إيمان قومٍ مؤمنين، تعرَّضوا للسُّخرية والاستهزاء؛ لتمسُّكهم بتعاليم ربِّهم وسُنَّة نبيِّهم - صلَّى الله عليه وسلَّم - ولهم جزاء ما صبروا واتَّقوا، ورابطوا في سبيل إرساء الحق، وهنيئًا لهم الجنة، وهنيئًا لهم بما وعدهم الله تعالى في كتابه الكريم؛ قال - تعالى -: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) -الطور: ١٧ - ٢٠].

الشبهة الأولى:

حديثان أخرَجَهما الشيخان، أثاروا حولَهما الشُّبهات، واستدلُّوا بعقولهم القاصرة وقلوبِهم المريضة من خلالهما ما يوافق هواهم ومُرادهم في إباحة الاختلاط والتبرُّج، وإليك الحديثَيْن؛ لتكون على بيّنة من الأمر:

الحديث الأول:

أخرجه مسلم عن أنس - رضي الله عنه -: أنَّ جارًا لرسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فارسيًّا كان طَيِّب المرق - كناية عن طيب الطعام - فصنع لرسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - ثم جاء يدعوه، فقال: ((وهذه؟)) لعائشة، فقال: لا، فقال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - : ((لا))، فعاد يدعوه، فقال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((وهذه؟)) قال: لا، قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لا))، ثم عاد يَدْعوه، فقال رسول - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((وهذه؟)) قال: نعَم في الثالثة، فقاما يتدافعان - معناه: يمشي كلُّ واحد منهما في أثر صاحبه - حتى أتيا مَنْزله؛ أخرجه مسلم في الأشربة - باب ما يفعل الضيف إذا تبعه غيره (٢٠٣٧).

الحديث الثاني:

أخرجه البخاري عن سهل - رضي الله عنه - قال: "لما عَرَّس أبو أُسَيد الساعديُّ دعا النبيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - وأصحابه، فما صنع لهم طعامًا ولا قرَّبَه إليهم إلاَّ امرأته أمُّ أسيد، بلَّتْ تمَراتٍ في تَوْر - إناء يكون من النُّحاس - من حجارة من اللَّيل، فلما فرَغ النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - من الطعام أماثَتْه - أيْ: هرسَتْه بيدها - له فسقَتْه، تُتحِفه بذلك"؛ أخرجه البخاري في النكاح (٥١٨٢)، ومسلم في الأشربة (٢٠٠٦).

وهذان الحديثان يَدُلاَّن دلالة واضحة - في زعمهم - على جواز الاختلاط؛ ففي حديث مُسلم صَحِب النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - عائشةَ - رضي الله عنها - إلى بيت جاره الفارسيِّ لِتَأكل معه وتختلط به.

ولنبدأ بالردِّ على ما أثاروه واستدلُّوا به من هذا الحديث، ولْنَبدأ ردَّنا بسؤال: كيف كانت الصُّورة التي في عقول هؤلاء عن كيفيَّة الزِّيارة؟ أو بعبارة أخرى أكثر وضوحًا: أتُراهم يعتقدون أنَّ السيدة عائشة أُمَّ المؤمنين - رضي الله عنها - ذهبت كما تفعل نساء هذا العصر تضع الواحدةُ منهن المساحيق على وجْهِها وعينيها، وتتطيَّب بالروائح،

وترتدي فستان السّهرة على أحدث خطوط الموضة، وربما في طريقها تذهب إلى الكوافير ليزيدّها جمالاً وفتنة ودلالاً؟! ثم هي تختلط بالرِّجال بلا حياء فتَضحك لهذا، وتَبْتسم لذاك، وترقص مع هذا؛ لأن ذلك من مُتَطلَّبات الإتيكيت؟!

هل يا تُرى هذه هي الصورة التي يتخيَّلون بعقولهم المريضة حُدوثَها؟! لقد خاب إذًا سعْيُهم، وضلَّ تفكيرهم، وشطحَتْ وعميت بصيرتُهم وبصائرهم عن الحقّ، إنَّ هذا بلا مُواربة قدْحٌ في أمَّهات المؤمنين، واعتقادُهم أنَّ الاختلاط حدث كما يحدث بين عائلات هذا الزَّمان اعتقادٌ فاسد ومردود، ولا دليل لهم عليه إلاَّ الظن، ثم أين هؤلاء مِن قوله تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) -الأحزاب: ٣٣]؟!

نعَم، هم يقولون قولاً، والله تعالى يقول قولاً، فمَن نصدِّق؟! الأمر لا يحتاج إلى تعليق على الإطلاق، وكفى بهذا زجرًا لهم وتوبيخًا، والله المستعان على ما يقولون.

أما الردُّ على ما فهموه واستدلُّوا به في حديث البخاري بأنه يجوز اختلاط المرأة بالرِّجال وتقديم الطعام والمَشْروبات لهم في بيتها، ومُسامرتهم والترحيب بهم... إلى آخره؛ بحُجَّة أنَّ هذا ما فعلَتْه عروس الصحابي "أبي أُسَيد الساعدي" - رضي الله عنهما - فمِن أبعد الأقوال عن الصَّواب والعقل لو أخذوا الرُّخصة بأكثر من حَجْمِها الطبيعي، وأوَّلوها إلى أهدافهم الخبيثة ودعواهم المسمومة.

نعم، يجوز للزوجة أن تُرحِّب بضيوفها في بيتها، ولكن في وجود زوجها أو أحدٍ من محَارِمها، وأن تكون ملتزمة بالزيِّ الإسلامي الشرعي، ولا تخضع بالقول فيَطْمع الذي في قلبه مرض.. إلخ، وإلى غير ذلك من الآداب الإسلامية السامية.

فإن توفَّرَت هذه الشروط والآداب فليس هناك ما يمنع البتَّة، ولكن هم يريدون من الرُّخصة أكثر من هذا، يريدونها إباحيَّة وفجورًا بلا حدود؛

يريدون للزَّوجة أن تكون عارية سافرة، متزينة بالألوان والأصباغ، وتضحك مع هذا، وترقص مع ذاك، وتخلو مع من تشاء!

ولنا في شرح ابن حجر العسقلانيِّ للحديث مِسْك الختام في الردِّ على هذه الشُّبَه، قال - رحمه الله -: "وفي الحديث جواز خدمة المرأة زوجَها ومَن يدعوه، ولا يخفى أنَّ محلَّ ذلك عند أَمْنِ الفتنة، ومراعاة ما يجب عليها من السَّتر، وجواز استخدام الرَّجل امرأته في مثل ذلك، وشُرب ما لا يُسْكِر في الوليمة، وفيه جواز إيثار كبير القوم في الوليمة بشيء دون مَن معه".

الشبهة الثانية:

يقولون - وبئس ما قالوه -: إنَّ الاختلاط بين الجنسين يُهَذِّب الطِّباع، ويعالج الكَبْت الجنسي، والحقُّ أنَّ هذه المقولة هي من كلام المجتمعات الغربيّة وأدعيائهم، وما أدعياء الاختلاط عندنا إلاَّ أتْباع لهم يتكلَّمون بألسنتهم، وهي مقولة بعيدة عن الصواب، بل هي من فِكْر منحرف.

ونظرة إلى المجتمعات الأمريكية والغربية يتبيَّن لنا الأمر جليًّا واضحًا، إنَّ المرأة الأمريكيَّة والأوربية لا تأمن أن تسير في ساعات متأخِّرة من الليل على نفسها من أن تتعرَّض للاغتصاب أو الخطف.

وها هي شهادة امرأة منهم تعيش بينهم، أدركَتْ حقيقة الجرم الشَّنيع لأصحاب الأفكار المنحرفة من أدعياء الاختلاط عندهم، وحذَّرَت من أفكارهم المسمومةِ المرأةَ العربية، فماذا قالت؟

تحت عنوان "امنعوا الاختلاط، وقيّدوا حُرّية المرأة" قالت هيلسيان ستانسيري - وهذا اسمها - ما نصُّه: "إن المجتمع العرَبِيَّ كاملٌ وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسَّك بتقاليده التي تقيّد الفتاة والشابَّ في حدود المعقول، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكيِّ، فعندكم تقاليد موروثة تحتِّم تقيُّد المرأة، وتحتِّم احترام الأب والأُمِّ، وتحتِّم أكثر من ذلك عدم الإباحيَّة الغَرْبية التي تهدِّد اليوم المجتمعَ والأُسْرة في أوربا وأمريكا؛ ولذلك فإنَّ القُيود التي يفرضها

المجتمع العرَبِيُّ على الفتاة الصَّغيرة، وأقصد ما تحت سنِّ العشرين، هذه القيود صالحة ونافعة؛ لهذا أنصح بأن تتمسَّكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط، وقيِّدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحيَّةِ وانطلاق ومُجون أوربا وأمريكا.

امنعوا الاختلاط قبل سنّ العشرين، فقد عانَيْنا منه في أمريكا الكثير، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعًا معقدًا مليئًا بكل صُوَر الإباحيَّة والخلاعة، وإنَّ ضحايا الاختلاط والحُرِّية قبل سن العشرين يملَؤُون السُّجون والأرصفة، والبارات والبيوت السرِّية، إنَّ الحُرِّية التي أعطَيناها لفتياتنا وأبنائنا الصِّغار قد جعَلَت منهم عصاباتِ أحداث، وعصابات جيمس دين، وعصاباتٍ للمخدِّرات والرقيق.

إن الاختلاط والإباحيَّة والحُرِّية في المجتمع الأوربي والأمريكي قد هدَّد الأسَر، وزلزل القِيَم والأخلاق، فالفتاة الصغيرة تحت سنِّ العشرين في المجتمع الحديث تُخالط الشُّبان وترقص (تشاشا) وتشرب الخمر والسجاير، وتتعاطى المخدِّرات باسْمِ المدَنيَّة والحريَّة والإباحيَّة، والعجيب في أوربا وأمريكا أنَّ الفتاة الصغيرة تحت العشرين تلعب وتلهو، وتُعاشر مَن تشاء تحت سَمْع عائلتها وبصَرِها، بل وتتحدَّى والِدَيْها ومُدَرِّسيها والمُشْرِفين عليها، تتحدَّاهم باسْم الحرِّية والاختلاط، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق، تتزوَّج في دقائق، وتُطلِّق بعد ساعات، ولا يكلِّفها ذلك أكثر من إمضاءٍ وعشرين قرشًا وعريس ليلة أو لبضع ليال، وبعدها الطَّلاق، وربما الزواج فالطلاق مرة أخرى"؛ اهـ.
انظر جريدة الجمهورية، يوم السبت ٩ يونيو/ ١٩٦٢، نقلاً عن "فقه السُّنة" للسيد سابق - رحمه الله تعالى - (٢/ ١٥٧).

وبعد، فماذا أقول لِمَن هم من جِلْدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا، ويريدون أن يخدعونا باسْمِ المدنية الحديثة والتقدُّم، ويدعوننا إلى الإباحية والفجور والاختلاط؛ ليتدنس المجتمع، فيسهل الصيد وتقع الفريسة؟! ماذا أقول وأردُّ على ما يحدث في الجامعات والمعاهد من اختلاط وفواحش ما يندى له الجبين خجلاً؟! وباسْم الصداقة والزمالة، وتحت شمَّاعة الحُرِّية ودعاوى الحبِّ والرومانسيَّة هُتِكَت أعراض الفتيات، وانتشر الزواج السرِّي والعرفي وزواج الدم بين الطَّلبة والطالبات، فحدثت الخلْوَة،

وأطلق الشيطانُ سمُومه ووسوستَه ووقع المحظور،ولما فاحت رائحة الجريمة وانتفخت بطون البنات، اكتشف المجتمع والأهل هوْلَ ومصائِبَ الاستماع لخفافيش الظلام من أدْعِياء التقدُّم والتحرُّر بعد أن فات الأوان، وحسبنا الله ونعم الوكيل، القائلُ في كتابه الكريم محذِّرًا من معصيته والإعراض عن هَدْيِ نبيّه - صلَّى الله عليه وسلَّم -: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) -النور: ٤٦ - ٥١].

الشبهة الثالثة:

يقولون: إنَّ كثيرًا من النساء في الإسلام كانوا ممن لم يضربْنَ على وجوههنَّ الحجاب، وكانت الواحدة منهنَّ تختلط بالرِّجال مثل "عائشة بنت طلحة" و"سُكَينة بنت الحُسَين" التي كان يلتقي في مَجْلِسها صفْوَةُ الأُدَباء والشُّعراء وغيرهم... إلخ.

وللردِّ على هذه الشبهة أحبُّ أن أذكر ما قاله صاحب كتاب "إلى كلِّ فتاة تؤمن بالله" فهو ردٌّ رائع، وفيه الكفاية، جاء ما مختصره:
"احتجَّ صاحب هذه الشُّبهة على أن الشريعة الإسلامية لم تقيِّد المرأة بأيِّ ستر أو احتجاب، ولم يمنعها من أن تخالط الرِّجال في مجالسهم وأنديتهم دون أيِّ فارق بينها وبينهم، فأيُّ مِن مصادر الشريعة تعتدُّ بمثل هذه الأخبار؟ أهي كتاب أم سنَّة أم إجماع أم قياس؟ وما عَلِمْنا وراء هذه المصادر الأربعة دليلاً يثبت به تشريع، وإذا كانت تراجم آحاد النَّاس وأحوالهم دليلاً شرعيًّا مُتَّبَعًا، فما لنا لا نقول بحلِّ شرب الخمر وقد وُجِد في الصحابة والتابعين وخلفاء المسلمين مَن شرِبها؟!

بل ما لنا لا نقول بحلِّ الفاحشة وقد وجد في الصحابة والتابعين ومَن بعدهم مَن قد ارتكبَها، وما لنا نردِّد ما قاله الرسول - صلَّى الله عليه

وسلَّم -: ((كلُّ ابْنِ آدم خطَّاء)) إذا كنَّا نعدُّ أخطاء بني آدم حُجَّة وتشريعًا؟!

إنَّ مِن بديهيات الإسلام أنَّ تصَرُّفات آحاد الناس لا تُعَدُّ دليلَ تشريعٍ إلاَّ أن يكون رسولاً أوحي إليه بِشَرع من الله - عزَّ وجلَّ - فهل كان هؤلاء النِّساء اللاَّتي الْتَقط صاحبُ الشُّبهة أخبارَهنَّ رسولات من الله إلى الناس؟"؛ اهـ؛ "إلى كل فتاة تؤمن بالله"، للدكتور/ محمد سعيد البوطي.

وبعدُ، فإنها شبهات باطلة، يُراد بها تحليل ما حرَّم الله ورسوله، لكن هَيْهات هيهات أن يُفْلِحوا أبدًا! قال - تعالى -: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) -الرعد: ١٧].

وأكتفي بِطَرْح هذه الشبهات الثلاثة، وما ذكَرْتُه عن الاختلاط الفاحش وعواقبه في الدِّين والدُّنيا؛ لِيَهلِك مَن هلك عن بيِّنة، ويَحْيا من حيَّ عن بيِّنة، والله - تعالى - مِن وراء القصد، وهو يهدي السَّبيل.

٣

الرد النفيس على شبهات الصوفيين

إن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين.

وبعد:

من أعظم المحرَّمات على الإطلاق التي عمَّت وانتشرتْ بين الناس: ما يتعلَّق بعقيدتهم وتوحيدهم لله تعالى، لماذا؟ لأن مخالفة التوحيد - سواء في الأقوال أو الأعمال - شِرْك، وسواء كان شِرْكًا أصغر أو أكبر، فهو الذنب الذي لا يَغفره الله لصاحبه إلاَّ إذا تابَ وآمَن، وعمل صالحًا؛ قال - تعالى -: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) -النساء: ٤٨].

وقال - تعالى -: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) -المائدة: ٧٢].

وبعد هذا الترهيب والتحذير من الشِّرْك تجدُ الكثير من الناس - إلاَّ مَن رحِم ربِّي - يقع فيه، وسواء كان ذلك بجهلٍ وغَفلة أو بعِلمٍ ونيَّة، فهو ظلمٌ عظيم، ومِن ذلك ما يفعله الصوفيَّة من شَدِّ الرِّحال والاستعانة بالأموات.

والاستعانة بالأموات نوعٌ من أنواع الشِّرْك الأكبر الذي نريد أن نحذرَ منه، لماذا؟ لأنه أمرٌ قد عمَّ وانتشرَ انتشار النار في الهشيم في كلِّ بقاع العالم الإسلامي، ولا يتحرَّك العلماء - إلا من رحِمَ ربِّي - خوفًا من الفتنة أو على أنفسهم - لا أدري! - من أجْل تغييره وتوضيح خطورته على العقيدة، ومخالفته لتوحيدهم الله تعالى.

فشدُّ الرحال والذهاب إلى أصحاب الأضرحة من الأولياء وأقطاب الصوفية الذين ماتوا، وسؤالهم والاستعانة بهم، والنَّذْر والدعاء عندهم - إنَّما هو شِرْك يخالف صريحَ القرآن والسُّنة، وإليك بعضَ الأدلَّة على

حُرْمة ذلك، مع رفْع الالتباس والردّ على الشبهات التي يُثيرها البعض؛ ليبرِّر سوء عمله؛ سواء من الصوفية أو من غيرهم؛ لكشْف الغُمَّة عن عيون الناس، ثم ليهلِك من هَلَك عن بيّنَة، ويحيا من حَيَّ عن بيّنَة، والله المستعان.

الدليل الأول:
قال - تعالى -: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) -الأعراف: ١٨٨].
ومَن يتأمَّل الآية جيدًا، يُدركْ أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.
فكيف بمن هو دونه في المقام والمنزلة والعبودية لله - تعالى - من أقطاب الصوفيَّة، وأولياء الله الذين يتوسَّل بهم الناس لجَلْب نفعٍ أو دفْع ضُرٍّ؟! حقًّا إنها لا تَعمى الأبصار، ولكن تَعمى القلوب التي في الصدور.

الدليل الثاني:
قال - تعالى -: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) -يونس: ١٨].
وفي ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم": "وأكثرهم يسأل الميّت المقبور كما يسأل الحي الذي لا يموت، فيقول: يا سيّدي فلان، اغفر لي وارحمني وتُبْ عليّ، أو يقول : اقضِ عني الدَّين وانصرني على فلان، وأنا في حسبك وجوارك"؛ انتهى.

الدليل الثالث:
عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "كنتُ خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - يومًا، فقال: ((يا غلام، إني أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدْه تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلمْ أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ، لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبَه الله عليك، رُفعت الأقلام وجَفَّت الصحف))"؛ أخرجه الترمذي، وإسناده صحيح.

الدليل الرابع:
عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: "سمعتُ النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((قال - تعالى -: "أنا أغنَى الشركاء عن الشِّرْك، مَن عمِل عملاً أشْرَكَ فيه معي غيري، تركتُه وشِرْكه")) ؛ أخرجه أحمد ومسلم.
وفي هذه الأدلة الأربعة من القرآن والسُّنة الكفاية؛ ليدركَ المسلم ضلالَ اعتقاد هؤلاء بأنَّ هناك مَن ينفع أو يضرُّ مع الله تعالى، فما بال هؤلاء لا يفقهون لله حديثًا؟! ويأتون من أقاصي البلاد، ومن هنا وهناك، ويشدون الرِّحال للاحتفال بليلة مولد فلان، ويتمسَّحون بضريحه، ويبكون ويستغيثون به: يا سيِّدي فلان، مَدَد، مدد، ويذبحون الذبائح، ويقيمون الولائم،ويختلط في هذه الليلة الرجال بالنساء، وتقع المنكرات والفواحش بلا رادعٍ من دين أو ضمير، والعجيب أنَّ هؤلاء الذين يدافعون عن هذه المنكرات باستماتة يقولون: إنما نحن نتوسَّل بهم - أي: أولياء الله - ليكونوا شفعاءَ لهم عند الله - تعالى - ووسطاء، فهم أولياؤه وخاصته، وأقربهم طاعة ومقامًا ومنزلة عنده - سبحانه وتعالى - وهذا هو عينُ الشِّرْك، وذاك هو الجهْل الفاضح، والاعتقاد الفاسد، ولهؤلاء شبهات أخرى، ولا بأس أن نذكرَ في هذه المقالة ثلاثًا منها، ونردَّ عليها بالأدلة التي تدحضُها من القرآن والسُّنة، وأقوال العلماء الثقات؛ ليموت من مات منهم عن بَيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة، والله المستعان.

الشبهة الأولى:
يقولون: إنَّ هؤلاء شفعاء لنا عند الله - تعالى - وهذا يوافق تمامًا ما قاله المشركون قديمًا؛ كما قال - تعالى -: (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) -الزمر: ٣]، وقوله - تعالى -: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) -يونس: ١٨].
نعم رغم قولهم هذا، فقد وصفَهم الله - تعالى - بالشِّرْك والكَذب؛ فهو - سبحانه - أغنى الأغنياء عن الشِّرك، وهو وحْدَه الذي يلجأ إليه الإنسان، يسأله ويستغيث به، ولا يَرْجو سواه ولا يَذْبَح إلاَّ له، ولا يَتوكَّل إلاَّ عليه،

ولا يَخاف إلا منه، ولا يحلف إلاّ باسمه، ولا يطيع إلا أمرَه، تلك هي حقيقة العبودية له - سبحانه وتعالى - فانتبه.

الشبهة الثانية:

يقولون: إنَّ الصحابة قد توسّلوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ومَن بعده بالعباس عمِّه - رضي الله عنه - أي: إنَّ الصحابة في زعْمهم توسَّلوا بمخلوق، وهذا هو عينُ ما يفعلونه، وهذه فِرْية سوف يحاسبُهم الله عليها، وللردِّ على هذه الشبهة أنقلُ إليك ما ذكَرَه شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه الله تعالى - في كتابه سابق الذِّكْر قال: "استشفاع الناس بالنبي - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة، فإنهم يطلبون منه أن يشفعَ لهم إلى الله، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم بالاستسقاء وغيره، وقول عمر - رضي الله عنه -: إنَّا كنَّا إذا أجدبْنا، توسَّلنا إليك بنبيِّنا فتسقينا، وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيِّنا، معناه: نتوسَّل إليك بدعائه وشفاعته وسؤاله، ونحن نتوسَّل إليك بدعاء عمِّه، وسؤاله وشفاعته،ليس المراد به: إنَّا نقسمُ عليك به، أو ما يجري هذا المجرَى مما يفعله المبتدعون بعد موته وفي مغيبه، كما يقول البعض: أسألك بجاه فلان عندك، ويقولون: إنَّا نتوسَّل إلى الله بأنبيائه وأوليائه، ويروون حديثًا موضوعًا: (إذا سألتم الله، فاسألوه بجاهي؛ فإن جاهي عند الله عريض)، فإنَّه لو كان هذا هو التوسُّل الذي كان الصحابة يفعلونه - كما ذكر عمر، رضي الله عنه - لفعلوا ذلك بعد موته، ولم يَعْدلوا عنه إلى العباس، مع عِلمهم أنَّ ذلك التوسُّل الذي ذكروه هو ما يفعله الأحياء دون الأموات، وهو التوسُّل بدعائهم وشفاعتهم، فإنَّ الحي يطلب منه ذلك، والميّت لا يطلب منه شيء؛ لا الدعاء ولا غيره"؛ انتهى.
ثم إنَّ هؤلاء لو تحدَّثتَ معهم بالحُجة، فقلتَ لهم: إنَّ الدعاء عبادة خالصة للّه - تعالى - فهو وحْدَه القادر على الإجابة، فأمره بين الكاف والنون، إنْ أراد شيئًا، فإنَّما يقول له: كنْ فيكون.

فإذا دعا الإنسان ربَّه قائلاً مَثَلاً: "اللهم أجِرْني من النار"، الدعاء هنا للّه - تعالى - أم للمخلوق؟ سيقولون - بلا ريب -: للّه تعالى؛ فهو خالق الجنة والنار، ومُيسِّر الأسباب، وبيده ملكوت كلِّ شيء، فنقول لهم: هذا شيء جميل، فإذا كان الأمرُ كذلك، فما معنى ذهابكم إلى السيد البدوي أو الدسوقي أو غيرهما، وقولكم أمام ضريح المقبور: "يا فلان، نسألك

كذا وكذا؟! وقد اتَّفقنا على أنَّ الدعاء عبادة خالصة لله - تعالى - فيكون الدعاء عند غيره من أصحاب الأضْرِحة وسؤالهم شِرْك؛ لأنهم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا، إن قالوا: نعم، فقد أقاموا الحجة على أنفسهم، وإن قالوا: لا، وتهرَّبوا وجادَلوا، وجَحدوا وتكبَّروا عن الانصياع للحقّ، فقد صَدَق فيهم قول الله - تعالى -: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) - الأعراف: ١٩٤].

هذا، وهناك من عوام الناس لجَهْلهم ومعتقدهم الفاسد يظنون أن شدَّ الرحال إلى أولياء الله أنفعُ من حَجّ بيت الله الحرام!!

ومِن ثَمَّ، فإنَّ ما يفعله هؤلاء القبوريون وصَمْةُ عارٍ في جسد الأمة الإسلاميَّة يُسأل عنها الأمراءُ والعلماء، إلاَّ مَن رحِم منهم ممن جاهَر بكلمة الحقّ، ولا يخاف في الله لوْمَة لائمٍ.

أمَّا علماء السوء الذين خافوا على لُقمة العيش، أو طمعًا في الاستمرار والبقاء في مناصبهم الدنيوية الزائلة، لا نقول لهم إلا قول الله - تعالى - لنذكِّرَهم بحقّه - سبحانه - ويحذوا حذْوَ إخوانهم من العلماء المخلصين؛ قال - تعالى -: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) -آل عمران : ١٠٤ - ١٠٧].

الشبهة الثالثة:

يقولون: إنَّ مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيه قبرُ النبي وصاحِبَيه، ونحن نشدُّ الرحال إليهم، فما الفَرْق؟

قال علماؤنا في الردّ على هذه الشبهة ما يلي:

أولاً: القبر كان في حُجرة السيدة عائشة - رضي الله عنها، كما هو معلوم - في بداية الأمر، وكان قريبًا من المسجد، وكان بين البيت والمسجد الروضة الشريفة؛ كما قال - صلى الله عليه وسلم -: ((ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة))، هذا وقد ظلَّ البيت خارج المسجد

في عهْد الخلفاء الراشدين والتابعين، وتابعي التابعين، وهم القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيريَّة، ثم جاء العهْد الأموي، وأدخل الوليد بن عبدالملك حجرة السيدة عائشة - رضي الله عنها - وفيها قبرُ النبي وصاحِبَيه داخل المسجد لتوسعته، ويومها بكى أهل المدينة كما لم يبكوا إلا يوم مات النبي - صلى الله عليه وسلم - لعِلْمهم بتحذيره من اتخاذ القبور مساجدَ، من ذلك ما أخرجه مسلم أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - قال قبل موته بخمس: ((إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبورَ أنبيائهم مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجدَ؛ إني أنهاكم عن ذلك)).
ومن ذلك ما أخرجَه البخاري وأحمد أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إنَّ مِن شِرار الناس مَن تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد)).

ثانيًا: نحن مأمورون بشدِّ الرحال إلى المسجد النبوي؛ لحديث: ((لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد))، ومِن ضِمنهم المسجد النبوي، ولسنا مأمورين بشدِّ الرحال للحسين أو البدوي، أو الدسوقي أو غيرهم؛ انتبه.

ثالثًا: إنَّ كثيرًا من الصحابة الذين ماتوا - رضوان الله عليهم أجمعين - لم تسجِّل لهم كُتبُ التراث والتاريخ حالة واحدة من أنَّ واحدًا منهم زارَ قبرَ النبي - صلى الله عليه وسلم - أو صحابي آخر من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وسأله مسألة أو استغاث به، أو اتَّخذه وسيطًا أو شفيعًا عند الله - تعالى - وكذلك في عهْد التابعين، وتابعي التابعين، وهم أفضل الأمة إيمانًا وتقوى وورَعًا، وفِقهًا وعِلْمًا، ويقينًا وخوفًا من الله تعالى.

فهل أقطاب الصوفيَّة الذين يتوسَّل بهم هؤلاء القبوريون أفضل كرامةً ومنزلة ومكانة من النبي - صلى الله عليه وسلم - أو أصحابه - رضي الله عنهم أجمعين - الأمر لا يحتاج إلى تعليق وشكٍّ في ضلال مَن يقول بذلك، وفي حُرْمة شدِّ الرحال والسؤال، والاستعانة بغير الله - تعالى - وإنْ دلَّ هذا على شيء، فإنَّما يدلُّ على أنَّ الأمة المحمديَّة قد أصابها الحُمَّى الشِّرْكية في أماكن مُتفرِّقة من جسدها، فإنْ لم ينهضْ أطباء الأُمَّة وعلماؤها بكشْف الداء، وتشخيص الدواء - وهم ورَثَة الأنبياء -

في جميع وسائل الإعلام: المقروءة والمسموعة والمرئية، دون خوفٍ من الفتنة، أو على أنفسهم أو مناصبهم الدنيوية، والحق أحقُّ أن يُتَّبَع، فقد تعودُ الأمة إلى جاهليَّتها ووثنيَّتها رغم التقدُّم العِلمي والتكنولوجي في العصر الحديث.

وبعد، لقد أطلنا الحديث عن حُرمة شدِّ الرحال، ولكن كان ولا بُدَّ من البيان والتوضيح؛ فهو أمرٌ قد عمَّ وانتشر، والأخطر من ذلك، فهو شِرْكٌ أكبر - والعياذ بالله - مما احتاج منِّي إلى هذه الاستفاضة في الشَّرْح، والله من وراء القصْد، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبي الخاتم، وآله وصحبه أجمعين.

٤

عدد أسماء الله الحسنى

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فهو المهتدي، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعدُ:
عددُ أسماء الله الحُسنى لا يعلمها إلا الله - تعالى - وفي السُّنة الصحيحة عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((لله تسعة وتسعون اسمًا، مَن حَفِظها، دخَلَ الجنة، وإنَّ الله وتْرٌ يحبُّ الوتْرَ.))

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري":
"قوله "اسمًا "قيل: معناه تسمية، وحينئذٍ لا مفهومَ لهذا العدد، بل له أسماء كثيرة غير هذه، وقوله "أحصيناه: حَفِظناه، قال الأصيليّ: الإحصاء للأسماء العملُ بها، لا عَدُّها وحفظها؛ لأنَّ ذلك قد يقعُ للكافر المنافق؛ كما في حديث الخوارج يقرؤون القرآنَ لا يجاوز حناجرَهم، وقال ابن بطَّال: الإحصاء يقعُ بالقول، ويقع بالعمل، فالذي بالعمل أنَّ لله أسماءً يختصُّ بها، كالأحد، والمتعال، والقدير، ونحوها، فيجب الإقرارُ بها والخضوع عندها، وله أسماء يُسْتَحبُّ الاقتداءُ بها في معانيها، كالرحيم، والكريم، والعفو، ونحوها، فيُسْتَحب للعبد أنَّ يتحلَّى بمعانيها؛ ليؤدِّي حقَّ العمل بها، فبهذا يحصل الإحصاءُ العَمَلي، وأمَّا الإحصاء القَولي، فيحصل بجَمْعها وحِفْظها، والسؤال بها، ولو شارَكَ المؤمنُ غيرَه في العَدِّ والحِفْظ، فإنَّ المؤمن يمتازُ عنه بالإيمان والعمل بها، وقال ابنُ أبي حاتم في كتاب" الرد على الجهميَّة" :"ذكر نُعيم بن حمَّاد أنَّ الجهميَّة قالوا: إنَّ أسماء الله مخلوقة؛ لأنَّ الاسم غير المسمَّى، وادَّعوا أنَّ الله كان ولا وجود لهذه الأسماء، ثُمَّ خَلَقها، ثم تَسَمَّى بها، قال: فقلنا لهم:

إنَّ الله قال :(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) -الأعلى: ١]، وقال :(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) -يونس: ٣].

فأخبر أنَّه المعبود، ودَلَّ كلامُه على اسْمه بما دَلَّ به على نفسه، فمَن زعَمَ أنَّ اسم الله مخلوقٌ، فقد زعَمَ أنَّ الله أمَرَ نبيَّه أنْ يسبِّح مَخلوقًا، ونُقِلَ عن إسحاق بن راهويه عن الجهميَّة أنَّ جهْمًا قال: لو قلتَ: إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا، لعبدتُ تسعة وتسعين إلهًا، قال: فقلنا لهم: إنَّ الله أمَرَ عبادَه أن يدعوه بأسمائه، فقال :(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) -الأعراف: ١٨٠].
والأسماء جَمْع أقلُّه ثلاثة، ولا فرق في الزيادة على الواحد بين الثلاثة وبين التسعة والتسعين" أهـ.

وقال النووي في شرح مسلم: " قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلاَّ واحدًا، مَن أحصاها دخَلَ الجنة، وإنَّه وتْر يحبُّ الوتْر))، وفي رواية: ((مَن حَفِظها دخَلَ الجنَّة))، قال الإمام أبو القاسم القُشَيْري: فيه دليلٌ على أنَّ الاسم هو المسمَّى؛ إذ لو كان غيره، لكانتِ الأسماء لغيره؛ لقوله - تعالى :- (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) -الأعراف: ١٨٠]، قال الخطَّابي وغيره: وفيه دليلٌ على أنَّ أشهرَ أسمائه - سبحانه وتعالى" - الله"؛ لإضافة هذه الأسماء إليه، وقد رُوي أنَّ الله هو اسمه الأعظم، قال أبو القاسم الطبري: وإليه يُنسَب كلُّ اسمٍ له، فيُقال: الرؤوف والكريم من أسماء الله - تعالى - ولا يُقال من أسماء الرؤوف أو الكريم الله، واتَّفق العلماء على أنَّ هذا الحديث ليس فيه حَصْرٌ لأسمائه - سبحانه وتعالى - فليس معناه أنَّه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنَّما مقصود الحديث أنَّ هذه التسعة والتسعين مَن أحصاها دخَلَ الجنَّة، فالمراد الإخبارُ عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحَصْر الأسماء؛ ولهذا جاء في الحديث الآخر: (أسألُك بكلِّ اسمٍ سَمَّيتَ به نفسك، أو استأثرتَ به في عِلم الغيب عندك)، وقد ذَكَر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم أنَّه قال: لله - تعالى - ألفُ اسمٍ، قال ابن العربي: وهذا قليل فيها، والله أعلم.

وأمَّا تعيينُ هذه الأسماء، فقد جاء في الترمذي وغيره في بعض أسمائه خلاف، وقيل: إنَّها مَخفيَّة التعيين كالاسم الأعظم، وليلة القدر ونظائرها،

وأمَّا قولُه - صلى الله عليه وسلم -: ((مَن أحصاها دخَلَ الجنة))، فاختلفوا في المراد بإحصائها، فقال البخاري وغيره من المحقِّقين: معناه: حَفِظها، وهذا هو الأظهر؛ لأنَّه جاء مُفَسَّرًا في الرواية الأخرى (مَن حَفِظها)، وقيل: أحصاها: عدَّها في الدعاء بها، وقيل: أطاقَها؛ أي: أحْسَنَ المراعاة لها، والمحافظة على ما تَقتضيه، وصَدَّق بمعانيها، وقيل: معناه: العمل بها والطاعة بكلِّ اسْمِها، والإيمان بها لا يقتضي عملاً، وقال بعضهم: المراد حِفظ القرآن وتلاوته كلِّه؛ لأنَّه مستوفٍ لها، وهو ضعيف والصحيح الأوَّل" اهـ.

قلتُ :وما ذكره النووي عن ضَعف حديث تعيين أسماء الله الذي رواه الترمذي وحَصرَه في التسعة والتسعين فقد أصابَ؛ فهو حديثٌ ضعيف حقًّا، وعِلَّتُه الوليد بن مسلم القُرَشي مَولَى بني أُمَيَّة، وقيل: مَولَى العبَّاس بن محمد بن عَلِي بن عبدالله بن عباس، مِن أتباع التابعين، كانتْ وفاتُه ١٩٤ أو ١٩٥ هـ.

وها هي مَرتبته عند علماء الحديث:

- مَرتبتُه عند ابن حجر: ثقة، لكنَّه كثيرُ التدليس والتسوية.
- مَرتبته عند الذهبي: عالِم أهْل الشام؛ قال ابن الْمَدِيني: ما رأيتُ من الشاميين مثله، قلتُ: كان مُدَلِّسًا، فيُتَّقى من حديثه ما قال فيه: عن،

وقال أبو بكر المروذي :قلتُ لأحمد بن حنبل في الوليد، قال: هو كثيرُ الخطأ.

وقال حنبل بن إسحاق :سمعتُ يَحيى بن مَعين يقول: قال أبو مُسْهِر: كان الوليد يأخذ من ابن أبي السَّفَر حديث الأوزاعي، وكان ابن أبي السَّفَر كذَّابًا وهو يقول فيها: قال الأوزاعي.

وقال مُؤمَّل بن إهَاب عن أبي مُسْهِر :كان الوليد بن مسلم يُحدِّث بأحاديث الأوزاعي عن الكذَّابين ثم يُدَلِّسها عنهم.

وقال أبو الحسن الدارقطني :الوليد بن مسلم يُرْسل، يروي عن الأوزاعي أحاديثَ عند الأوزاعي عن شيوخ ضعفاء، عن شيوخ قد أدركهم الأوزاعي مثل نافع، وعطاء، والزُّهْري، فيُسقط أسماء الضُّعفاء ويجعلها عن الأوزاعي عن نافع، وعن الأوزاعي عن عطاء والزُّهْري؛ يعني: مثل عبدالله بن عامر الأسلمي، وإسماعيل بن مسلم، وأكتفي بما ذكرتُ من أقوال أهْل الجَرْح والتعديل" اهـ.

ولكن لا بُدَّ من زيادة البيان والتوضيح لحديث الترمذي، والذي حدَّد فيه التسعة والتسعين اسمًا؛ لأنَّ كثيرًا من الناس يعتقدون أنَّ تعيينَ هذه الأسماء هي من قول النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وأنَّ لله - تعالى - تسعةً وتسعين اسمًا فقط!

لذا نستعين في بيان ذلك بكلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة في ردِّه عن سؤال في" الفتاوى"، (5/ 317)فيمن قال: لا يجوز الدعاء إلا بالتسعة والتسعين اسمًا، ولا يقول: يا حنَّان يا منَّان، ولا يقول: يا دليلَ الحائرين، فهل له أنْ يقولَ ذلك؟
قال ابن تيميَّة - رحمه الله تعالى - في" الفتاوى" :"الجواب: الحمد لله، هذا القول، وإن كان قد قالَه طائفةٌ من المتأخِّرين، كأبي محمد بن حَزْم وغيره، فإنَّ جمهور العلماء على خِلافه، وعلى ذلك مَضَى سلفُ الأُمَّة وأئمَّتُها، وهو الصواب لوجوه:
أحدها :أنَّ التسعة والتسعين اسمًا لم يردْ في تعيينها حديثٌ صحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شُعيب عن أبي حمزة، وحُفَّاظ أهْلِ الحديث يقولون: هذه الزيادة ممَّا جمَعَه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهْل الحديث، وفيها حديث ثان أضعفُ من هذا، رواه ابن ماجه، وقد رُوي في عددها غير هذين النوعين مِن جَمْع بعض السلف، وهذا القائل الذي حصَرَ أسماءَ الله في تسعة وتسعين لم يُمْكنه استخراجُها من القرآن.
وإذا لم يقمْ على تعيينها دليلٌ يجب القول به، لم يُمكنْ أن يُقال: هي التي يجوز الدعاء بها دون غيرها؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى تمييز المأمور من المحظور، فكل اسمٍ يُجْهَل حالُه يُمكن أنْ يكون من المأمور، ويُمكن أن يكونَ من المحظور، وإنْ قيل: لا تدعوا إلاَّ باسم له ذِكْر في الكتاب والسُّنة، قيل: هذا أكثر من تسعة وتسعين.

الوجه الثاني :أنَّه إذا قيل: تعيينُها على ما في حديث الترمذي مثلاً، ففي الكتاب والسُّنة أسماء ليستْ في ذلك الحديث، مثل: اسم" الرب"، فإنَّه ليس في حديث الترمذي، وأكثر الدعاء المشروع إنَّما هو بهذا الاسم، كقول آدم :(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) -الأعراف: ٢٣]، وقوله نوح :(رَبِّ إِنِّي

أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) -هود: ٤٧]، وقول إبراهيم : (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) -نوح: ٢٨]، وقول موسى :(رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) -القصص: ١٦]، وقول المسيح :(اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) -المائدة: ١١٤].

وأمثال ذلك، حتى إنَّه يذكر عن مالك وغيره أنَّهم كَرِهوا أن يُقال: يا سيّدي، بل يُقال: يا رب؛ لأنَّه دعاءُ النبيين وغيرهم؛ كما ذَكَر اللَّه في القرآن، وكذلك اسم" المنّان"، ففي الحديث الذي رواه أهْلُ السُّنن أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - سَمِع داعيًا يدعو: "اللهم إني أسألك بأنَّ لك الْمُلك، أنت الله المنَّان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حَي يا قَيُّوم، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِي به أجابَ، وإذا سُئِل به أعْطَى))، وهذا ردٌّ لقول مَن زَعَم أنَّه لا يُمكن في أسمائه المنَّان.
وقد قال الإمام أحمد - رضي الله عنه - لرجلٍ ودَّعه: قُلْ: يا دليلَ الحائرين دُلَّني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين.

وقد أنْكَرَ طائفةٌ من أهل الكلام، كالقاضي أبي بكر، وأبي الوفا بن عقيل أنْ يكونَ من أسمائه" الدليل"؛ لأنهم ظنُّوا أن الدليلَ هو الدَّلالة التي يُستدلُّ بها، والصواب ما عليه الجمهور؛ لأنَّ الدليلَ في الأصْل هو الْمُعَرّف للمَدْلول، ولو كان الدليلُ ما يُستدلُّ به، فالعبد يستدل به أيضًا، فهو دليلٌ من الوجْهين جميعًا.
وأيضًا فقد ثبَتَ في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنَّه قال: ((إنَّ الله وتْر يحبُّ الوتْر))، وليس هذا الاسم في هذه التسعة والتسعين.
وثبت عنه في الصحيح أنَّه قال: ((إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال))، وليس هو فيها.
وفي الترمذي وغيره أنَّه قال: ((إنَّ الله نظيفٌ يحبُّ النظافة))، وليس هذا فيها، وفي الصحيح عنه أنَّه قال: ((إنَّ الله طيّبٌ لا يَقبل إلا طيّبًا))، وليس هذا فيها، وتَتَبُّع هذا يَطول.

ولفظ التسعة والتسعين المشهورة عند الناس في الترمذي: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز،

الجبار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصور، الغفَّار، القهَّار، الوهَّاب، الرزَّاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحَكم، العَدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العَلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الجميل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحليم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الوَلِي، الحميد، المحصي، المبدِئ، الْمُعيد، الْمُحْيي، المميت، الحي، القيُّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد.
ويُروَى: الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخِّر، الأوَّل، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَر، التوَّاب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.
ومن أسمائه التي ليستْ في هذه التسعة والتسعين اسمه: السُّبُّوح، وفي الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنَّه كان يقول: ((سُبُّوح قُدُّوس))، واسمه: الشافي.

كما ثبَتَ في الصحيح أنَّه كان يقول: ((أذْهِب البأسَ ربَّ الناس، واشفِ أنت الشافي، لا شافي إلا أنتَ، شفاءً لا يُغادر سَقَمًا.((
وكذلك أسماؤه المضافة، مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورَبّ العالمين، ومالك يوم الدِّين، وأحْسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريبَ فيه، ومُقلِّب القلوب، وغير ذلك مما ثبَتَ في الكتاب والسُّنة، وثبَتَ في الدعاء بها بإجماع المسلمين، وليستْ من هذه التسعة والتسعين.

الوجه الثالث: ما احْتَجَّ به الخطَّابي وغيره، وهو حديث ابن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنَّه قال: ((ما أصابَ عبدًا قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدُك، وابنُ عبدِك، وابن أَمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حُكمك، عَدْلٌ فيّ قضاؤك، أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سَمَّيتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو عَلَّمتَه أحدًا من خَلْقك، أو استأْثَرْتَ به في عِلم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآن العظيم ربيعَ قلبي، وشفاءَ صدري، وجلاءَ حُزْني، وذَهاب غَمِّي وهَمِّي، إلاَّ أذهبَ الله هَمَّه وغَمَّه،

وأبدلَه مكانه فرحًا، قالوا: يا رسول اللّٰه، أفلا نتعلمهنّ، قال: ((بلَى، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلَّمهنَّ))؛ رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو حاتم وابن حِبَّان في صحيحه.

قال الخطَّابي وغيرُه: فهذا يدلُّ على أنَّ له أسماءً استأثَرَ بها، وهذا يدلُّ على أنَّ قولَه: "إنَّ للّٰه تسعة وتسعين اسمًا، مَن أحصَاها دخَل الجنة" - أنَّ في أسمائه تسعة وتسعين من أحصاها دخل الجنة؛ كما يقول القائل: إنَّ لي ألفَ درهمٍ أعددتُها للصَّدَقة، وإنْ كان مالُه أكثرَ من ذلك، واللّٰه في القرآن قال :(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) -الأعراف: ١٨٠.[

فأمَرَ أن يُدْعَى بأسمائه الحُسنى مُطلقًا، ولم يقلْ: ليستْ أسماؤه الحُسنى إلاَّ تسعة وتسعون اسمًا، والحديث قد سَلِم معناه، واللّٰه أعلم" اهـ.

واللّٰه من وراء القَصْد، وهو يهدي السبيل.

٥

التوحيد درة تاج الإسلام

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم-.

أمَّا بعدُ:
فعندما شاء الله- جلَّتْ حِكْمتُه، ولا مُعقِّب لحُكمه- أن يكونَ له خليفة في أرْضه يعبده ويوحِّده، ويدعو ذُرِّيَّته إلى ذلك، خَلَقَ آدمَ كما قال- تعالى :- (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) -البقرة: ٣٠

ثم بيَّن - سبحانه - الغاية من الخَلق، فقال :(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) -الذاريات: ٥٦].
ومن أجْل إفراده - سبحانه - وتعالى بالعبوديَّة والألوهيَّة؛ بَعَث الله أنبياءَه ورُسلَه مُبشرين ومُنذرين، وختَمَهم بالنبي الخاتم - صلَّى الله عليه وسلَّم - وأوحى إليهم بكُتبه وكلامه، وفيها نور وهدى لمن أرادَ بلوغَ طريق الرشاد، وغاية المرَام، ولكن طوال تاريخ البشريَّة والعِباد بين مؤمنٍ بوجوده - سبحانه - ومُلْحد يُنكر وجودَه، وبين مُصدِّقٍ برُسله وكُتبه، ومُكَذِّب لا يُؤمن ببعثٍ ولا حساب، ولا جنة أو نار.

ودخَلَ التحريفُ والتبديل في الكتب السماوية السابقة، وعاد كثيرٌ من العِباد إلي الشِّرْك بالله والكفر به، ولكن ظلَّ الإسلام الدِّين الوحيد الذي يدين أهْلُه بتوحيدهم لله، وإفراده بخصائص الألوهيَّة والعبودية، وكتابهم لم يُحَرَّف أو يُبَدَّل؛ لأنَّ الله وعَدَ بحِفظه؛ قال - تعالى :- (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) -الحجر: ٩].

•قال ابن تيميَّة في "اقتضاء الصراط" :"اعلم أنَّ الله - سبحانه وتعالى - بعثَ محمدًا - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى الخَلْق على فترة من الرُّسل، وقد مَقتَ أهْلَ الأرض - عربَهم وعجَمهم - إلاَّ بقايا من أهْل الكتاب، ماتوا - أو أكثرهم - قُبيل مِبعثه، والناس إذ ذاك أحد رجلين؛ إمَّا

كِتابي مُعتصم بكتاب، وإمَّا مُبدِّل، وإمَّا مُبدل مَنسوخ، ودين دارس، بعضه مَجهول، وبعضه متروك، وإمَّا أُمّي من عربي وعجمي مُقبل على عبادة ما استحسنه، وظنَّ أنَّه ينفعه مِن نَجم أو وَثَن، أو قَبْر أو تمثال، أو غير ذلك.

والناس في جاهليَّة جَهْلاء؛ من مقالات يظنونها عِلْمًا وهي جهل، وأعمال يحسبونها صلاحًا وهي فساد، وغاية البارع منهم عِلْمًا وعملاً، أنْ يحصلَ قليلاً من العِلم الموروث عن الأنبياء المتقدِّمين، قد اشتبه عليهم حقُّه بباطله"؛ اهـ.

ومن ثَمَّ فالتوحيد دُرَّة تاج الإسلام، والدين الذي ارتضاه الله لعباده، والمهيمن على الدِّين كلِّه؛ قال - تعالى :- (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) -آل عمران: ١٩.]
ولنا عودة إلى التوحيد في نهاية مَقالتي، بعد أن نبيّن حقيقة التوحيد عند أهْل الكتاب؛ لندركَ عَظَمة التوحيد عند الأُمَّة المحمديَّة، وأنَّه دُرَّة تاج الإسلام.

التوحيد عند اليهود:
اليهود أُمَّة قلوبُهم أشدُّ قسوة من الحجارة، فهم قومٌ لا عَهْد لهم، قتلوا أنبياءَهم، وكفَروا بالله ورُسله، وعاثوا في الأرض فسادًا، وصوَّروا الله - تعالى - في صور مُجسمة تُشبه البشر، ووصفوه بكثير من صفات النقْص والضَّعف، والكذب والغَفلة والجهْل، وهذا واضحٌ في كثيرٍ من قَصص أسفارهم.

كما أنَّهم حرَّفوا التوراة، واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً، وقالوا: هو من عند الله، فخسروا دينَهم ودنياهم؛ قال - تعالى :-(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) -البقرة: ٧٩.]

•وبنو إسرائيل تاريخُهم في الشِّرْك والكفر طويل، ولم يستطعْ نبيُّ الله موسى - عليه السلام - أن يمنعَ قومَه من عبادة العِجل الذي صنعه لهم" السامري"، فعبدوه بعد أن تأخَّر موسى في العودة إليهم، حينما

ذهَبَ لمناجاة الله، والقرآن الكريم بيَّنَ ذلك؛ فقال - تعالى :- (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي *قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَافَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ *فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ) -طه: ٨٦ - ٨٨].
من أجْل ذلك ضرَبَ الله على قلوبهم الذِّلَّة والمسْكَنة، واستحقوا غضبَ الله ولعْنَته عليهم في الدنيا والآخرة.

التوحيد عند النصارى:

لا يقل حال التوحيد عند النصارى عن حال اليهود من الشِّرْك والكفر والضلال المبين؛ فقد غالوا في دينهم، وقالوا في المسيح وأُمِّه قولاً عظيمًا، وتناول الأتباع بعد عيسى - عليه السلام - الإنجيلَ بالتحريف والزيادة؛ حتى أصبح أربعة أناجيل تُناقِض بعضها بعضًا.

وصارت الكنيسة هي المهيمنة المتسلِّطة، فقالوا: إنَّ المسيح الإله انقلبَ فأصبح إنسانًا، وعاش مع الناس كواحدٍ منهم، وقُتِل بيد اليهود أحفاد القِردة والخنازير ودُفِن، ثم خَرَج من قَبره وصعَدَ إلى السماء، وقد احتمَلَ هذه الآلام؛ لينقذَ البشريّة من الخطيئة التي ارتكبها أبوه آدم؛ لأنَّ المسيح - حسب اعتقادهم - له شخصيَّتان: اللاهوت، والناسوت؛ أي: إلهيَّة وإنسانيَّة، وكلُّ هذا غُلو يتبرَّأ منه نبيُّ الله عيسى يوم القيامة.

قال - تعالى :- (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) -النساء: ١٧١].

قال ابنُ كثير في تفسيره: "أي لا تجاوزوا الحدَّ في اتِّباع الحقّ، ولا تُطْروا مَن أُمِرتُم بتعظيمه، فتبالغوا فيه؛ حتى تُخرِجوه عن حَيّز النبوَّة إلى مقام الألوهيَّة؛ كما صنعتْم في المسيح وهو نبيٌّ من الأنبياء، فجعلتموه إلَهًا

من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم، شيوخ الضلال الذين هم سلفُكم ممن ضلَّ قديمًا"؛ اهـ.

وقال الشاطبي في" الاعتصام"، " :(1/ 103)فزعموا في الإله الحق ما زعموا من الباطل، بناءً على دليل عندهم مُتشابه في نفس الأمر حسبما ذَكَره أهْلُ السِّيَر، فتاهوا بالشبهة عن الحقّ؛ لترْكهم الواضحات، ومَيلهم إلى المتشابهات؛ كما أخبر الله - تعالى - في آية آل عمران، فلذلك قال - تعالى :- (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) -المائدة: ٧٧]، وهم النصارى"؛ اهـ.

والحاصلُ أنَّ التوحيد عند أهْل الكتاب من اليهود والنصارى فيه غُلو وباطل، فاستحقّ اليهود الغضبَ واللعْنَ من الله - تعالى - وضلَّ النصارى عن التوحيد الحقّ.

•قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في كتابه" اقتضاء الصراط المستقيم"، " :(1/ 67)كفر اليهود أصلُه عدمُ العمل بالعِلم، وكُفر النصارى أصلُه عملُهم بلا عِلم.
وجماع ذلك: أنَّ كفر اليهود أصلُه من جِهة عدم العمل بعِلمهم، فهم يعلمون الحقّ ولا يتبعونه عملاً، أو لا قولاً ولا عملاً، وكُفر النصارى من جِهة عملهم بلا عِلم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون؛ ولهذا كان السلف - كسفيان بن عُيينة وغيره - يقولون: إنَّ مَن فَسَد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومَن فَسَد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى"؛ اهـ.

التوحيد درة تاج الإسلام:
وبعد أنَّ بيَّنَّا حال التوحيد عند اليهود والنصارى، يتبيَّن لنا جَلِيًّا أن الإسلام هو الدِّين الوحيد من الأديان السماوية الذي ظلَّ مُحافظًا على خُلو التوحيد من شوائب الشِّرْك والكفر، وإن ضلَّ بعضُ القوم من الفِرَق والمذاهب الضالَّة؛ قديمًا وحديثًا، إلاَّ أنَّ الله سوف يؤيِّد مَن ينصر هذا الدين، ويدافع عن التوحيد مِن بِدَع الشِّرْك والكفر، وله الحمد والمنَّة.

•وقد أخْرَجَ مسلم في كتاب الإمارة عن ثوبان، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرُّهم مَن خَذَلَهم، حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك.))
ولا ريبَ أنَّ هذه الطائفة المنصورة هم أهْلُ السُّنة والجماعة، التي تقوم عقيدتُهم على إخلاص العبوديَّة والتوحيد لله - تعالى - في أسمائه وصفاته مِن غيْر تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ومِن غير تشبيهٍ أو تعطيل.

ويؤمنون بأنه - سبحانه - واحدٌ أحدٌ لا شريك له، وليس كمثله شيءٌ، ويؤمنون بكلِّ أنبياء الله ورُسله، لا يُفرِّقون بين أحدٍ منهم، ويؤمنون بكلِّ ما أُنْزِل عليهم من كُتب مِن عند الله قبل التحريف والتبديل، ويَدعون غيرَهم من أهْل الْمِلل والنِّحَل إلى الله وتوحيده، وإخلاص العبودية له، لا يبتغون بذلك أجرًا غير رضاه - سبحانه - وهو القائل في كتابه الكريم :(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) -آل عمران: ٦٤].

والله من وراء القَصْد، والحمد لله ربِّ العالمين.

٦

كيف أتوب؟

الحمد لله ربِّ العالمين، أشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وعلى آله وصَحْبه ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

كيف أتوب؟ سؤال يبحث عن إجابته كلُّ عاصٍ ضلَّ طريقَه، واتَّبع شيطانه ونفسه الأمَّارة بالسوء.

ورغم سهولة الإجابة، فإن من المستحيل طَرْحَها دون بيان حجج مَن ضلَّ طريقه، ويبحث عن تبرير لِمَا ارتكبه ويرتكبه من معاصٍ وذنوب لا يعلمها إلا الله تعالى وإليك أخي القارئ بعضًا من التبريرات أو الحجج الجوفاء، مع بيان زَيفها وضَحالتها قبل الشروع في الإجابة عن هذا السؤال، وسوف ألتزمُ في الردِّ عليها الْحِياد التامَّ في طَرْح الحجج من كلِّ جوانبها وعلاجها بموضوعيَّة، واضعًا نُصب عيني أنَّ الخير كل الخير في طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذا لا يجادل فيه إلا مُكابر حَاقِد على الإسلام، وإنْ قال غير ذلك.

حجج وشبهات أهل المعاصي:

الحجة الأولى

يقول البعض أُريد أن أتوبَ ولكنَّ الناس لا ترحم، ولا يسامح بعضُهم بعضًا، وطَغَتِ المصالح الشخصيَّة والأطماع الخاصة على القِيَم والمبادئ وحُب الخير والتكافُل بين الناس، ومَن لَم يتعامل مع الناس بشدَّة وغِلْظة وسوء ظَنٍّ، فلا ناقة له ولا جَمل، وسوف يضيع حقّه، ومعاملة الناس بالحبِّ وحُسن الظنّ بهم، وقَبول مَعذرتهم، كلها عوامل ضَعف في الشخصيَّة، ومثل هذا الإنسان سوف يَفترسُه الناس ويطمعون فيه، ويتعرَّض لسُخْريتهم وتَهكُّمهم، فكيف أتوب بعد ذلك؟!

ومَن الذي يحميني منهم إن لم أكنْ مثلهم؛ غَليظ القلب وسَيئ الظنّ بهم، ثم ليس منا مَن هو في إيمان أبي بكر الصديق، أو قوَّة وشدَّة

الفاروق عمر بن الخطاب في الحقّ، أو وَرَع وحَياء عثمان بن عفان، ولا فِقه وذكاء عَلِي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - والرسول ليس معنا كما كان مع الصحابة يرشدهم إلى الخير، ويحرِّضهم على التنافُس فيه.

إننا باختصار ومجمل القول: أصبحْنا كالسمك الكبير يأكل الصغير، والغني يذلُّ الفقير، والقوي يُرهِب الضعيف، أصبحْنا نعيش للدنيا ونموت من أجْلها!! ومِن ثَمَّ لا بد كي أعيشَ أنْ أفكِّرَ بنفس الطريقة التي يفكر بها الناس، وأعاملهم كما يعاملونني؛ بلا شفقة أو رحمة، وإلا كنتُ تابعًا لهم، ذليلَ إرادتهم وحِقدهم...إلخ.

فكيف أتوب بعد ذلك؟!

الرد على الحجة الأولى:

بدهي أنَّ الناس لن تتَّفِقَ أهواؤهم، كما أنَّ التسامح والمحبَّة وإنكار الذات من أجْلهم لن يَصِلَ أبدًا للحالة التي كان عليها الصحابة والتابعين وتابعو التابعين، وهم خيرُ قرون الإسلام على الإطلاق، بدليل حديث عِمران بن حصين قال:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((خيرُكم قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))، قال عمران: لا أدري ذَكر ثِنتين أو ثلاثًا بعد قَرْنه، ((ثم يَجيء قومٌ يَنذِرون ولا يَفُون، ويخونون ولا يُؤْتَمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السِّمَن))؛ أخرجه البخاري في الإيمان،٦٢٠١.

ومِن ثَمَّ، نستطيع القول - بكلِّ يقينٍ وحِياد -: إنه ليس منَّا، ولن يكون مَن هو كأبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - الذي قال في حقّه النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو كنتُ مُتَّخِذًا من أهل الأرض خليلاً، لاتخذتُ ابن أبي قُحافة خليلاً، ولكنْ صاحبُكم خليلُ الله))؛ مسلم في الفضائل، ٤٣٩٤.

وليس منَّا، ولن يكون مَن هو مثل الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - الذي قال النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم - في حَقِّه: ((والذي نفسي بيده، ما لَقِيَك الشيطان قطُّ سالكًا فَجًّا، إلا سلَك فجًّا غير فَجِّك))؛ أخرجه مسلم في الفضائل، ٤٤١٠.

وليس منّا، ولن يكون مَن هو كعثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - الذي قال النبي-صلّى الله عليه وسلّم - في حقّه: ((ألا أستحيي من رجلٍ تستحيي منه الملائكة))؛ أخرجه مسلم في الفضائل، ٤٤١٤.

وليس منّا، ولن يكون مَن هو كعَليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الذي قال النبي صلّى الله عليه وسلّم في حَقّه: ((أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبيَّ بعدي))؛ أخرجه مسلم في الفضائل، ٤٤١٨.

وليس منّا، ولن يكون رجلٌ أمين كأبي عبيدة بن الجراح، ولا شجاعٌ كسيف الله خالد بن الوليد، وغيرهما من الرعيل الأول من صحابة النبي صلّى الله عليه وسلّم والتابعين مِن بعدهم، وتابعي التابعين الذين قال الله تعالى فيهم :(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) -التوبة: ١٠٠].

ومِن ثَمَّ، فَلْنَرْضَ بما نحن عليه في زماننا هذا دون تفريطٍ في حقّ الله علينا، ولنكيّف حياتنا على الكتاب والسُّنة لا العكس.

نعم أقول بكلّ ما في قلبي من حَسرة وأَلَمٍ، مُقرًّا ببعض هذه الحجج والتبريرات، وليس كلها:

إن الواقع الذي نعيشه يشهد بأن في كلام مَن يقول بذلك بعض الحقّ، فقد تشتّتتِ الأُمة وضاعتْ سِمتُها وشخصيَّتها، وصَار الدين مُجرَّدَ شعائر وطقوس، وأصبحت المبادئ تُباع وتُشترى لِمن يدفع أكثر، فلا انتماء لمبدأ ولا انتصار لحقٍّ، وإنما المال سيّد الموقف، وقد مال بالناس عن الحقّ والصواب، إلاّ مَن عَصَمَه ربُّ العِباد - سبحانه.

هذا على الجانب العام، أمّا الجانب الشخصي، فحَدِّثْ ولا حَرَج، لقد صار المرءُ منّا يتمنّى لو كان أخوه لُقمة ليأكلَها هو، يقول: أنا وأنا والطوفان مِن بَعدي، واتّخذ الشيطان حبيبًا وصديقًا، ووليًّا مِن دون الله تعالى وقد تَملّكنا حُبُّ الدنيا واتّباع الهوى، وطَغَى على تصرُّفات الكثير منّا حُبُّ الذّات والنرجسيّة، والأنانية الخبيثة، وأصبحت المصلحة الشخصيّة لها

الأولويّة، حتى لو كانتْ تضرُّ بمصلحة الجماعة، فلا اعتبار لهذا، ومِن ثَمَّ اختلط الحابل بالنابل، وصار المرءُ لا يدري أين الحقُّ، وأين الباطل؛ من كثرة التلبيس والتدليس!!

ولكن رغم كل ذلك، هل فات الأوان؟
الجواب قطعًا: لا؛ فلا يأس من رحمة الله، ولا بد للشرِّ من نهاية، ولا بد من طلوع الفجر بعد ظُلمة الليل، والحلال بيّن والحرام بَيّن، والحق أحقُّ أن يُتَّبَعَ، وهنا مربط الفَرَس كما يقولون؛ قال تعالى:
(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ *لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) -الرعد: ١٧ - ١٨.]

ومِن ثَمَّ فلا مَندوحَة من بيان الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والخير من الشر؛ حتى لا يلتبسَ الأمرُ علينا، ونكتشفَ أين تَضَعُ أقدامَنا، فإن للطريق مَزالِقَ خَطِرة، والشيطان والنفس الأمَّارة بالسوء بالمرصاد لكلِّ جُهْد يُراد به تغييرُ النفس وتحصينها مما تحبُّ من شهوات الدنيا الْمُهْلِكة.

فلا غَرْو إذًا أن نتجاهلَ وَنَصُدَّ وسوسة الشيطان، وحديث النفس إن خَالَفْنا أمر الله تعالى ورسوله، وعلاج هذه الحجة في الإيمان والإيمان فقط، وأقصد بالإيمان: الإيمان بالله، وأنه لا نافعَ ولا ضارَّ إلا هو - سبحانه وتعالى.
وهذا دواءٌ فعَّال، فلو آمَن وأيْقَنَ الإنسان بأنَّ غيرَه من المخلوقات لا يَملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا حياة ولا موتًا ولا نشورًا.
أكرر قولي؛ لينتبِهَ صاحب الحجة: إن يقينَ الإنسان بأنَّ أمرَه في يد خالقه ورازقه ليدفعه قُدمًا إلى التمسُّك بتعاليم الكتاب والسُّنة، ولا يضرُّه اعتراض أهْل الأهواء والْجِدال العقيم، والفكر الريكاردي، الذي شعارُه: أنا أفكر إذًا أنا موجود!!

ولَيْتَ شِعري، كيف يجد الإنسان نفسه وهو خائف على رزقه وعمله، وعياله وحَشمه، ولا يخاف من أن يُسْلَب الإيمان، وتنقطع الصلة الروحيَّة

بينه وبين الله - تعالى؟! ما الذي ينفع المرء إن أراد الناس جميعًا تدميره، وإغراقه في هُوَّةٍ ما لَها مِن قرارٍ بحجج واهية؛ لقَتْل عزيمته، وتَسْفيه فِكْره، ووَهْنِ إرادته قبل التمرُّد على مبادئهم وأصنام الشهوات التي وَقعوا أمامها هَلْكَى وصَرعى، فضلوا ضلالاً بعيدًا، ويظنون أنهم يُحسنون صُنعًا؟!

إنَّ من نعمة الله على الإنسان أن يُنيرَ بصيرته وهو غارق لأُذنيه في ظُلمة المعاصي، ويُعينه بنور الهداية على الْمُضِي قُدُمًا بلا مَللٍ أو كَلل في دروبها الشائكة، غير خائف أو واجلٍ، وكيف يخالج جوانِحَه خوفٌ وقد أبصرَ طوقَ النجاة على مَرْمَى البصر؟!
وكيف يتردَّد في سلوك الطريق القويم بعد أنْ عرف لسانُه حلاوةَ الذِّكْر، وامتلأ قلبُه بالخشية من ربِّه والإيمان بقُدرته وعَظَمته، والطَّمْأنينة بقُربه ومناجاته، والثِّقة وحُسن الظنّ برحمته وعَفوه؟!

قال تعالى في كتابه الكريم :(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ *الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) -الرعد : ٢٨ - ٢٩.]

فهل مَن عرف حقيقة نفسه، وطَرَق فلاحها ونجاتها يتردَّد لَحظة في اتِّخاذ قراره؟ طبعًا لا، وإنما يسارع لسلوك الطريق الصعب؛ للخروج منه قبل أن تَجرِفَه عواصفُ المعاصي وتبعاتُها، إن ظَلَّ يُمَنِّي نفسه بالنجاة دون أن يتَّخِذ العُدَّة للصمود، ويتأهَّب بما قَذَف الله به في قلبه في غَفلة مِن هواه وشيطانه، في لحظة تجلَّتْ له فيها عَظَمة الله وقُدرته، فاقْشَعرَّ بدنُه، وخَشَع لها قلبُه، وأدمعتْ من خشيته عيناه، وقد أفلح إن فازَ بالنجاة.

يقول ابن القيّم في كتابه "طريق الهجرتين وباب السعادتين" (١/ ٤٣) ما مختصره:
"فإن مَن لَم تُولَد رُوحه وقلبُه، ويَخرج من مَشيمة نفسه، ويتخلَّص من ظُلمات طبعه وهواه وإرادته، فهو كالجنين في بطن أُمّه الذي لَم يرَ الدنيا وما فيها.

فهكذا هذا الذي بعدُ في مشيمة النفْس، والظلمات الثلاث هي: ظُلمة النفْس، وظُلمة الطبْع، وظُلمة الهوى، فلا بد من الولادة مرّتين؛ كما قال المسيح للحَوَاريين: إنَّكم لن تَلِجوا ملكوت السماء؛ حتى تُولَدوا مرّتين؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أبًا للمؤمنين؛ كما قراءة أُبَيّ" :النبي أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم"؛ ولهذا تفرَّعَ على هذه الأُبوّة أنْ جُعلتْ أزواجُه أُمّهاتِهم، فإنَّ أرواحَهم وقلوبهم وُلِدَتْ به ولادة أخرى غير ولادة الأُمَّهات، فإنه أَخْرَجَ أرواحَهم وقلوبَهم من ظلمات الجهل والضلال والغَي إلى نور العلم والإيمان، وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدتْ حقائق أُخَر وأمورًا لم يكنْ لها بها شعورٌ قبله؛ قال تعالى :(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) -إبراهيم: ١[، وقال :(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) -الجمعة: ٢."[

ثم قال - رحمه الله:

"والمقصود: أنَّ القلوب في هذه الولادة ثلاثة: قلبٌ لَم يولَد ولَم يَأْنِ له، بل هو جَنين في بطن الشهوات والغَي والجهل والضلال، وقلب قَد وُلِد وخَرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة، وتَخلَّص من مَشيمة الطباع، وظُلمات النفس والهوى، فقرّتْ عينُه بالله، وقرَّتْ عيونٌ به وقلوب، وأَنِسَتْ بقُربه الأرواح، وذَكَّرَتْ رؤيته بالله، فاطمأنَّ بالله وسَكَن إليه، وعَكَف بِهمَّته عليه، وسافرتْ هِممُه وعزائمُه إلى الرفيق الأعلى، لا يقر بشيءٍ غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئنُّ بغيره، يجد مِن كل شيءٍ سوى الله عوضًا، ومَحبَّته قوّته، لا يجد من الله عوضًا أبدًا، فذِكْرُه حياة قلبه، ورضاه غاية مَطلبه، ومَحبَّته قوَّته، ومعرفته أَنيسه، عدوُّه مَن جَذَب قلبَه عن الله - وإن كان القريب المصافي - ووليُّه مَن ردَّه إلى الله وجَمَع قلبَه عليه - وإن كان البعيد المناوِيَ - فهذا قلبان متباينان غاية التبايُن، وقلب ثالث في البرزَخ ينتظر الولادة؛ صباحًا ومساءً، وقد أصبح على فضاء التجريد، وآنَسَ من خلال الديار أشعة التوحيد، تأبَى غَلبات الحبِّ والشوق إلاَّ تقرُّبًا إلى مَن السعادة كلُّها بقُرْبه، والحظُّ كل الحظ في طاعته وحُبِّه، وتأبَى غَلبات الطباع إلاَّ جَذْبة وإيقافه وتعويقه، فهو بين الداعين تارةً، وتارة قد قَطَع عَقبات وآفات، وبَقِي عليه مفاوز وفَلوات.

والمقصود: أنَّ صاحب هذا المقام إذا تحقَّق به؛ ظاهرًا وباطنًا، وسَلِم عن نظرٍ نفسه إلى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده، فهو فقيرٌ حقيقي، ليس فيه قادحٌ من القوادح التي تحطُّه عن درجة الفقر"؛ أ.هـ.

أخي القارئ:
بناءً على ما سَبَق يتَّضِح لنا أنَّ الإيمان بأنه لا نافع ولا ضارّ إلا الله، يجعلُنا لا نتردَّد ألبتة في الْمُضي في الطريق بلا تردُّدٍ، بعزيمة وإيمان وقوَّة، ويقين بأنَّ الله غالب على أمره، ومُتِمٌّ نوره وناصرٌ عباده، ومؤيّدهم برعايته ورحمته، لا يضر المرء كَيْد الكائدين، ولا تهويل أصحاب الهوى، ولا يغتر بكثرة الهالكين.

وختامًا لبيان زَيف هذه الحجة أقول: إن أهْلَها نسوا أو تناسوا قول الله تعالى :(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) -الأنعام: ١٧].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ((احفظِ الله يحفظْك، احفظِ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فأسال الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، واعلم أن الأُمَّة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتَبَه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتَبَه الله عليك، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصحف))؛ أخرجه الترمذي، (٤/ ٢٥١٦)، وأحمد في مُسنده، (١/ ٢٩٣)، وإسناده صحيح.

ومِن ثَمَّ، ألا نامتْ أعينُ الْجُبناء الذين تخلَّوا عن تعاليم دينهم؛ جَرْيًا خَلف زينة الدنيا الفانية، وقاتلوا عليها مَن هم على شاكِلتهم، من أجل ماذا؟ لا أدري!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العَلِي العظيم.

الحجة الثانية
أنا أُريد أن أتوب، ولكن العصر قد اختلف وتغيَّر، ومن ثَمَّ طَغَتِ الماديَّات على حياتنا، وصار الدين مُجرَّدَ طقوسٍ بين العبد وربِّه، وانتشرت الإباحيَّة في كل مكان، حتى داخل البيوت؛ عن طريق جهاز التِّلفاز

وأطباق الدِّش، فضلاً عن المجلات التي تعرِضُ صُوَر النساء العاريات من الفنانات، وموديلات الدعاية للشامبو والصابون، والسيارات والأجهزة المنزلية، وحتى لُعَب الأطفال، صارت المرأة مادة إثارة لِجَذْب الزبون، وتبرَّجتِ النساء، حتى المحجَّبات منهنَّ؛ لِجَهْلهن بشروط الحجاب، أو لِمُسايرة حجاب بيوت الأزياء الذي لا يرتبط بشروط الحجاب الشرعي بأيِّ رابطٍ، اللهم إلا في الاسم دون الجوهر، وفي الجملة انتشر الفساد في البر والبحر بما كسبتْ أيدي الناس، وأمام كلِّ هذه الفِتَن والكوارث والمصائب و...و!!..

كيف أتوب وأستقيم وأرى ما أرى، ولا أستطيع الانفكاك عنه والهروب منه ؟!!

الرد علي الحجة الثانية:

الردُّ سهلٌ ويَسير لِمَن أراد حقًّا الهداية، وليكنْ معلومًا أنه ما صارت الفِتن تتساقط على رؤوسنا، والبركة تضيع من أيدينا، والمعاصي تزداد في أعمالنا - إلا بالبُعد عن الله تعالى وهَدْي النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى المرءِ أن يكون صريحًا في بيان الداء والدواء لِمَا أصاب حاله، إن أرادَ حقًّا التوبة والاستقامة، لا الجدال والاستطالة، والفَرق بين هذا وذاك كبير للغاية كما لا يَخفى، ومِن ثَمَّ نقول ردًّا على القول بتغيُّر الزمان بسؤال واضحٍ لا لَبْسَ فيه ولا غموض، ما الذي تغيَّر وتبدَّل يا أهل المعاصي؟

القرآن الكريم بين أيدينا لم يتغيَّرْ فيه حرف، ومنقول إلينا بالتواتُر اللفظي عن جَمهرة كبيرة من الصحابة، فضلاً عن أنه محفوظ بحِفظ الله تعالى؛ قال تعالى :(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) -الحجر: ٩].

والسُّنة محفوظة أيضًا بنصِّ الآية السابقة؛ لأن القران مُجمَل والسُّنة مُفَسِّرة له، وحِفْظُها من حِفظه كما لا يَخفى على اللبيب، وقال العلماء: حِفظ القرآن يتوقَّف على حِفظها، ومستلزم له بما أنها حِصنه الْحَصين، ودِرْعه المتين، وحارسه الآمين، وشارحه المبين؛ تفصِّل مُجْمله، وتفسِّر مُشكله، وتوضِّح مُبْهَمة، وتقيِّد مُطْلَقه، وتَبْسُط مختصره، وتدفع عنه عَبَث العابثين ولَهْوَ اللاهين، وتأويلهم إيَّاه على حسب أهوائهم

وأغراضهم، وما تُمليه عليهم رؤوسهم وشياطينهم، فحفظُها من أسباب حِفظه، وصيانتها صيانة له"؛" حُجيَّة السُّنة"؛ د. عبدالغني عبدالخالق، ص:٣٩١.

ولقد بذَل العلماء الْجُهد المشكور في بيان صحيحها من ضَعيفها؛ حتى لا يدخل في كلام النبي ما ليس منه، ولله الحمد والمنَّة، فهي محفوظة إذًا بحفظ الله، وإن غابَ الحبيب عنَّا بجسده، فلا غَرَابة في ذلك، فلم يَكتب الله لأحدٍ من خَلْقه الخلود في الدنيا وهو القائل :(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) -آل عمران: ١٨٥.[

ثم السنة - كما هو معلوم - اثنا عشر شهرًا، فهل قَلَّتْ أو زادتْ عمَّا كان أيام النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم - وصحابته شيئًا، حتى يُقال: إنَّ العصر قد اختلف، وما يُقال عن السنة يُقال عن الأسبوع، هل هو سبعة أيام كما كان في عهد النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم - وأصحابه، الأمر لا يحتاج إلى تعليقٍ.

فما الذي تغيَّر إذًا؟!

من المؤْسِف أن يتحجَّج البعضُ ويتمسَّك بقشَّة الزمن رغم هشاشتها ولِينها، وما في ذلك من سرعة سقوطهم في براثن الشيطان؛ ليُحِلُّوا لأنفسهم الخروج عن شَرْع الله تعالى ومن المستحيل أن يكون لسانُ حال هؤلاء هو هذا السؤال :كيف أتوب؟ لأنه من البداهة أن من يريد التوبة حقًّا يعدُّ العُدَّة ويُخْلِص النيَّة، ويُكثِر الزاد ويُجاهد نفسَه وهواه، ويلتمس وسائل الثبات على الدِّين، لا وسائل إبليسيَّة تدعوه إلى رَدِّ المعروف وإتيان المنكر، والسعي لانتصار النفس على حساب الدين، أو إرضاء شهواتها على أطلال الفضيلة والقِيَم الأصيلة التي تعارَف عليها الناس ولا تُخالف الشرْع، بل تندمج فيه وتأخذ شرعيَّتها منه.

ولا بأْسَ أن نبيّن لصاحب هذه الحجة زَيفها وبطلانها؛ لأن الإقناع هو الوسيلة الفعَّالة لردِّ العاصي عن مَعصيته، وإعانة التائب على توبته، وزيادة حماس أهْل الصلاح والتقوى على الْمُضِي قُدمًا على الطريق القويم، وصراط الله المستقيم.

نعم، يعيش المسلمون اليوم أزهى عصور التقدُّم العِلمي والتكنولوجي في كثيرٍ من بقاع العالم، فنحن في عصر الكمبيوتر والإنترنت، عصر حبوب الفياجرا والاستنساخ، وهَلُمَّ جرًّا.

ولكن للأسف الشديد، ما زال كثيرٌ من المسلمين يعيشون جاهلية التخلُّف والجمود، ولا أقصد جاهليَّة الأخْذ بالعلوم العصريَّة ومواكبة التقدُّم العِلمي، طبعًا هذا يخالف واقِعَ الحال؛ فالأُمَّة الإسلاميَّة - ولله الحمد والمنَّة - انتشرتْ فيها التكنولوجيا المتقدِّمة والمتطوِّرة، وأحدث ما وصلتْ إليه العقليَّة الإنسانية من العلوم والفنون، فقطعًا هذا ما لا أقصده، إنما أقصد جاهليَّة الاتِّباع الأعمى بلا وَعْي للحضارة الغربية والأمريكيَّة، والانسلاخ من الْهُويَّة والإسلامية بما فيها من قِيَمٍ وتعاليمَ ومبادئ سامية إلى عادات وتقاليد شعوب تعيش انهيار أخلاقي إلى جانب تقدُّمها العِلمي، معتقدين أنَّ الأخْذ بكل ما في تلك الحضارتين من فضائل ورذائل هو السبيل الوحيد للرُّقِي والتقدُّم.

ومِن ثَمَّ لا ريبَ أن سعادتنا الحقيقيَّة - في الدنيا والآخرة - في عودتنا إلى ديننا الحنيف، وأخلاقنا وتقاليدنا السامية، مع الأخْذ بالتقدُّم العِلمي والاحتراز من العادات الشاذَّة، والاندفاع للأخْذ بها بتهوُّرٍ وجنون، بلا وَعْي لعواقبها ولا تفكير لإدراك فائدتها قبل الدعوة لانتشارها بين الناس، فليس الجميع على مستوًى واحدٍ من الفَهم والإدراك، وليس الجميع على مستوًى واحدٍ في قوة الإرادة والعزيمة.

قال تعالى :(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) -الزخرف: ٣٢].

وإهمال مثل هذا الفارق الفِطْري والجوْهَري في طبيعة أبناء آدم عليه السلام الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى، رغم الاختلاف البيِّن فيما بينهم - في تجانُس وانسجام، واحتياج بعضهم بعضًا، وزَرَع في قلوبهم الميْلَ الفِطْري والتعاون المثْمِر لالْتِماس ما ينقصهم؛ مِن علمٍ أو مال، أو قوَّة أو ذكاء وعبقريَّة، أو ما أشبه ذلك عند مَن أكْرَمه الله وأعطاه من صفات وخصائص ينفرِدُ بها عن أقرانه؛ ليكون هذا من وسائل الرِّزْق

التي كَتَبها الله تعالى لعباده ووعَدَهم بها وضَمِنها لهم؛ سواء اختار العبد الطريق القويم المستقيم، أو ضلَّ طريقه لِمَا أصابه من عَمَى البصر والبصيرة؛ قال تعالى :(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) - الذاريات: ٢٢.[

أقول :أدَّى الانفتاح على العالَم في عصر العوْلَمة دون مُراعاة هذا الفارق الجوهري في طبيعة الإنسان إلى نتيجة سلبيَّة على جانب عظيم من الخطورة، وإلى إشاعة الفوضى وعُلو أهْل المنكر على أهْل المعروف، وأصبحتْ مقادير العلوم والثقافة في يد مَن لا يفقه شيئًا في دين الله تعالى وبالتبعة كان من عواقب ذلك الانهيار الأخلاقي بين أفراد الأُمَّة، فضلاً عن الفقر الثقافي والديني الذي أصابها بعد أن ظهَرَ النبوغ والعبقريَّة بَغْتة على عقول بعض أصحاب الفِكر والبَلْبلة؛ من خُطباء الفتنة، ومنكري السُّنة، وأنصار التنوير، فأغرقوا الأُمَّة في سفسطة جَدَليَّة وهَدَموا ثوابت الدين رأسًا على عقب بحجة أنها السبب في تخلُّفنا عن رَكْب الحضارة، فأهملوا تعاليمَ دين ربِّ العالمين، وسُنَّة النبي الأمين صلَّى الله عليه وسلَّم واتبعوا تعاليم الشيطان الرجيم وأوليائه، وصَدَّعوا رؤوسنا بمذاهب شتَّى، وآراء عنتريَّة وسخافات جدليَّة، واتهموا العلماء وَرَثة الأنبياء بالغُلوِّ والتطرُّف عن سماحة الدين، وبصموا بالعشرة أنَّهم السبب الأساس في إفساد الشباب، ولو تأمَّلنا حال الشباب الذين أفسدَهم مشايخ التطرُّف، لا نجد إلا شبابًا مَهْووسًا من الجِنسَيْن، إلاَّ مَن رَحِم ربي، يشق أنْ تُميّز بين الذَّكَر والأنثى فيما بينهم؛ لِمَا أصابهم من تخنُّث وميوعة، ووَلَع" بروبي ونانسي عجرم"، ولاعبي الكرة الذين صاروا أصحاب ملايين، وسلعة لها سوق رائجٌ لا يبور لِمَن يدفع أكثر، لا نجد إلا شبابًا يبحث عن الشهرة والثَّراء السريع باتِّباع الطرق الملتوية والرِّياء والنفاق الفاضح؛ لكَسْب القلوب السقيمة البعيدة عن الله تعالى.

ومِن ثَمَّ نقولها بكل حياد وصراحة: إن إنسانَ عصرِ العَولَمة والعلوم العصريَّة، والحوار بين الأديان.... إلى آخره - أصبح يعاني من ابتلاءاتٍ شتَّى، وصعوبات جَمَّة، على الرغم من التقدُّم العلمي المذْهِل، ولا فارِقَ في ذلك بين غَنِي قادر، وفقير عاجز، أو متعلِّم مُدرك وواعٍ، وجاهل أُمِّيٍّ تائه وحائر، وبين سليم معافًى، وسقيم يعاني ويُقاسي.

الإنسان هو الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكان، صارت الابتلاءات تَعصِف بكِيانه، وتذهب بحُلمه ووقاره، وتُزلزل إيمانه ويقينه؛ قال تعالى :(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا *إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا *وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) -المعارج: ١٩ - ٢١.]

نعم، ابتلاءات شتَّى تَعصِف وتكدِّر حياتك، ولكن لَم ولن تكون هذه الحجة عائقًا للإنسان أبدًا كي يستقيم على طريق الله تعالى ولأصحاب هذه الحجة أدعوهم إلى استشعار عَظَمة الافتقار إلى الله والالْتجاء إليه بالذِّكْر والدعاء، ونوافل الطاعات، فحقيقة الإيمان بالله تستلزم طاعته في السرَّاء والضرَّاء، في البليَّة والنعمة، فالمؤمن يفتقر إلى الله دائمًا، فهو الغني الحميد.

ولكن للأسف الشديد الأمر خلاف ذلك، فإذا أصاب الإنسان بَليَّة ابتعدَ عن الله وعن طاعته، وذِكْره وشُكْره، ولَجَأ إلى مخلوق مثله لا يملك له ولا نفسه نفعًا ولا ضرًّا، وجَحَد نعمة الله عليه، وإن أصابتْه نعمة سُرَّ بها، ولجأ إلى الله بالشكر والذِّكْر، وفي ذلك يقول تعالى :(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ *وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) -الفجر: ١٥ - ١٦.]

وهذه من صفات الجاحدين والمنافقين، فَكُنْ غيرَ ذلك، واذكرِ الله تعالى في سَريرتك وعَلانيتك، في بَليَّتك ونعمتك، في سعادتك وشَقائك، فإن في ذِكْرك له رحمةً بك، واطمئنانًا لقلبك؛ قال تعالى :(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) -الرعد: ٢٨.]
وفي الحديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: ((قال الله تعالى: أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرني، فإنْ ذَكَرني في نفسه، ذَكَرتُه في نفسي، وإنْ ذكَرني في ملأ، ذَكَرتُه في ملأ خَير منهم))؛ أخرجه البخاري، (١٣)، ح (٧٤٠٥)، (فتح) ومسلم (٤)، ذكر، (٢٠٦١)، ح (٢).

فعليك - أخي القارئ - بالأذكار المختلفة في ذهابك وإيابك، في الصباح والمساء، لا تَغفل عن ذِكْر الله، ولا يفتر لسانُك عن التسبيح والتكبير، والتحميد والتهليل؛ فإن ذلك من علامات حياه القلوب؛ لأن القلب الذي لا يذكر الله قلبٌ ميّتٌ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: ((مَثَل الذي يذكر

ربّه والذي لا يذكر، مثل الْحَي والميّت))؛ أخرجه البخاري، (١١- ح ٦٤٠٧- فتح.)

ولا تنسَ الدعاء؛ فهو مُخُّ العبادة، والْتَمِسْ أوقاتَ الإجابة، مثل: بعد الصلوات المفروضة، وفي الثُّلث الأخير من الليل، وفي السجود لله تعالى وعند نزول الغَيْث، وغير ذلك، واعلم أنَّ الله على كل شيءٍ قدير؛ قال تعالى :(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) -غافر: ٦٠.]

ولا تنسَ أن تدعو بهذا الدعاء العظيم الذي كان يدعو به النبي صلى الله عليه وسلم: ((اللهم أصلحْ لي ديني الذي هو عِصمة أمري، وأصلحْ لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها مَعادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كلِّ خَير، واجعل الموت الموت راحة لي من كلِّ شَرٍّ))؛ أخرجه مسلم، (٤- ذكر – ٢٠٨٧- ح ٧١.)

وحَذارِ أن تتعجَّل الإجابة وتترك الدعاء؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: ((يُستجاب لأحدكم ما لَم يَعجَلْ؛ يقول: قد دعوتُ ربِّي، فلَم يَستجبْ لي))، وفي رواية لمسلم: ((لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثْمٍ، أو قطيعة رَحِم، ما لَم يستعجِلْ))، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: ((يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ مَن يستجيب لي، فيستحْسِرَ عند ذلك، ويَدَعُ الدعاء))؛ أخرجه البخاري، (١١- ح ٦٣٤٠- فتح)، ومسلم، (٤ - ذكر - ٢٠٩٦ - ح٩٢.)

وعليك - أخي المسلم - من الإكثار من النوافل؛ من صلوات وصيام، إلى غير ذلك من الطاعات التي تقرِّبك من ربِّك إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، واعلم أنَّ الجزاء من جِنس العمل، فمن ابتغى رضا الله، وتقرَّب إليه بسائر الطاعات؛ لا يَلْجَأ إلا إليه، ولا يسأل سواه، ولا يَفْتَقِر إلا إلى رحمته، فإن الله تعالى سوف يَكْشف عنه السوءَ، ويُذْهِب عنه ما به مِن هَمٍّ وغَمٍّ وحزن؛ قال تعالى :(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) -النمل: ٦٢.]

وتذكَّر أنَّ دوام الحال من المحال، وها هو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هاجروا من مكة إلى المدينة، تاركين الأهلَ والمال، والعشيرة

والديار، وظلُّوا على إيمانهم وجِهادهم مؤمنين بنصر الله، وأنَّ مع العسر يُسْرًا، وأنَّ الفرج قريبٌ، حتى قضَى الله أمرًا كان مفعولاً، ودَخَل النبي إلى مكة ومعه ١٠ آلاف مقاتل من المسلمين، وحَطَّم الأصنام وهو يقول قول الحقّ جل وعلا :(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) -الإسراء: ٨١.]

وصعد بلال على الكعبة، فأذَّن وصدَع بكلمة التوحيد، ودَخَل الناس في دين الله أفواجًا، وعاد أصحابُه إلى الأهل والعشيرة والديار بالصبر والإيمان، فدوام الحال من المحال.

واعلم أنه لا بدَّ للمرء أن يمرَّ بثمانية أشياء؛ كما قال أهل العلم: عُسر ويُسر، حُزن وفَرح، لقاء وفِراق، سُقْم وعافية.

تلك هي سُنَّة الله في خَلقه، فالْتزم بأوامر الله وسُنَّة رسوله الله صلى الله عليه وسلم لا تحِد عنهما، ولا تتَّبعِ الهوى، ولا يغرَّك بالله الغرور، وما أجمل قولَ الشاعر:

إِنَّ لِلَّه عِبَادًا فُطنَا
طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا
صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

وتذكَّر - أخي القارئ - أنَّ أكثر الناس بلاءً الأنبياء فالصالحون، فالأمثل، فالأمثل.

نعم، تذكَّر ولا تنسَ أبدًا أنَّ البلاء شعارُ الصالحين، وعلى قَدْر إيمان العبد يكون بلاؤه، فإن كان إيمانه قويًّا، كان البلاء كذلك، حتى قيل: إذا سلك بك سبيل البلاء، فَقَرَّ عينًا؛ فإنه يسلك بك سبيل الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك سبيل الرَّخاء فابْكِ على نفسك؛ فقد خُولِف بك عن سبيلهم.

الحجة الثالثة:

أنا أريدُ أن أتوبَ ولكنَّ النساء أخطرُ الفِتَن على الشباب غير المتزوِّج، وتبرُّجهن وكَشْفهن ما يجب إخفاؤه، مع صعوبة تكاليف الزواج، وخوف الفتاة من تقدُّم السِّنّ دون زواج، أدَّى إلى وقوعهما معًا في الْحرام بجَهْلٍ بالشرع، أو تعمُّد وقَصْدٍ، والحال مستمر باستمرار السبب، والغريزة الجنسيَّة من أخطر غرائز الإنسان، فهل يكفي ما نسمعه من مواعظَ عن الصوم وغَضِّ البصر؟ وإلى متى؟ وماذا عن الشيطان والنفس الأمَّارة بالسوء؟ فكيف أتوبُ ودوام الطاعة مع هذه الفِتن والانفلات الذي لا يردعه دينٌ أو قانون من المحال أن تستمرّ؟

وللردِّ على هذه الحجة نقول:
إنَّ الغريزة الجنسيَّة حقًّا من أخطر غرائز الإنسان، ولقد أباحَ الله - تعالى - لنا إرواءَ هذه الغريزة بالزواج الحلال؛ لحِفْظ النَّسْل، وإنشاء جِيلٍ جديدٍ، واستمرار تعمير الأرض، وقيام الإنسان بمسؤوليَّته في تحمُّل واجبات الخلافة ومسؤوليَّاتها الجسيمة.

وبَدهي أنَّ الوضْع الفِطري أنَّ المرأة هي المطلوبة، والرجل هو الطالب لها، والقائم على مُتطلَّبات الزواج كلِّها، اللهم إلا إذا شاركتْه المرأة في بعض هذه الأشياء من باب العُرف السائد في دنيا الناس، وهو أمرٌ غير مُلزم لها، ولكنَّه محمودٌ في ذاته؛ لقوله - تعالى -: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) -المائدة: ٢].

إنَّ النساء - كما هو معلوم - من أخْطَر الفِتن؛ لأنها المرغوبة؛ ولهذا جعَلَها الله - تعالى - أوَّل مَراتب الشهوات وأخطرها على الإطلاق؛ قال - تعالى -: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) -آل عمران: ١٤]، والزواج هو الحلُّ الجذري لقَطْع دابر الفتنة التي نشأتْ بسبب هذا الانفلات؛ ولكن، بكل مصداقيَّة وحِياد أقول: ساعَدَ على هذا الانفلات تبرُّج النساء، وكَشْفُهن ما يجب إخفاؤه، مع صعوبة تكاليف الزواج، وإعراض الشباب عنه؛ لعجزهم عن مُؤْنته، ورُبَّما لخوف الفتاة من تقدُّم السِّنّ دون زواج،

ورُبَّما لِمَيْلها الغريزي للتزيُّن وجَذْب انتباه الشباب؛ لإرضاء أنوثتها ونفسها الأمَّارة بالسوء، ورُبَّما لغير ذلك.

وقد أدَّى ذلك كلُّه إلى إشعال الفتنة، وتهيُّج الغريزة الجنسيَّة للجنسيين إلى أقصى حَدٍّ، ومع زيادة العُري والاختلاط الفاحش بحجة المساواة، والْخَلوة المدمِّرة للشَّرف والفضيلة بلا حسيب أو رقيب، أو رادعٍ من دِين أو أهْل بحجة الحريَّة الشخصيَّة، ومُحَاولة إرضاء النفْس بالحرام الميسور بعد أن صارَ الحلال صعبًا.

وكانت النتيجة الطبيعيَّة لهذا الهبوط والانفلات أنْ تراجَعَ الوازع الديني وما تعارَفَ عليه الناس من قِيمٍ وأخلاقيَّات بين الشباب والفتيات معًا، إلاَّ مَن رَحِم ربِّي، ولَجَأ الشبابُ من الجنسيين إلى إرضاء ذاته وشَهَواته بطُرقٍ مَزالقُها خَطِرة، أدَّتْ إلى تَفَشِّي الفجور في المجتمع، فانتشرَ بينهم الزواج السِرِّي، والزواج العُرْفي الذي لا يستندُ إلى أركان الزواج الصحيح؛ من موافقة الوَلِي، والشهود، والصَّدَاق، والإشهار، وإنما هو زواجٌ "مودرن" على هوى النفْس؛ لإشباع الغرائز المكبوتة؛ لارتفاعٍ تكاليف الزواج وصعوبته.

ورغم كل ذلك، فليس صلاح النفس وتقواها وبُعْدها عن عوامل الإثارة المهيجة للشهوة - حتى يقضي اللّٰه تعالى أمرًا كان مفعولاً - بمستحيل، فقط ما علينا إلا أنْ نتَّبِع الصراط المستقيم؛ قال - تعالى -: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) - الأنعام: ١٥٣].

ولذا فمقولة: إنَّ الصوم وغَض البصر لا ينفعان في هذا الزمان، مَقولةٌ غير صائبة بالمرة، بل هي حجة ضعفاء الإيمان والإرادة، الذين أسلموا قِيادتهم للشيطان وأوليائه، ولو تمهَّلوا وتدبَّروا لوجدوا في "غَضِّ البصر والصوم" الملاذَ من فتنة النساء، ولو زادوا عليهما أمرًا ثالثًا، وهو أمرٌ جَوْهَري يتقدَّم الصوم وغَض البصر، بل هو العمود الفقري لهما، ولا فائدة منهما إنْ أهْمَله المرءُ، وها هي الأمور الثلاثة لِمَن أراد النجاةَ والفلاح بشيءٍ من البيان والتوضيح.

الأمر الأول والجوهري: قوة الإرادة والعزيمة:

يقول ابنُ القيّم (ص١٨٢) في كتابه "طريق الهجرتين" ما مُختصره:

وكذلك النفس: فما يحصل لها من شرّ، فهو منها ومن طبيعتها، ولوازم نَقْصها وعَدمها، وما يحصل لها من خَيْرٍ، فهو من فَضْل الله ورحمته، والله خالقُها وخَالِقُ كل شيءٍ قامَ بها؛ من قُدْرة وإرادة، وعِلْم وعمل، وغير ذلك... إلى أنْ قال:

فالنفس لا تكون إلا مُريدة عاملة، فإن لم توفَّق للإرادة الصالحة، وإلا وقعتْ في الإرادة الفاسدة، والعمل الضار، وقد قال - تعالى -: (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) -المعارج: ١٩ - ٢٢].

فأخبر - سبحانه - أنَّ الإنسان خُلِق على هذه الصفة، وأنَّ مَن كان على غيرها فلأجْل ما زكاه الله به من فَضْله وإحسانه، وقال - تعالى -: (وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا) -النساء: ٢٨].

قال طاوس ومُقاتل وغيرهما: لا يصبر عن النساء، وقال الحسن: هو خَلْقُه من ماءٍ مهين، وقال الزجَّاج: ضَعف عَزْمه عن قَهْر الهوى، والصواب: أنَّ ضَعْفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر؛ فإنَّه: ضعيف البنْية، ضَعيف القوَّة، ضعيف الإرادة، ضعيف العِلم، ضعيف الصبر، والآفاتُ إليه مع هذا الضَّعف أسرعُ من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لا بدَّ له مِن حافظٍ مُعين، يُقوِّيه ويُعينه، وينصره ويساعده، فإن تخلَّى عنه هذا المساعد المعين، فالهلاك أقربُ إليه من نفسه... ثم قال:

فالقدرة إن لم يكنْ معها حِكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظرٍ في العاقبة، ولا حِكمة محمودة يَطْلبها بإرادته، ويَقْصدها بفِعْله، كان فِعْلُه فسادًا، كصاحب شهوات الغَي والظلم، الذي يفعل بقوَّته ما يريده من شهوات الغَي في بَطْنه وفَرْجِه ومِن ظُلْم الناس، فإن هذا وإنْ كان له قوَّة وعِزَّة، لكنْ لَمَّا لَم يقْترن بها حِكمة، كان ذلك معونة على شَرِّه وفساده، وكذلك العِلم كماله أن تَقترن به الحِكمة، وإلاَّ فالعالم الذي لا يريد ما تَقتضيه الْحِكمة وتوجبه، بل يريد ما يهواه، سَفِيهٌ غاوٍ، وعِلمه عَونٌ على الشرِّ والفساد، هذا إذا كان عالِمًا، قادرًا، مُريدًا، له إرادة من غير حِكْمة، وإن قُدِّرَ أنَّه لا إرادة له بحال، فهذا أولاً مُمتنع من الحي، فإن

وجودَ الشعور دون حبٍّ ولا بُغض ولا إرادة ممتنعٌ، كوجود إرادة دون الشعور، وأمَّا القُدرة والقوَّة إذا قُدِّر وجودُها دون إرادة، فهي كقوة الجماد، فإن القوة الطبيعيَّة التي هي مبدأ الفِعْل والحركة لا إرادة لها، وقد قال بعضُ الناس: إنَّ للجماد شعورًا يليق به، واحْتَجَّ بقوله - تعالى -: (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) -البقرة: ٧٤]، وبقوله - تعالى -: (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) -الكهف: ٧٧].

وهذه المسألة كبيرة تحتاج إلى كلامٍ لا يَليق بهذا الموضِع، والمقصود أنَّ العلم والقُدرة المجرَّدين عن الحِكمة لا يحصل بها الكمال والصلاح، وإنَّما يحصل ذلك بالْحِكمة معها، واسمه - سبحانه - ((الحكيم)) يتضمَّن حِكْمته في خَلْقه وأمْره في إرادته الدينيَّة والكونيَّة، وهو حكيمٌ في كلِّ ما خَلَقه وأمَرَ به"؛ أ.هـ.

ولعلَّنا لو ذَكَّرْنا القارئ بقصة مراودة امرأة العزيز ليوسف - عليه السلام - لكُفِي وشُفِي، وأدْرَكَ المقصود بقوَّة الإرادة هنا؛ قال الشوكاني في تفسير الجزء :٣/ ٢٣، لقوله - تعالى -: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) -يوسف: ٢٣].

المراودة: الإرادة والطلب برِفْقٍ ولِين، وقيل: هي مأخوذة من الرَّود؛ أي: الرِّفْق والتأنِّي، يُقال: أَرْوِدْنِي: أمْهِلني، وقيل: المراودة مأخوذة مِن رادَ يَرود: إذا جاء وذَهَب، كأن المعنى: أنَّها فعلتْ في مراودتها له فِعْل المخادِع، ومنه الرائد لِمَن يطلبُ الماء والكَلأ، وقد يخصُّ بمحاولة الوِقَاع، فيُقال: رَاوَدَ فلانٌ جاريته عن نفسها، ورَاوَدَتْه هي عن نفسه: إذا حاول كلٌّ منهما الوطء والْجِماع، وهي مفاعَلة، وأصلُها أن تكونَ من الجانبين، فجعل السببَ هنا في أحد الجانبين قائمًا مقامَ المسبب، فكأن يوسف - عليه السلام - لما كان ما أُعطيه من كمال الْخَلق، والزيادة في الْحُسن سببًا لمراوَدَة امرأة العزيز له - مُراوِدٌ، وإنَّما قال: (الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا)، ولم يَقل: امرأة العزيز أو زليخا؛ قصْدًا إلى زيادة التقرير، مع استهجان التصريح باسمِ المرأة، والمحافظة على الستر عليها، (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)، قيل: في هذه الصيغة ما يدلُّ على التكثير، فيُقال: غَلَّق

الأبواب، ولا يُقال: غَلَق الباب، بل يُقال أغْلَق الباب، وقد يُقال: أغْلَق الأبواب، ومنه قول الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

مَا زِلْتُ أُغْلِقُ أَبْوَابًا وَأَفْتَحُهَا
حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرو بْنَ عَمَّار

قيل: وكانتِ الأبواب سبعة.

قوله: (هَيْتَ لَكَ): ومعنى هَيْتَ على جميع القراءات معنى هَلُمَّ وتَعالَ؛ لأنها من أسماء الأفعال، ثم قال: وقد رُوي عن ابن عباس والْحَسن أنَّها كلمة سريانيَّة، معناها: أنها تدعوه إلى نفسها، قال أبو عبيدة: كان الكِسائي يقول: هي لغة لأهل "حوران" وقعتْ إلى أهل الحجاز، معناها: "تعالَ"، قال أبو عبيدة: فسألتُ شيخًا عالِمًا من "حوران"، فذَكَر أنها لغتهم.

(قال معاذ الله)؛ أي: أعوذ بالله معاذًا مما دعوتِني إليه، فهو مصدر منتصبٌ بفِعْلٍ محذوف مُضاف إلى اسم الله - سبحانه - وجملة (إنَّه ربِّي أحسن مثواي): تعليل للامتناع الكائن منه ببعضِ الأسباب التي هي أقربُ إلى فَهم امرأة العزيز، والضمير للشأن؛ أي إن الشأنَ ربِّي؛ يعني: العزيز؛ أي: سيّدي الذي ربَّاني وأحْسَن مثواي؛ حيث أمَرَكِ بقوله: (أكْرِمي مثواه،) فكيف أخُونه في أهْله، وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك؟! وقال الزجاج: إنَّ الضمير لله - سبحانه - أي: إن الله ربِّي تولاَّني بلُطْفِه، فلا أركب ما حَرَّمه، وجملة (إنَّه لا يفلح الظالمون) تعليل آخرُ للامتناع منه عن إجابتها، والفلاح: الظفر، والمعنى: أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم، ومِن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تَطلبها امرأة العزيز من يوسف"؛ ا. هـ.

الأمر الثاني والثالث: الصوم وغَض البصر:

بعد هذا الكلام القيّم ندركُ أنَّ الإرادة السليمة حقًّا مَن لَجَأ صاحبُها إلى خالقه يلتمس عنده الدواء، والرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم - بيَّن لنا العلاج والدواء، فقد أخْرَجَ البخاري في النكاح وغيرُه أن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءَة فليتزوَّج، ومَن لَم يستطعْ فعليه بالصوم؛ فإنَّه له وِجَاءٌ)).

قال الحافظ ابن حجر عند شَرْح الحديث: ((فعليه بالصوم فإنَّه له وِجَاء))؛ بكَسْر الواو وبجيم ومَدٍّ، وهو رَضُّ الْخُصْيَتين، وقيل: رَضُّ عُروقهما، ومَن يُفْعَل به ذلك تنقطع شهوتُه، ومقتضاه أنَّ الصوم قامعٌ لشهوة النكاح، واستشكلَ بأنَّ الصوم يزيد في تهييج الحرارة، وذلك مما يُثير الشهوة، لكن ذلك إنَّما يقع في مبدأ الأمر، فإذا تمادَى عليه واعتادَه، سَكَن ذلك، والله أعلم".

وأما غَضُّ البصر، فقد قال - تعالى -: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ - النور: ٣٠ - ٣١].

وفيما أخرجه أبو داود وغيره في النكاح عن جرير قال: سألتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نظرة الفَجْأة، فقال: ((اصرفْ بَصَرك)).

وقال ابن القيّم في "زاد المعاد"، الجزء :٢/ ٢٧:
"لَمَّا كان المقصود من الصيام حَبْسَ النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قُوّتها الشهوانيّة؛ لتستعدَّ لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقَبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبديَّة، ويَكسر الجوع والظمأ من حِدَّتها وسَوْرتها، ويذكِّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين.

وتُضيِّق مَجاري الشيطان من العبد بتضييق مَجاري الطعام والشراب، وتُحْبَس قُوَى الأعضاء عن استرسالها لِحُكم الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسَكّن كل عضو منها، وكل قوّة عن جِماحه، وتُلْجَم بلجامه، فهو لِجام المتقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين، وهو لربِّ العالمين من بين سائر الأعمال، فإنَّ الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوتَه وطعامه وشرابه من أجْل معبوده، فهو تَرْكُ محبوبات النفس وتلذُّذاتها؛ إيثارًا لمحبَّة الله ومَرْضاته، وهو سرٌّ بين العبد ورَبِّه، لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على تَرْك المفطِّرات الظاهرة، وأما كونُه تَرَك طعامَه وشَرابَه وشهوتَه من أجل معبوده، فهو

أمرٌ لا يطَّلع عليه بَشَرٌ، وذلك حقيقة الصوم، وللصوم تأثيرٌ عجيب في حِفْظ الجوارح الظاهرة والقُوَى الباطنة، وحِمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولتْ عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صِحَّتها، فالصوم يحفظُ على القلب والجوارح صِحَّتها، ويعيدُ إليها ما استلبتْه منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى؛ كما قال - تعالى -: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) -البقرة: ١٨٣].

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((الصوم جُنَّة))، وأمر من اشتدَّتْ عليه شهوة النكاح ولا قُدرة له عليه بالصيام، وجعله وِجَاءَ هذه الشهوة.

والمقصود: أنَّ مصالح الصوم لَمَّا كانتْ مشهودة بالعقول السليمة، والفِطَر المستقيمة، شَرَعه الله لعباده؛ رحمةً بهم، وإحسانًا إليهم، وحِمْيَة لهم وجُنَّة.

وكان هَدْي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه أكملَ الهدي، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس، ولَمَّا كان فَطْمُ النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها، تأخَّر فرضُه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لَمَّا توطَّنتِ النفوس على التوحيد والصلاة، وألِفَتْ أوامر القرآن، فنُقِلَتْ إليه بالتدريج"؛ ا.هـ.

والحجج - كما قلتُ سلفًا - كثيرة، ولكن يَكفي ما ذكرناه من حجج وتبريرات لبيان مقصودنا من المقالة، والله من وراء القَصْد وهو يهدي السبيل.

٧

نبي الإسلام، الرحمة المهداة للعالمين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيِّ الأمين.

وبعد:

فسيظل النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - هو الأسوة الحسنة لأصحابه وأتباعه في كُلِّ زمان ومكان، ففي سيرته وأخلاقه الكمالُ الإنساني في أعظمِ صُوره، نقول: سيظلُّ؛ لأَنَّ الله - تعالى - أمرنا بهذا في القرآن الكريم؛ قال - جل شأنه :- (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) -الأحزاب: ٢١.[

وفضلاً عن هذا التوجيه من علاَّم الغُيوب، فإنَّ في سيرته العطرة ما يثلج القلوب، وتنشرح لها الصدور.

إنَّ في سيرته من الرحمة بالخلق والتواضُع لمن هو دونه، والعفو عند المقدرة، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، التي يندر أن يتَّصفَ بها إنسان على وجه الخليقة، مما يَجعل كُلَّ صاحب ملة غير الإسلام يقرُّ بعظمته وسُمُوّ روحه وخلقه.

إنَّ كلَّ مُحايد ممن ترك الهوى والتعصُّب، واتَّبع الوقائعَ والحقائق، التي سجلت كلَّ حركاته وسكناته - لَيُدركُ جيدًا أنَّ نَبِيَّ الإسلام هو نبيٌّ يدعو إلى الرحمة والسلام والهدى، وليس نبيًّا يدعو إلى سَفْكِ الدماء، وقتل الأبرياء، كما يُشاع في قلوب الغافلين والحاقدين في بلاد العجم، التي تعبُد الشيطان والمال والجنس، وتكرم الشواذ، وتستحلُّ المحرمات والخبائث.

ولا عجب إذًا أن اختارَه الله - تعالى - خليلاً، كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً، وختم به الرسالةَ والنبوة، وجَعَلَه الرحمة المهداة للخلق أجمعين.

لماذا؟

لأنَّ كُلَّ رسولٍ كان لأُمَّتِه خاصَّة، أمَّا نبي الإسلام، فكانت رسالته للعالمين كافَّة، وأمته هي آخر الأمم وخيرهم، وأكثرهم تعلُّقًا بالدَّعوة

إلى اللهِ، وترك المنكرات والفواحش، وهي أمة تؤمن بكل أنبياء اللهِ ورُسُله، وأنَّهم عبادٌ مُكرَمون معصومون من الزَّلاَّت البشرية، ولا يفرقون بينهم أبدًا، ولا يقولون عنهم إلاَّ خيرًا؛ لأنَّ اللهَ - تعالى - أمرهم بهذا.

قال - تعالى - في كتابه الكريم :(قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) -آل عمران: ٨٤ - ٨٥].

ورسولُهم - صلَّى الله عليه وسلَّم - إمامُ الأنبياء وخاتمهم، حرم عليهم الإساءة إليهم بالقول أو الفعل، كما سوف نُبيّن من أحاديثه الثابتة والصحيحة عنه.

وعلى هذه السُّطور قبس ضئيل مِن هَدْيِ الحبيب محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - وسيرته العطرة العامرة بالحب، وإنكار الذات، والتواضع، وحب الخير والرحمة بعباد الله - تعالى - دون تفريق بين عربي وأعجمي، بل جعل الفضلَ بينهما بتقوى الله والعمل الصالح.

كان الحبيب محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - مُتواضِعًا تَواضُع العظماء، يكره الكِبْر ويَمقته، وهذه نُبذة يسيرة مِن تَواضُعه مع نفسه، وإخوته من الأنبياء، وأتباعه من الصحابة الكرام؛ ليُدْرِكَ كلُّ مَن يُسيء إليه، ويسخر مِن دين الإسلام الذي دعا إليه مدى الجُرم والخطأ في حَقِّه، وهو إمامُ الأنبياء وخاتمهم، والقائل - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصَّة، وبُعِثت إلى كلِّ أحمر وأسود، وأُحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحدٍ قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا، فأيما رجلٍ أدركته الصلاة، صلَّى حيث كان، ونُصِرت بالرُّعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة))؛ متفق عليه.

اعلموا - معشر المسلمين والعجم - أنَّه بلغ من تواضُعه - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه كان يزور الأنصار، ويُسَلِّم على صبيانِهم، وكان - عليه

الصلاة والسلام - يأتي ضُعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم.

• وكان يجلس على الأرض، كما يجلس العبد، ويأكل على الأرض، كما يأكل العبد، ويجيب الدعوة، ويتصدق كمن لا يخشى الفقر.
• وكان مِن خُلُقِه وتواضُعه - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه يرفض أنْ يقومَ له أصحابه وينهاهم عن ذلك.
• وعن أنسٍ - رضي الله عنه - قال: "ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لِما يعلمون من كراهيته لذلك"؛ رواه الترمذي وصححه الألباني في المشكاة ح/ ٤٦٩٨.

• وكره من صحابته أنْ يُعظموه كما يفعل النصارى بعيسي - عليه السَّلام - فقال: ((لا تطروني كما أطْرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله))؛ رواه الدَّارمي.
• أما عن تواضُعه مع إخوانه من الأنبياء، فحدِّث ولا حرج.

وإليكم ما ثبت من سيرته العطرة؛ لعَلَّ ذلك يلجم ألسنةَ الحاقدين ممن يَدينون بدين غير الإسلام، الدين الوحيد الذي لَم يتعَرَّض لأنبياء الله ورُسُله بما لا يليق.

الدين الوحيد الذي جعل الإقرارَ والتصديق بنبوة إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله ورُسُله من ثوابته، وشرطًا لصحة الإيمان بنبوة الحبيب محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم.

لماذا؟

لأن الأنبياء إخوة، دينُهم واحد وأمهاتهم شتى، ورسالتهم لقومهم واحدة: الدعوة لعبادة الله - تعالى - وتوحيده.
• لم يكن يُحِبُّ لأحد من رَعِيَّتِه أن يفضله على نبيٍّ من أنبياء الله ورُسُله - عليهم السلام أجمعين.
رَغْمَ أحقيته في ذلك بإخبار الله - تعالى - له وإعطائه ما لم يعطِ نبيًّا من الأنبياء من قبله.

•وعن أبي هريرة قال: "استَبَّ رجلان: رجل من اليهود، ورجل من المسلمين، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا - صلَّى الله عليه وسلَّم - على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى - عليه السَّلام - على العالمين، قال: فرفع المسلم يدَه عند ذلك، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهوديُّ إلى رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فقال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لا تخيروني على موسى، فإنَّ الناس يصعقون، فأكون أولَ مَن يُفيق، فإذا موسى باطشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعِقَ فأفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله))"؛ متفق عليه.

•وكان الحبيبُ محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - مِن تواضُعه يترحَّم على إخوانه من الأنبياء، كلما رأى من الناس غِلْظة وشِدَّة، ويُثني على مكانتهم عند الله - تعالى - وحلمهم وصبرهم على قومهم بما يليق بمنزلتهم السامية.

•وعن عبدالله - رضي الله عنه - قال: "لما كان يوم حنين آثر النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ناسًا أعطى الأقرع مِائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسًا، فقال رجل: ما أُريدَ بهذه القسمة وَجْه الله، فقلت: لأخبرن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((رحم الله موسى قد أوذي بأكثرَ من هذا فصبر))"؛ أخرجه البخاري، ح/ ٢٩١٧.

•وعن عبدالله بن جعفر قال: "كان رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((ما ينبغي لنبيٍّ أن يقول: إنِّي خير من يونس بن متى))"؛ صحيح، انظر: صحيح الجامع للألباني، ح/ ٥٨٢١.

•وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياءُ أبناءُ عَلاَّت، وليس بيني وبين عيسى نبي))؛ أخرجه مسلم، ح/ ٤٣٦١.

وهكذا بلغ تواضُعه مع إخوانه من الأنبياء مَبلغًا عظيمًا، ولا يُنكر فضلَه ومكانته وعُلُوَّ منزلته عند الله، فضلاً عن نبوته، إلاَّ حاقدٌ وجاهل أعمى الله بَصَرَه وبصيرته.

بل إنَّ أنبياء الله جميعًا بشَّروا بنُبُوته وبعثته وفضله عليهم، وما يدُلُّ على فضله عنهم قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمَثَلِ رجل ابتنى بيوتًا، فأحسنها وأجملها وأكملها، إلاَّ موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان، فيقولون: ألا وضعت ها هنا لبنة، فيتم بنيانك، فقال محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم -: فكنت أنا اللبنة))؛ أخرجه مسلم، ح/ ٤٢٣٨.

أمَّا عن رحمته بأمته، فهذا يَحتاج لكتاب، ولا تكفي هذه العجالة، وكفى بقوله - تعالى :- (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) -التوبة: ١٢٨.[

أمَّا عن عفوه ورحمته باليهود، رغم أنَّهم أهل بهتان وغدر، فكثيرٌ جِدًّا، منها على سبيل المثال لا الحصر:

• عن عائشة - رضي الله عنها - أنَّ اليهود أتوا النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: السَّامُ عليك، قال: ((وعليكم))، فقالت عائشة: السام عليكم، ولعنكم الله، وغضب عليكم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرّفق وإيَّاك والعنفَ أو الفُحْشَ))، قالت: أَوَلَم تسمع ما قالوا؟ قال: ((أولم تسمعي ما قلتُ؟ رَدَدْتُ عليهم، فيستجاب لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فِيَّ.((

وفي رواية لمسلم: ((لا تكوني فاحشة، فإنَّ الله لا يحب الفُحش والتَّفَحُّش))؛ متفق عليه، واللفظ للبخاري.

• و"عن أنسٍ أنَّ امرأة يهودية أتت رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - بشاةٍ مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك، قال: ((ما كان الله ليسلطك على ذاك))، قال: أو قال: ((عَلَيَّ))، قال: قالوا: ألآ نقتُلُها؟ قال:

((لا))، قال: فما زلت أعرفها في لَهَوَات رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم"؛ أخرجه مسلم ح/ ٤٠٦٠.

معشر المسلمين والعجم:
يقول نبينا - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلاَّ كان من أصحاب النار))؛ أخرجه مسلم، ح/ ٢١٨.

ومسك الختام لهذه المقالة عن رحمته وعدله هذه الآية الكريمة، التي أوحاها الله إليه لمن يبتغي الحق من أهل الكتاب:
قال - تعالى :- (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) -آل عمران: ٦٤].

نقول بعد كل ما طرحناه من أدلة: هذا هو نبي الإسلام، هذا هو نبينا المبعوث رحمة للعالمين، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

عدد الذين تكلموا في المهد

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فهو المهتدي، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعدُ:
أخي القارئ، رُبَّما كان السؤالُ الذي يُلِحُّ عليك عند قراءتك لعنوان هذا المقال هو :كم عدد الذين تكلَّموا في المهد؟

والإجابة حقًّا شائكة، وقد نختلف وقد نتَّفق، ولكن لا ريبَ أنَّنا لن نختلفَ على الصحيح الثابت عن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - فيمَن تكلَّموا في المهْد.

وها نحن نطرحُ آراء العلماء وتفسيراتهم؛ لنستخلصَ الحقيقة التي تعتمدُ على الدليل الصحيح الثابت من الكتاب والسُّنة، والله المستعان.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة عن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال)) :لَم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجلٌ يُقال له: جُرَيْج كان يصلي، جاءته أُمُّه فدعتْه، فقال: أُجيبها أو أصلِّي؟ فقالتْ: اللهم لا تُمِتْه حتى تُرِيَه وجوه المومسات، وكان جريج في صَوْمعته، فتعرَّضتْ له امرأة وكلَّمتْه، فأبى فأتتْ راعيًا فأمكنتْه من نفسها، فولدتْ غلامًا، فقالتْ: مِن جُرَيْج، فأتوه فكسَروا صومعته، وأنزلوه وسبُّوه، فتوضَّأ وصلَّى، ثُمَّ أتى الغلام، فقال: مَن أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذَهَبٍ، قال: لا، إلا من طين، وكانتِ امرأة ترضِع ابنًا لها من بني إسرائيل، فمرَّ بها رجلٌ راكبٌ ذو شارة، فقالتْ: اللهم اجعل ابني مثلَه، فترك ثَدْيها وأقبلَ على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلْني مثلَه، ثم أقبل على ثَدْيها يَمصُّه - قال أبو هريرة: كأنِّي أنظرُ إلى النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يمصُّ إصبعَه - ثم مرَّ بأَمَةٍ، فقالتْ: اللهم لا تجعلِ ابني مثلَ هذه، فترَك ثَدْيها، فقال: اللهم اجعلْني مثلَها، فقالتْ: لِمَ ذاك؟ فقال: الراكب جَبَّارٌ من الجبابرة،

وهذه الأَمَة يقولون: سَرَقْتِ زَنَيْتِ، ولَم تَفعلْ))؛ أخرجه البخاري، (ح / ٣١٨١)، ومسلم (ح/٦٦٣٦٤) نحوه، واللفظ للبخاري.

وقال ابن حجر في شرح الحديث ما مختصره:
"حديث أبي هريرة في قصة جُرَيْج الراهب وغيره، والغرض منه ذِكْرُ الذين تكلَّموا في المهد، وأورده في ترجمة عيسى أنه أوَّلُهم، قوله: ((لَم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثة))، قال القرطبي: في هذا الحصْر نظرٌ، إلا أنْ يُحْمَلَ على أنه - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال ذلك قبل أن يعلمَ الزيادة على ذلك، وفيه بُعد، ويحتمل أنْ يكون كلامُ الثلاثة المذكورين مُقيَّدًا بالمهد، وكلام غيرهم من الأطفال بغيرِ مَهْدٍ، لكنَّه يُعَكِّر عليه أنَّ في رواية ابن قُتيبة: أنَّ الصبيَّ الذي طرحتْه أُمُّه في الأخدود كان ابنَ سبعة أشهر، وصُرِّح بالمهْد في حديث أبي هريرة، وفيه تَعقّ͏ّ͏ُبٌ على النووي في قوله: إنَّ صاحب الأخدود لَم يكنْ في المهْد، والسبب في قوله هذا ما وقَعَ في حديث ابن عباس عند أحمد والبزَّار، وابن حِبَّان والحاكم: ((لَم يتكلَّمْ في المهد إلا أربعة))، فلم يَذْكر الثالث الذي هنا، وذَكَر شاهدَ يوسف، والصبي الرضيع الذي قال لأُمِّه وهي ماشطة بنت فرعون لَمَّا أراد فرعون إلقاءَ أُمِّه في النار: (اصبري يا أُمَّاه، فإنَّا على الحقّ).

ثم ذَكَر القرطبي - رحمه الله - عددَ الذين تكلَّموا في المهد، فقال:
"وأخرجَ الحاكمُ نحوه من حديث أبي هريرة، فيجتمعُ من هذا خمسة، ووقَعَ ذكرُ شاهد يوسف أيضًا في حديث عِمران بن حُصَين، لكنَّه موقوف، ورَوَى ابنُ أبي شيبة مثل حديث ابن عباس، إلا أنَّه لَم يذكر ابن الماشطة، وفي صحيح مسلم من حديث صُهيب في قصة أصحاب الأخدود: "أنَّ امرأة جِيء بها لتُلْقَى في النار أو لتَكْفُر، ومعها صبي يرضَع، فتقاعستْ، فقال لها: يا أُمَّاه، اصبري؛ فإنَّك على الحق"، وزعم الضحَّاك في تفسيره: أن يحيى تكلَّم في المهْد؛ أخرجه الثعلبي، فإن ثبتَ صاروا سبعة.

وذَكَر البغوي في تفسيره:
أنَّ إبراهيم الخليلَ تكلَّم في المهْد، وفي" سِيَر الواقدي :"أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - تكلَّم أوائل ما وُلِد، وقد تكلَّم في زمن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - مبارك اليمامة، وقصته في" دلائل النبوة"؛

للبيهقي من حديث مُعْرِضٍ - بالضاد المعجمة، والله أعلم - على أنَّه اختلف في شاهد يوسف، فقيل: كان صغيرًا، وهذا أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف، وبه قال الحسن وسعيد بن جُبير، وآخر عن ابن عباس أيضًا ومجاهد أنه كان ذا لِحْيَة، وعن قَتادة والحسن أيضًا كان حكيمًا من أهلها"؛ انتهى.

ولا عجبَ - أخي القارئ - إن كنتَ قد شعرتَ بالحَيْرة مثلي، وتسأل نفسك مرة أخرى: كم العدد الحقيقي للذين تكلَّموا في المهْد؟

وها نحن نوضِّح الأمر بما ثبتَ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والله المستعان.

جاء في الحديث المذكور آنفًا: (ثلاثة تكلَّموا في المهد)، وهم:

1- عيسى ابن مريم - عليه السلام.
2- جُرَيْج الراهب.
3- ابن المرأة الرضيع.

وفي رواية أخرى لمسلم (ح / ٥٣٢٧)، وهي الرواية التي يَرى النووي أنَّ الطفل لَم يتكلَّمْ فيها في المهْد، وأنَّه كان صغيرًا، وقد بيَّنَّا رأيَ القرطبي في شرح ابن حجر.

عن صهيب أن رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((كان مَلِكٌ فيمَن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلمَّا كَبُر، قال للملك: إني قد كَبرتُ، فابعثْ إليَّ غلامًا أعلِّمه السحرَ، فبعثَ إليه غلامًا يعلِّمه، فكان في طريقه - إذا سَلك - راهبٌ، فقعَد إليه وسَمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب، وقعَد إليه، فإذا أتى الساحر ضَرَبه، فشكَا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحر، فقل: حَبَسني أهْلي، وإذا خشيتَ أهلك، فقل: حَبَسني الساحر، فبينما هو كذلك، إذ أَتَى على دابَّة عظيمة قد حبستِ الناس، فقال: اليوم أعلمُ الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حَجرًا، فقال: اللهم إنْ كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتلْ هذه الدابَّة؛ حتى يمضي الناس، فرمَاها فقتَلَها، ومَضَى الناس، فأَتَى الراهب فأخْبَرَه، فقال له الراهب: أي بُنَي، أنت اليوم أفضل منِّي

وقد بَلَغ من أمرِك ما أرى، وإنك ستُبْتَلى، فإنِ ابتُلِيتَ فلا تدل عليّ، وكان الغلام يبرِئ الأَكْمَه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسَمِع جليسٌ للملك كان قد عَمِي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجْمع إنْ أنت شَفَيْتَني، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله؛ فإن أنت آمنتَ بالله، دعوتُ الله فشفاك، فآمَنَ بالله، فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلِس، فقال له: الملك مَن ردَّ عليك بصرَك، قال: ربِّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّك الله، فأخذه فلم يَزَلْ يُعَذِّبه؛ حتى دلَّ على الغلام، فجِيء بالغلام، فقال له الملك: أي بُنَي، قد بَلَغ من سِحْرك ما تبرِئ الأَكْمة والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخَذَه فلم يَزَلْ يعذِّبه حتى دلَّ على الراهب، فجِيء بالراهب، فقيل له: ارجعْ عن دينك، فأَبَى فدعا بالْمِئْشار، فوضَعَ الْمِئْشَار في مَفْرِق رأسه، فشقَّه حتى وقَعَ شِقَّاه، ثم جِيء بجليسِ الملك، فقيل له: ارجِعْ عن دينك، فأَبَى فوضَعَ الْمِئْشار في مَفْرِق رأسه فشقَّه به حتى وقَعَ شِقَّاه، ثم جِيء بالغلام، فقيل له: ارجِعْ عن دينك، فأَبَى فدَفَعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبلَ، فإذا بلغتُم ذِروته فإنْ رجَعَ عن دينه، وإلاَّ فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ، فرجفَ بهم الجبلُ، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فَعَل أصحابُك؟ قال: كفانيهم الله، فدفَعَه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور؛ أي: مَرْكب، فتوسَّطوا به البحر، فإن رجَعَ عن دينه، وإلا فاقْذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئْتَ، فانكفأتْ بهم السفينة، فغَرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنَّك لستَ بقَاتلي؛ حتى تفعلَ ما آمُرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ وتَصْلبني على جِذْعٍ، ثم خُذْ سهمًا من كِنانتي، ثم ضَعِ السهْم في كَبد القَوس، ثم قُلْ: باسم الله ربِّ الغلام، ثم ارْمني، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك، قتلْتَني، فجَمَع الناس في صعيد واحدٍ وصلبَه على جِذْعٍ، ثم أخَذَ سهمًا من كِنانته، ثم وضَعَ السهم في كَبد القوس، ثم قال: باسم الله ربِّ الغلام، ثم رماه فوقَعَ السهم في صُدْغه، فوضَعَ يده في صُدْغه في موضع السهْم فمات، فقال الناس: آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام، فأتى الملك، فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ تحذر؟ قد والله نزل بك حَذَرُك، قد آمَن الناس، فأَمَر بالأخدود في أفواه السِّكَك، فخُدَّتْ،

وأَضْرَم النيران، وقال: مَن لَم يرجِعْ عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا، حتى جاءتِ امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعستْ أن تقعَ فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّاهْ، اصبري؛ فإنَّك على الحقّ.((

ويُضاف إلى الثلاثة المذكورين سَلَفًا هذا الرضيع، ويكون العدد أربعة.

ولاحِظ اختلافَ النووي والقرطبي - رحمهما الله - الذي ذكرْناه بشأْنِ هذا الرضيع :هل كان في المهد أو لا؟ وأميل لرأي النووي أنَّه لَم يكنْ في المهد، وإن كان صغيرًا؛ وذلك لأنَّ الحديث صريحٌ بأنهم ثلاثة وبدأ بعيسي- عليه السلام - رغم أنَّ ميلادَه بعد قصة أصحاب الأخدود، فلمَّا لَم يذكرْه النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الثلاثة، دلَّ هذا على أنه لَم يكنْ في المهد، والله أعلم.

وقال ابنُ كَثير في "البداية والنهاية" بعد ذِكْره لقصة جُرَيْج الراهب ما مختصره:
"فهؤلاء ثلاثة تكلَّموا في المهد: عيسى ابن مريم، وصاحب جُرَيْج الراهب ابن البغي من الراعي كما سمعت واسمه" :يابوس"، كما ورَد مُصَرَّحًا به في صحيح البخاري، والثالث ابن المرأة التي كانتْ تُرْضعه، وقد ورَدَ فيمَن تكلَّم في المهد أيضًا شاهدُ يوسفَ كما تقدَّم، وابن ماشطة آل فرعون، والله أعلم"؛ انتهى.

والحاصل أنَّ الثلاثة الذين ذكرْناهم لا اختلافَ عليهم، وباقي الروايات لا تثبتُ عن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - مثل رواية الحاكم في "المستدْرَك(2 / 295) "، ولفظه: "لَم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وشاهدُ يوسف، وصاحب جُرَيْج، وابن ماشطة بنت فرعون."

قال الألباني - رحمه الله - مُختصرًا وبتصرُّف: في" السلسلة الضعيفة والموضوعة:(2 / 271) "
هذا الحديث بهذا الإسناد باطل عندي؛ وذلك لأمرين:
الأول :أنَّه حَصَرَ المتكلمين في المهْد في ثلاثة، ثم عند التفصيل ذَكَرهم أربعة!

والثاني :أنَّ الحديث رواه البخاري في" صحيحه "من الطريق التي عند الحاكم تمامًا، إلا أنَّه خالَفَه في اللفظ، فقال" :لَم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثة."

ثم قال - رحمه الله -: ولَم أجدْ في حديث صحيح ما ينافي هذا الحصْر الوارد في حديث الصحيحين، إلا ما في قصة غلام الأخدود.

ثم قال - رحمه الله:

"ثم إنَّ ظاهر القرآن في قصة الشاهد أنه كان رجلاً لا صَبيًّا في المهْد؛ إذ لو كان طفلاً، لكان مجرَّد قوله: إنها كاذبة كافيًا وبرهانًا قاطعًا؛ لأنه من المعجزات، ولما احْتُيج أنْ يقول :(من أهلها)، ولا أنْ يأتِيَ بدليلٍ حَيِّ على بَرَاءة يوسفَ - عليه السلام - وهو قوله :(إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ *وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) -يوسف: ٢٦ - ٢٧.]

وقد رَوَى ابنُ جرير بإسنادٍ رجالُه ثِقات عن ابن عباس أنَّ الشاهد كان رجلاً ذا لِحْيَة، وهذا هو الأرجح، والله أعلم.

وبعدُ - أخي القارئ - لا ريبَ أنَّك أدركتَ الآن واقتنعتَ أنَّ الثابت في عدد الذين تكلَّموا في المهْد ثلاثة؛ كما هو ثابتٌ في الصحيحين، فضلاً عن غلام الأخدود الذي نرجِّح فيه رأْي النووي أنَّه لَم يكنْ في المهْد، والله أعلم.

والله من وراء القصْد، وهو يَهْدي السبيل.

الإسراف وضرره في الدين والدنيا

إنَّ الحمد لله نحمده، ونَسْتعينه ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شُرور أنفُسِنا، وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له، و أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد:
فمِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ الإسرافَ وما في معناه من التَّبذير والتَّرَف، مِن الأمراض الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة، التي تُهدِّد الأمم والشعوب، سواء المتقدِّمة منها، أم المتخلِّفة، فالأمر سيَّان؛ لأن التَّرف والبذَخ بداية النِّهاية.

ولقد أشارت الآيات القرآنيَّة إلى الإسراف والمُسْرفين في واحد وعشرين موضعًا؛ لِخُطورته على الأفراد والجماعات، من ذلك:
قوله :(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) -الزمر: ٥٣].
وقوله :(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) -آل عمران: ١٤٧].
وغير ذلك من الآيات البينات في ذمِّ الإسراف والمسرفين دينًا ودُنْيا.
وبادئَ ذي بدءٍ، ينبغي أن نبدأ مقالتَنا بالتعريف اللُّغوي والشرعي للإسراف وما في معناه من التبذير والتَّرف؛ لِيُدرك القارئُ الكريم أوجُهَ الاختلاف بينها.

المعنى اللغوي والشرعي للإسراف:
قال ابن منظور في "اللِّسان":
"السَّرَف والإسراف مُجاوزة القَصْد، وأسرف في ماله: عجَّلَ من غير قصد، وأما السَّرف الذي نَهى الله عنه، فهو ما أُنْفِق في غير طاعة الله، قليلاً كان أم كثيرًا، والإسراف في النفقة التبذير... وقيل: هو مُجاوزة القصد في الأكل مِمَّا أحلَّه الله"؛ اهـ، انظر" :لسان العرب "لابن منظور، (٩/ ١٤٨) مادة بذر.

أما التعريف الشرعي للإسراف:
• فقد قال الحافظ ابن حجر هو" :مُجاوزة الحدّ في كلِّ فعل أو قول، وهو في الإنفاق أشْهَر"؛ انظر "فَتْح الباري بشرح صحيح البخاري "لابن حجر العسقلاني، كتاب اللباس، (١٦/ ٣٢٣).
ويتبيَّن لنا مِمَّا سبق أنَّ المعنى اللُّغوي لا يَختلف كثيرًا عن المعنى الشَّرعي، فهو أيضًا مُجاوزة الحدِّ في إنفاق المال وغيْره.

وجاء في "أدب الدُّنيا والدين" (ص ٢٩٩):
"واعلم أن السَّرَف والتبذير قد يفترق معناهُما، فالسَّرف: هو الجهل بِمَقادير الحقوق، والتبذير: هو الجهل بِمَواقع الحقوق، وكِلاهُما مذمومٌ، وذَمٌّ التبذير أعظم؛ لأن المُسْرف يُخطئ في الزّيادة، والمبذِّر يُخطئ في الجهل"؛ اهـ.
وينبغي كذلك أن يُدْرك المسلم جيّدًا أنَّ الإسراف وما في معناه من التبذير والتَّرَف يشكِّلون جميعًا مثلَّثًا لكيد الشيطان وتلبيسه، على رأس المثلث الإسراف، وضِلْعاه التبذير والتَّرف.
وهذا المثلث الشيطانِيُّ أصاب الأُمَّة الإسلامية بأمراض اجتماعيَّة ونفسية وبدنيَّة خطيرة في الدِّين والدُّنيا، كما سوف نبيّن في هذه المقالة.

ولِهذا كان لهذا المثلث الشيطاني في الكتاب والسُّنة من القَدْح والذمّ، والترغيب والتَّرهيب - الشيءُ الكثير، ولكن ينبغي أن نبيّن أنَّ الإسراف، سواء في الدِّين أم الدُّنيا يندرج تحت ثلاثة أقسام، وها هي بإيجاز شديد:
القسم الأول :إسرافٌ محرَّم شرعًا، حرَّمه الله ورسولُه.
القسم الثاني :إسراف مكروه، وهو ما جاوز الشَّرعَ وتعاليمه، وله أصل في الدين.
القسم الثالث :إسراف مباح، وهو ما أباحه واستحبّه الشرعُ بشروط، ولَم يقيّده بحدٍّ معيَّن.

وإذا أدركنا ماهيَّة كلِّ قسمٍ من أقسام الإسراف وما يدور في مَداره من التبذير والتَّرف، يكون من اليسير على القارئ الكريم عند قراءته لِهذه

المقالة، وبيان أنواع الإسراف المختلفة - إدراكُ إلى أيِّ قسمٍ ينتمي هذا النوع من الإسراف أو ذاك؟
•وإليك - أخي القارئ - مثالاً من كلِّ قسمٍ؛ لِمَزيدٍ من البيان والتوضيح، وبشرح أهل العلم الثِّقات، والله المستعان.

القسم الأول: الإسراف المحرَّم:
ونكتفي هنا بِمثالٍ واحد؛ منعًا للإطالة وهو:
الإسراف في القتل:
والقتل كبيرةٌ من كبائر الذُّنوب وأعظمها، بَعْدَ الشِّرك، ولم يُبِح الشرعُ القتْلَ إلاَّ في أضيق نطاق، كالقصاص من القاتل، وقتل المرتدِّ عن دينه، وما أشبهَ ذلك؛ حتَّى تستقيم حياةُ الناس دينًا ودنيا...
•قال تعالى :(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) -الإسراء: ٣٣].

قال الشوكانيُّ في "فتح القدير" ما مُختصره:
"والمراد بالتي حرَّم الله التي جعلها معصومة بعصمة الدِّين أو عصمة العهد، والمراد بالحقّ الذي استثناه هو ما يُباح به قتْلُ الأنفس المعصومة في الأصل، وذلك كالرِّدَّة والزِّنا من المُحصن، وكالقصاص من القاتل عمدًا عدوانًا، وما يلتحق بذلك، والاستثناء مفرَّغ؛ أيْ: لا تقتلوها بسببٍ من الأسباب، إلاَّ بسببٍ مُتلَبِّسٍ بالحقّ، أو إلا متلبِّسين بالحق، ثم بيَّن حُكْم بعض المقتولين بغير حقّ، فقال :(ومن قُتِل مظلومًا)؛ أي: لا بسببٍ من الأسباب المسوّغة لقَتْله شرعًا (فقد جعلنا لوليّه سلطانًا)؛ أي: لمن يَلِي أمْرَه من ورَثتِه إن كانوا موجودين، أو مِمَّن له سلطان إن لم يكونوا موجودين، والسُّلطان: التسلُّط على القاتل؛ إن شاء قتَل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدِّية.

ثُم لَمَّا بيَّن إباحة القصاص لِمَن هو مستَحِقٌّ لِدَم المقتول أو ما هو عوض عن القصاص، نَهاه عن مُجاوزة الحدِّ، فقال :(فلا يسرف في القتل)؛ أيْ: لا يُجاوزْ ما أباحه الله له، فيَقْتل بالواحد اثنين أو جماعة، أو يُمثِّل بالقتيل، أو يعذِّبه."

ثم قال - رحمه الله - في قوله - تعالى :- (إنَّه كان منصورًا)؛ "يعني: الولِيّ، فإنَّ الله - سبحانه - قد نصره بإثبات القصاص له، بِما أبرزه من الحُجَج، وأوضحه من الأدلَّة، وأمر أهل الولايات بِمَعونته والقيام بحقِّه، حتَّى يستوفيه، ويجوز أن يكون الضمير راجعًا إلى المقتول؛ أيْ: إنَّ الله نصَرَه بوليّه"؛ اهـ (انظر" :فتح القدير "للشوكاني ٤/ ٣٠٣).

•وفي الأحاديث النبويَّة الصحيحة تحذيرٌ من القتل بغير حقّ، ولقد جعل النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - القتلَ من كبائر الذنوب وأعظمِها بعد الكفر بالله، وأكتفي هنا منعًا للإطالة بحديثٍ واحد في الصَّحيحين، وفيه الكفاية.

•عن أبي هريرة: ((اجتنبوا السَّبع الموبقات)) قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: ((الشِّرك بالله، والسِّحْر، وقتْل النَّفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الرّبا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزَّحف، وقذف المُحصَنات المؤمنات الغافلات))؛ (أخرجه البخاري في باب رَمْي المُحصنات، ح/ ٢٥٦٠، ومسلمٌ في الكبائر، ح/ ١٢٩).

قال ابن تيميَّة - رحمه الله - في "الاستقامة" ما مُختصَره:

وترتيب الكبائر ثابتٌ في الكتاب والسُّنة، كما في" الصحيحين "عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذَّنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقَك))، قلت: ثُم أيٌّ؟ قال: ((أن تقتل ولدَك؛ خشية أن يطعم معك))، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: ((أن تُزَاني بِحليلة جارك))، وتصديق ذلك في كتاب الله :(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ وَلَا يَزْنُونَ) -الفرقان: ٦٨]؛) أخرجه البخاري في التفسير، ح.(4389/

ولِهذا قال الفقهاء: أكبَرُ الكبائر الكفر، ثم قتل النَّفس بغير حقّ، ثم الزّنا، لكن النبِيَّ - صلى الله عليه وسلَّم - ذكر لابن مسعود من جِنْس أعلى فأعلى؛ الكفر هو أن تجعل لله ندًّا، بخلاف الكتابي الذي ليس بِمُشرك فإنَّه دون ذلك، وأعظمُ القَتْل قتْلُ ولدك، وأعظم الزّنا الزنا بحليلة الجار؛ اهـ (انظر" الاستقامة "لابن تيميَّة ص ٤٦٨).

القسم الثاني: الإسراف المكروه:

الإسراف المكروه هو إسرافٌ في أمر له أصل في الشرع، ولكن بخروجه عن حدِّ الاعتدال المأمور به صار مكروهًا وإسرافًا مَمْقوتًا، لم يأمر به الشَّرع بل نَهى عنه، وينطبق هذا على ما يخصُّ أمور الدُّنيا، فإنْ كان في الدِّين، فالأصل فيها التوقُّف، وعدم الزيادة عمَّا شُرع؛ لأنه يؤدِّي إلى التنطُّع المكروه، وهو الزيادة عن السُّنة فيما له أصل، ولم يأمر به النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - ويُخاف على مَن يرتكبه مِن الزيادة فيما لم يشرع النبِيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - لأمته أصلاً، وهو البدعة المُحرَّمة قطعًا، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ولقد أمرَنا الله بطاعة رسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - في كلِّ ما يَخُصُّنا دينًا ودنيا، ونَهانا عن مُخالفته، وعلى المسلم أن يتَّبِع ولا يبتدع، والآيات والأحاديث في الترهيب من ذلك كثيرة، منها:

- قوله - تعالى :- (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) -النساء: ٦٥].
- وقوله - تعالى :- (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) -الحشر: ٧].
- ومن الأحاديث النبوية الصحيحة قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((كلُّ أمَّتي يدخلون الجنَّة إلا من أبَى))، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟! قال: ((من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني، فقد أبى.))
- وقوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((هلك المتنطِّعون)) قالَها ثلاثًا؛ أخرجه مسلمٌ في العلم (٢٦٧٠)، وأبو داود في السُّنة (٤٦٠٨).

قال النوويُّ: قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((هلك المتنطِّعون))؛ أي: المتعمِّقون الغالون المُجاوزون الحدودَ في أقوالِهم وأفعالهم.

- وقال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردٌّ))؛ أخرجه البخاريُّ في الصُّلح (٢٦٩٧)، ومسلمٌ في الأقضية (١٧١٨).

وفي رواية مسلمٍ بلفظ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو ردٌّ.))

ومِن ثَمَّ سنكتفي هنا منْعًا للإطالة بتوضيح ماهيَّة السَّرف المكروه في كلٍّ من الدِّين والدنيا مع ضَرْب مثالٍ، ونُبيِّن أضراره، ونستشهد بالأدلة

الشرعية من الكتاب أو السُّنة الصحيحة؛ لِيَحيا من حيَّ عن بيّنة، ويهلِك من هلك عن بينة، والله المستعان.

أولاً: الإسراف المكروه في الدِّين:

قلنا: إنَّ الأصل في الدِّين أو العبادات التوقُّف وعدم مُجاوزة الشَّرع فيما لم يرخِّص فيه، حتَّى لو كان له أصلٌ في الشَّرع، كالصَّلاة، والصِّيام، والصَّدقة... إلخ.

لماذا؟

لأنه يؤدِّي بالضرورة إلى التنطُّع والغلُوّ في الدين، وربما يؤدِّي إلى الزّيادة فيما لم يشرع لنا الله ورسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فيقع صاحِبُها في البدعة المحرَّمة، والعياذ بالله، ومثالٌ على ذلك:

السَّرف في التعبُّد، وإهْمال الحقوق، ومن أدلته:

- حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: جاء ثلاثةُ رهْطٍ إلى بيوت أزواج النبِيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - يسألون عن عبادة النبِيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - فلما أُخْبِروا كأنَّهم تَقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبِيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - قد غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟ قال أحدُهم: أما أنا فإنِّي أصلِّي الليل أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النِّساء، فلا أتزوّج أبدًا، فجاء رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - إليهم، فقال: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمَا والله إنِّي لأَخْشاكم لله، وأَتْقاكم له، لكنِّي أصوم وأُفْطِر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سنَّتِي فليس منِّي))؛ أخرجه البخاريُّ في النِّكاح (٥٠٦٣)، ومسلمٌ بِمعناه في النكاح (١٤٠١).

ومن الحديث يتبيَّن رفض النبِيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - لِهذا التنطُّع والغلُوّ في العبادة، والزيادة فيها بِما لم يشرعه ويسنُّه لأمَّتِه، رغم شرعيَّة الأعمال التي أرادوا أن يعملَها هؤلاء الزّهط؛ لأنَّه تشدُّد وإسراف يُخالف الطبيعة الإنسانية وقدرتَها على التحمُّل.

وجاء في "سبُل السَّلام" للصَّنعاني (٤/ ٤٢٧) ما مُختصره:

"وهو دليلٌ على أنَّ المشروع هو الاقتصاد في العبادات دون الانْهماك والإضرار بالنَّفس، وهجر المألوفات كلِّها، وأنَّ هذه الْمِلَّة المُحمَّدية

مَبْنيَّة شريعتُها على الاقتصاد والتسهيل والتيسير وعدم التعسير؛ (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) -البقرة: ١٨٥..."]

ثم قال: "وأراد - صلَّى الله عليه وسلَّم - بقوله: ((فمن رغب عن سنتي))؛ عن طريقتي ((فليس منِّي))؛ أيْ: ليس من أهل الحنيفيَّة السهلة، بل الذي يتعيَّن عليه أن يفطر؛ لِيَقوى على الصَّوم، وينام؛ ليقوى على القيام، وينكح النِّساء؛ ليعفَّ نظرَه وفرْجَه، وقيل: إنْ أراد مَن خالف هدْيَه - صلَّى الله عليه وسلَّم - وطريقته أنَّ الذي أتى به من العبادة أرجَحُ مِمَّا كان عليه - صلَّى الله عليه وسلَّم - فمعنى ليس منِّي؛ أي: ليس من أهل ملَّتِي؛ لأن اعتقاد ذلك يؤدِّي إلى الكفر؛ اهـ.

ثانيًا - الإسراف المكروه في الدنيا:

الإسراف المكروه فيما يخصُّ أمور الدُّنيا هو إسراف في أمور مباحة شرعًا، وسبب الكراهية فيها أنَّها تؤدِّي إلى أضرار وخيمة، سواء كانت بدنيَّة أم نَفْسية، أو غير ذلك، ومثالٌ على ذلك:

الإسراف في الطعام والشراب والْمَلبس:

وإليك التفصيل مع بيان الأدلَّة من الكتاب والسُّنة، والله المستعان:
بدَهيٌّ أنَّ الإسراف في الطعام والشراب الحلالِ له أضرارُه على الصِّحة، والإسراف في الملبس تبذيرٌ وترَفٌ مَكْروه، ما لم يُحَرّمه الشرع، فإنْ كان حرامًا كلبس الرِّجال للحرير مثلاً، فيكون هذا سرفًا مُحرَّمًا قطعًا.
قال تعالى :(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) -الأعراف: ٣١.]

قال الشَّوكاني في "فتح القدير" ما مختصره:

والزينة ما يتزيَّن به الناس من الملبوس، أُمروا بالتزيُّن عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف... قوله :(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) أمَرَ الله - سبحانه - عبادَه بالأكل والشُّرب، ونَهاهم عن الإسراف، فلا زُهْد في ترْك مَطْعَم ولا مشرب، وتاركه بالمرَّة قاتلٌ لِنَفْسه، وهو من أهل النَّار، كما صحَّ في الأحاديث الصحيحة، والمقلِّل منه على وجْه يضعف به بدَنُه، ويعجز عن القيام بِما يَجب عليه القيام به من طاعةٍ أو سعيٍ على نَفْسه، وعلى مَن يعول - مُخالفٌ لِما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف

في إنفاقه على وجهٍ لا يفعله إلاَّ أهل السَّفَه، والتبذير مُخالفٌ لِما شرعه الله لعباده، واقعٌ في النَّهي القرآني، وهكذا من حرَّم حلالاً، أو أحلَّ حرامًا، فإنه يَدْخل في المسرفين، ويخرج عن المقتصدين، ومِن الإسراف الأكلُ لا لِحاجة، وفي وقت شِبَع؛ اهـ (انظر "فتح القدير "للشوكاني ٣/ ٣٠).

•وقال النبِيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((كلوا واشربوا والْبَسوا وتصدَّقوا في غير إسراف ولا مَخِيلَة))، وقال ابن عبَّاس" :كُلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأَتْك اثنتان: سرَفٌ أو مخيلة"؛ (أخرجه البخاري في اللباس، والنَّسائي في الزكاة ٢٥٥٩).

•وقال النبِيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - أيضًا: ((ما ملأَ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بطنه، حَسْبُ ابن آدم أكلاتٌ يُقِمْن صلْبَه، فإن كان فاعلاً لا مَحالة، فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه))؛ (انظر" السلسلة الصحيحة2265 "، و"صحيح الترغيب 2135 "للألباني).
وهكذا يتبيَّن لنا أنَّ الإسراف في المأكل والمشرب والملبس كله مَذْموم في الشريعة السمحاء.

القسم الثالث: الإسراف المباح:
ونبدأ أوَّلاً بتعريف ما المقصود بالمباح؟
المباح عند علماء الأصول هو: ما أَذِن الشَّارعُ في فِعْله وتركه، وخلا من المَدْح أو الذَّم.
ونضرب مثلاً للدلالة على ذلك فيما جاء عن المال وإنفاقه مِمَّا ذكره الحافظُ ابن حجر - رحمه الله - في شرحه لقول النبِيّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((إن الله حرَّم عليكم عقوقَ الأمَّهات، ومنْعًا وهات، ووَأْدَ البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال))؛ (أخرجه البخاري في الآداب ٢٤٠٨، ومسلمٌ في الأقضية ٥٩٣).

قال: "والحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثةُ أوجه:
الأول :إنفاقُه في الوجوه المذمومة شرعًا، فلا شكَّ في منْعِه.
والثاني :إنفاقه في الوجوه المَحْمودة شرعًا، فلا شكَّ في كونه مطلوبًا بالشرط المذكور.[1-

والثالث :إنفاقه في الْمُباحات بالأصالة كملاذِّ النَّفْس، فهذا ينقسم قسمين:
أحدهما :أن يكون على وجه يليق بحال المنفِق، وبقدر ماله، فهذا ليس بإسراف.
والثاني :ما لا يليق به عرفًا، وهو ينقسم أيضًا قسمين:
أحَدهما :ما يكون لِدَفْع مفسدة إمَّا ناجزة أو متوقَّعة، فهذا ليس بإسراف.
والثاني :ما لا يكون في شيءٍ من ذلك، فالجمهور على أنه إسراف"؛ اهـ.

ومن ثَمَّ يتبيَّن لنا أخي القارئ أنَّ المباح في الشرع ليس على إطلاقه في كل الأعمال، بل هو نوعان:
الأوَّل :أعمال أباحَتْها الشريعة وجاز الزّيادة فيها دون تقييد أو تحديد مِثْل ذِكْر الله وتلاوة القرآن والدُّعاء والاستغفار وتعلُّم العلم الشّرعي... إلخ.
فهذا وغيره مما دلَّ عليه الشرع وهو مباح، وليس فيه سرف.

ومن أمثلة وأدلَّة هذا النَّوع من الكتاب والسُّنة ما يلي:
• قال تعالى عن الذّكر :(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) -الجمعة: ١٠].
• وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "كان رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يَذْكُرُ الله - تعالى - على كلِّ أحيانه"؛ (أخرجه مسلم في الحيض ٣٧٣، والترمذي في الدَّعوات ٣٣٨٤).
• وقال تعالى عن طلب العلم واستذكاره :(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) -طه: ١١٤].
• وقال النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة)) (أخرجه الترمذي في العلم ٢٦٤٦، ومسلمٌ في الذّكر والدعاء ٢٦٩٩).
فمثل هذه الأعمال وغيرها التي أباحها الشرع لا إسراف فيها ألبتَّة.

الثاني :ما أباحَتْه الشريعة ما لم يخرج عن الحدِّ الذي ينقله من دائرة المباح إلى المكروه كالصدقات بالأموال، والجود بها على الفقراء والمحتاجين، وليس في ذلك سرف.

ويجب ملاحظة أن الفارق بين السَّرَف والجود في أنَّ السرف تبذيرٌ للمال من غير ضرورةٍ شرعيَّة أو دنيويَّة، مباحة كانت أم غير مباحة، وأمَّا الجود فهو وضْع المال في موضعه المَشْروع والمباح.

ومن أدلَّة هذا النَّوع من القرآن والسُّنة:

• قوله - تعالى :- (إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِي وإن تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فهوَ خَيرٌ لَكُمْ ويُكَفِّرْ عَنْكُمْ من سيِّئاتِكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) -البقرة: ٢٧٢].

• ومن السُّنة ما رُوي عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله تعالى عنه - قال: قلتُ: يا رسول الله، أنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدَّق بثُلثَيْ مالي؟ قال: ((لا))، قلت: أفأتصدَّق بشطره؟ قال: ((لا))، قلت: أفأتصدقُ بثلثه؟ قال: ((الثلث، والثلث كثير؛ إنَّك إنْ تذَر ورثتك أغنياء خيْرٌ من أن تذرَهم عالةً يتكفَّفون الناس))؛ (أخرجه البخاريُّ في المغازي ٤٤٠٩، ومسلم في الوصية ١٦٢٨).

قال النوويُّ في شرح الحديث ما مختصره:

وفي هذا الحديث: حثٌّ على صلة الأرحام، والإحسان إلى الأقارب، والشَّفقة على الورثة، وأن صلة القريب الأقرب والإحسان إليه أفضل من الأبعد، واستدلَّ به بعضهم على ترجيح الغنيِّ على الفقير؛ اهـ.

ومن ثَمَّ فإنَّ الاعتدال في إنفاق المال فيما يشرع ولا يحرم، سواء كان في النَّفقات أو الصدقات أو ما أشبهَ ذلك - أمْرٌ قد حثَّ عليه الشرع وأباحه، وأَجْزل الثَّواب لفاعله، ولقد نُهي فقط عن التصدُّق الكثير الذي يسبِّب الضَّرر على مَن يعول من الأهل وخَيْر الأمور الوسَط، بلا إفراط أو تفريط.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

---

[1]-والشرط الذي يقصده ابن حجر قوله: "ويُستثنى من ذلك كثرة إنفاقه في وجوه البِرِّ؛ لتحصيل ثواب الآخرة، ما لَم يُفوِّت حقًّا أخرويًّا أهمَّ منه."

١٠

حقيقة الدنيا وغرور الإنسان

الحمدُ لِلّه وكفَى، والصلاة والسلام على مَن اصطفى، وبعدُ:
إنَّ في معرفة حقيقة الدنيا كفيلاً بإدراك الهدَف والغاية التي يَنبغي أن يسعى إليها المرء، وهذا أمرٌ لا يجادل فيه مَن له عقل رشيد، ومَن لا عقل له، فقدْ أغنانا عن التعليق.

والقرآن والسُّنة فيهما الحقّ وكل الحق؛ قال تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) -الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) - يونس: ٢٤].

وقال النبيُّ - صلّى الله عليه وسلّم -: ((كُنْ في الدنيا كأنَّك غريب، أو عابر سبيل))؛ البخاري.

وقال أيضًا: ((فواللّه ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخْشى عليكم أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسِطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم))؛ البخاري في "الرقاق".

هذا كلام الله تعالى، وكلام مَن لا ينطق عن الهوى، ويمكن منهما استخلاصُ الحقائق الثلاثة التالية عن الدُّنيا:

الحقيقة الأولى:

أنَّ الدنيا لعبٌ ولهو، وحياة غير دائمة، وعلى الإنسان الرِّضا والقناعة، فكلُّ نعيمها زائف حتمًا.

يقول صاحبُ الظلال في تفسير قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) -الحديد: ٢٠] ما مختصره: "والحياة الدنيا حين تُقاس بمقاييسها هي، وتُوزن بموازيننا، تبدو في العين وفي الحسِّ أمرًا عظيمًا هائلاً، ولكنها حين تُقاس بمقاييس الوجود، وتُوزن بميزان الآخِرة تبدو شيئًا زهيدًا تافهًا، وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبةَ أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة مِن حدٍّ تنتهي إليه مصايرُ أهلها بعدَ لعبة الحياة.

لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر، هذه هي الحقيقةُ وراءَ كل ما يبدو فيها مِن جد حافِل واهتمام شاغل" اهـ.

فلماذا إذًا نتقاتل عليها، ويأكل بعضنا لحمَ بعض؟! هل حبُّها أعمى بصيرتنا عن سببِ وجودنا فيها؟!

يقول البصري: ما عجبتُ مِن شيء كعجبي من رجل لا يحسب حبَّ الدنيا مِن الكبائر، وايم اللهِ، إنَّ حبها من أكبر الكبائر، وهل تتشعَّب الكبائر إلا مِن أجلها؟ وهل عُبدت الأصنام وعُصي الرحمن إلا مِن حب الدنيا وإيثارها. اهـ.

مِن ثَمَّ تتبيَّن لنا الحقيقة الأولى جلية واضِحة، وهي فناء الدنيا ونهاية العالَم.

الحقيقة الثانية:

اليقين بأنَّه لا بقاءَ لنا فيها مهما طال بنا العمر، وهذا أمرٌ بدهي لا يحتاج منا لإقناعِ أحدٍ، فلا يَمرُّ يوم إلا ولنا ميّت نُشيّعه، فالموت نهايةُ كلّ شيء

ولا مفرَّ منه؛ قال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) - الجمعة: ٨]، وقال تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) -الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

وقال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((أكْثِروا مِن ذِكر هازم اللذَّات))؛ الترمذي، وإسناده صحيح.

وصدَق مَن قال:

يَا نَفْسُ تُوبِي فَإِنَّ المَوْتَ قَدْ حَانَا
وَاعْصِي الهَوَى فَالْهَوَى مَا زَالَ فَتَّانَا
أمَا تَرَيْنَ المَنَايَا كَيْفَ تَلْقُطُنَا
لَقْطًا وَتُلْحِقُ أُخْرَانَا بِأُولاَنَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَيْتٌ نُشَيِّعُهُ
نَنْسَى بِمَصْرَعِهِ آثَارَ مَوْتَانَا
يَا نَفْسُ كَمْ غَفْلَةٍ مِنْ يَوْمِ مَبْعَثِنَا
تَنْسَى بِغَفْلَتِنَا مَا لَيْسَ يَنْسَانَا
يَا نَفْسُ تُوبِي مِنَ المَعَاصِي وَازْدَجِرِي
وَاخْشَيْ غلنا سِرًّا وَإِعْلاَنَا

واعْلموا معشرَ المسلمين أنَّنا في دُنيانا بين أجلين:
أجل قدْ مضَى لا يُدرى ما الله صانعٌ فيه، وأجَل قد بقِي لا يُدرى ما الله قاضٍ فيه.

- وقال عليٌّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -: "إذا أدركتِ الدنيا الهاربَ منها جرحَتْه، وإذا أدركتِ الطالب لها قتلَتْه".

والكثيرُ مِن السلف تركوا كثيرًا من الحلال؛ مخافةَ أن يكون حرامًا، وبعدًا عن الشُّبهات، وكانوا زاهدين فيها راغبين عنها، لا يتنطَّعون ولا يسرفون، ولا يأخذون مِن طيبتها إلا ما يعينهم على طاعةِ الله، وهكذا يجب أن

نكون، وتلك هي الحقيقةُ الثانية المكمِّلة للأولى؛ حتمية الموت والفناء، ومِن الغفلة إذًا الاعتقاد بأنَّ بالموت يَنتهي كلُّ شيء، ولا فارق بين العاصِي لله والطائع له.

بل مِن الغَباء الظنُّ أنَّ الله خلقنا عبثًا بلا غاية أو هدف، وذلك لا يقوله إلاَّ مَن فقدَ رشده واتَّبع هواه وتردَّى، ومِن ثم ندرك منطقيًّا أنَّ هناك حقيقةً ثالثة لا بدَّ منها ومن ترقبها؛ ففيها فصلُ الخطاب، وهي البعث والحساب والوقوف بين يدي الله تعالى، فمَن وجد خيرًا فللهِ الحمد، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه.

الحقيقة الثالثة - البعث والحساب:
قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) -المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]، قال ابن كثير في تفسيره ما مختصره: "يقول - تعالى - منبِّهًا لهم على ما أضاعوه في عمرِهم القصير في الدنيا مِن طاعةِ الله تعالى وعبادته وحْدَه، ولو صبَروا في مدَّة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤُه المتَّقون؛ (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) -المؤمنون: ١١٢]؛ أي: كم كانتْ إقامتكم في الدُّنيا (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ) -المؤمنون: ١١٣]؛ أي: الحاسبين، (قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) -المؤمنون: ١١٤]؛ أي: مدَّة يسيرة على كلِّ تقدير (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) -المؤمنون: ١١٤]؛ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيّئ، ولا استحققتُم مِن الله سخطه في تلك المدَّة اليسيرة، فلو أنَّكم صبرتُم على طاعةِ الله وعبادته كما فعَل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

وقوله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) -المؤمنون: ١١٥]؛ أي: أفظننتُم أنَّكم مخلوقون عبثًا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حِكمة لنا، وقيل: للعبث؛ أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خُلقتِ البهائم لا ثوابَ لها ولا عقاب، وإنما خلقْناكم للعبادة وإقامةِ أوامر الله - عزَّ وجلَّ - (وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) -المؤمنون: ١١٥]؛ أي: لا تَعودون في الدار الآخِرة، كما قال - تعالى -: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) -القيامة: ٣٦]؛ يعني: هملاً، وقوله: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) -المؤمنون: ١١٦]؛ أي: تقدَّس أن يخلُق

شيئًا عبثًا، فإنَّه الملك الحق المنزَّه عن ذلك، (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) -المؤمنون: ١١٦]، فذَكَر العرش؛ لأنَّه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنَّه كريم؛ أي: حسن المنظر بهي الشَّكْل، وقد ذكَر ابنُ كثير خُطبة خطبَها عمر بن عبدالعزيز في سياق حديثه في شرْح الآية، وهذا نصها نذكُرها للعبرة:

بعد أن حمِد الله وأثْنى عليه، قال: أما بعدُ:
أيها الناس، إنَّكم لم تُخلقوا عبثًا، ولن تُتركوا سدًى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه للحُكم بينكم، والفصل بينكم، فخاب وخسِر وشقِي عبدٌ أخرَجه الله من رحمته، وحُرِم جنة عرْضها السموات والأرض، ألَم تعلموا أنَّه لا يأمن عذابَ الله غدًا إلا مَن حذر هذا اليوم وخافَه، وباع نافدًا بباقٍ، وقليلاً بكثير، وخوفًا بأمان؟! ألا ترون أنَّكم مِن أصلاب الهالِكين، وسيكون من بعدكم الباقين، حتى تُردُّوا إلى خيرِ الوارثين؟

ثم إنَّكم في كلِّ يوم تُشيِّعون غاديًا ورائحًا إلى الله - عزَّ وجلَّ - قد قضَى نحبه وانقضى أجله، حتى تُغيِّبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهَّد ولا موسَّد، قد فارق الأحباب، وباشَر التراب، وواجَه الحِساب، مرتهن بعمله، غني عمَّا ترَك، فقير إلى ما قدَّم، فاتَّقوا الله قبلَ انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بِكم، ثم جعَل طرَف رِدائه على وجهه فبَكى وأبْكى مَن حوله. اهـ.

نعمْ معشرَ المسلمين، لا ينسى هذه الحقائقَ الثلاثة ولا يغفل عنها إلاَّ مَن مات قلبُه، وذهب عقله، واتَّبع هواه وشيطانَه، فإيَّاكم وطولَ الأمَل؛ فهو يصدُّ عن الحق، وإيَّاكم وأكْلَ الحرام؛ فهو ضياعٌ للدارين، واعلموا أنَّ الستر والقناعة ولزوم الطاعة هما مِن وسائل النجاة لنا في هذه الحياة الدنيا، ألَمْ يقلِ النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن أصبح آمنًا في سِربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنَّما حيزتْ له الدُّنيا بحذافيرها))؛ أخرجه الترمذي، وإسناده صحيح.

والله مِن وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

١١

أثار المعاصي علي الإنسان

لحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيِّ الأمين... وبعد:
كما نعلم أنَّ كلَّ ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوَّابون، وأنَّ على العبد أن يُقلع عن المعصيةِ، والله - سبحانه - يتوب على مَن تاب، وهو أرحم الراحمين.

وجميعًا نعلم أنَّ المعاصي تُزيل النعم، ولكن العجيب في مسلمي القرن الواحد والعشرين أنَّهم يعتقدون أنهم بلا خطيئة!!

وأنت إنْ قال لك أخوك إنَّه لا يُخطئ، اعلم أنه أكبر كاذب في طول البِلاد وعرْضها، ثم ما معنى أنِّي مسلِم؟

معنى ذلك أنَّني أسلمتُ أمري كله لله؛ أي: حياتي كلها لله، عبادتي كلها لله؛ كما قال - تعالى -: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) -الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

إذًا لا بدَّ مِن الإقلاع عن المعاصي، واعلم أخي القارئ أنَّ النبيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((إنَّ الرجل ليحرم الرِّزقَ بالذنب يُصيبه))؛ ابن ماجه في الفِتن.

وإليك هذه الصور مِن المعاصي التي نقع فيها، ويحل بسببها غضبُ الله تعالى علينا، وتمنع إجابة الدعاء النبَوي، الذي فيه العلاجُ لِمَا في الصدور والقلوب مِن همٍّ وغمٍّ، والله المستعان.

- فهذا مسلم عانتْ أُسرته في تنشئته على حبِّ الله ورسوله، واحترام النفس، وقول الحق، يدرس مِن صغره حتى دخوله الجامعة، وما أدراك

ما الجامعة؟! فإذا برفقاء السوء ومناهِج الفلسفة والنظريات الإلحاديَّة، والأفكار الجنونية تَقلِب الثوابتَ التي نشأ عليها رأسًا على عقب، فيَكْفُر ويُلحِد، ويُنكر وجودَ الله ويجادِل في الذات الإلهية، ويعيش في فراغ رهيب، بين عقْله الذي لا يَقبل إلا الحقائق الملموسة والبراهين الساطِعة، وبيْن قلبه وفِطرته السويَّة التي نشأ عليها، ولا يَدري ماذا يفعل؟

أيتبع فِطرته، ويتوب من معصية، ومِن الذنب الذي لا يغفره الله قبلَ فوات الأوان؟ أم يستمرُّ على إلحادِه وجحوده، ويطيع شياطين الإنس والجن، فيهلِك مع مَن هلَك غير مأسوفٍ عليه؟ وكم مثل هذا الشاب الحائرِ يبحث عن الإجابة التي تُعيد له السكينةَ وراحةَ البال التي افتقدها!

• وهذا زوْج لا يرَى في زوجته إلا الخصال السيئة، فهي لا تفهمه، ولا تستطيع أن ترضيَه وتتكلَّم عندما يحتاج إلى الهدوء، وتسكت عندما يحتاج إليها للحديث، وتَفْرح إذا أصابتْه الهموم والغموم، وتحزن أنْ ظهَر عليه الفرح والسرور، حتى أصبح الرجلُ يقول: لو عاد بي الزمانُ إلى الخلْف ما تزوجتُها ولا ارتبطت بها، يا ليتني لم أرَها ولم أعرفْها ولم أخطبْها، ويرى كل مَن ساعدوه وعاونوه على الزَّواج منها مشاركين في جريمة تعذيبه وتنكيده، وربَّما كانت الزوجة لها نفس الرأي، ونفس المشاعر والأحاسيس، فهو ساخطٌ عليها، وهي ساخطة عليه!

والسؤال: أين المودَّة والسكينة التي هي الغاية من الزواج؟ ولماذا هذا النفور والغمُّ والهمُّ الذي جعل كلاًّ من الزوجين يتربَّص أحدُهما بالآخَر، وصارتْ حياتهما معًا كالنار تأكُل بعضها البعضَ إنْ لم تجدْ ما تأكله.

لماذا صارتِ الحياة الزوجيَّة فعلاً وردَّ فعل مع إهمال حقوق كل منهما.

أليست هذه معصيةٌ لله يجب الإقلاعُ عنها؛ حتى يستجيبَ الله - تعالى - لكلٍّ من الزوجين، هل يستجيب الله لهذا الزوج أو هذه الزَّوجة عندَ قولهما: ((اللهمَّ إني أعوذُ بك مِن الهم والحزن، وأعوذ بك مِن العجز والكسل، وأعوذ بك مِن الجُبن والبُخْل، وأعوذ بك مِن غَلَبة الدَّين وقهْر الرِّجال))، هذا محالٌ لو كانوا يعقلون!

إنّها مصيبةٌ أصابتْ بيوت المسلمين، فلا مودّة ولا رحمة ولا سكينة، إلا لمَن هداهم الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

• وهذا غنيٌّ أعطاه الله مِن المال الكثيرَ يعيش في سَعة مِن العيش، يأكُل ويشرب ويرتدي ما يشاء مِن مَلْبَس، يرى السَّعادة على زوجته وأولاده يتلقَّى أفضلَ عِلاج، عنده سيارة وشقَّة تمليك، وغير ذلك مِن زِينة الحياة الدنيا، ومع كلِّ هذه النِّعم فهو بخيل لا يُخرِج حقَّ الله في ماله، أليس في ماله حقٌّ معلوم للسائل والمحروم؟! والعجيب رغم هذا كلِّه فهو يفتقد إلى السعادة الحقيقيَّة، يفتقد إلى راحةِ البال، ويُهرول وراءَ المال، وهو ظلٌّ زائِل، تاركًا لحقوق الله عليه، فلا وقتَ عنده للصلاة، ولا وقتَ عندَه للحج، ولا لصِلة الرحم، ولا لمزاحمة العلماء بالمناكب، وغير ذلك من الذي يجمع له خيرَ الدنيا والآخرة.

ثم ماذا ينفعه المال ولو كان عندَه مِثل مال قارون، عندما يُصبح وحيدًا في قبْره لا أنيسَ ولا جليس، تَرَكه أهلُه وجيرانه وأحبابه يبحثون عمَّا ترَك مِن مال وعقار من حلال كان أو مِن حرام، فهو حقٌّ لهم، وإثمه عليه وحده.

ولقدْ كان سيّدنا عمر - رضي الله تعالى عنه - يستعيذ مِن ثلاثة: اللهمَّ إنِّي أعوذ بك مِن زوجةٍ تُشيِّبني قبل المشيب، ومِن ولد يصير عليَّ سيدًا، ومِن مال أُحاسب أنا عليه في قبْري، ويتمتَّع به وَرَثتي من بعدي، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أليس ما فعَلَه هذا الغنيُّ الغافل وما زال غيرُه يفعله معصيةً لله يجب الإقلاع عنها؛ ليجدَ السعادة الحقيقيَّة في الدنيا والآخرة؟!

• وهذا رجلٌ ابتلاه الله بالمرَض الذي أقْعده عنِ العمل وافتقر حالُه، ويعيش في ضَنْك، ويُعاني من ضِيق الرزق، وصار أولادُه محرومين من أبسطِ الطيبات، فنظر إلى حاله وحال الغنيّ، فكَرِه الحياة وكَرِه الناس، ولم يقنعْ بما أعطاه الله، ولم يحمد وصار يرتكب ما حرَّم الله، يرتشي، ويسرِق، وصار ساخطًا على قدْره غير راضٍ بقضاء الله، ويمد يَدَيْهِ إلى

الحرام، ثم هو بعدَ ذلك لا يستحي أن يرفَعها إلى السَّمَاءِ ويقول: ((يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، وَمَشْرَبُه حَرامٌ، وَمَلْبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بِالحَرامِ، فَأَنَّى يُسْتَجابُ له؟!)).

أليست هذه معصيةً لله تعالى، يَحُلُّ بسببها عليه غضبُه ومقتُه؟! فكيف يستجيب له بعدَ ذلك؟ بل كيف يطمع في كرمِه، وقد بارزه بالمعاصي؟ هيهات، هيهات!

• وهذا مريضٌ ابتلاه الله بالمرَض، وأصبح زبونًا دائمًا للأطبَّاء، لا يجد ثمنَ الدواء، باع كلَّ ما يملك ولم يصبرْ على بلائه، رغمَ أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قالَ: ((ما يُصيبُ المُسْلِمَ مِن نَصَبٍ ولا وصَبٍ، ولا هَمٍّ ولا حُزْنٍ، ولا أذًى ولا غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةَ يُشاكُها، إلا كَفَّرَ اللَّهُ بِها مِن خَطَاياه))؛ البخاري في المرَض.

وأين هو مِن صبر أيُّوب - عليه السلام - والذي عافاه الله بعدَ زمَن طويل، ووصَفَه بقوله: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) -ص: ٤٤]؟

• وهكذا معشرَ المسلمين، ما يُقال عن هؤلاء يُقال عن عقوق الوالدين وترْك الصلاة، وقطْع الأرحام، وأذى الجار، وغير ذلك مِن المعاصي والذنوب التي نَرتكبها في حقِّ الله تعالى، ثم بعدَ ذلك نطمع في رحمتِه وكرمه، وأن يُذهِب عنَّا همومَنا وغمومَنا، ويفكَّ عنا دُيوننا، ويبارك لنا في أموالنا ويَهدينا إلى الحقِّ بإذنه، ويرزقنا خيرَ الدنيا والآخِرة، وهذا لا يكون أبدًا إلا بعدَ الإقلاع عن المعاصي، وأن يُصلِح كلُّ واحد منَّا ما بينه وبيْن الله، وما بينه وبيْن زوجِه، وما بينه وبين جارِه عندئذٍ يستجيب الله - عزَّ وجلَّ - عندَما يرْفع الإنسان يديه بهذا الدعاء النبويِّ الذي فيه العلاجُ مِن الهموم والغموم؛ ((اللهمَّ إني أعوذُ بكَ مِن الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجُبن والبُخل، وأعوذ بك من غَلَبةِ الدَّين وقهْر الرِّجال)).

معشر المسلمين، أين الرِّضا والقنَاعة بنِعم الله علينا؟

لماذا الكثير منَّا ساخط على حاله، لا يُرضيه شيء أبدًا، ويطمع في المزيدِ، وكفَى بهذا من آثار مدمِّرة على حياةِ المرء بسببِ المعاصي؟!

وإنَّ كثيرًا من الناس عندما يصيبه بلاءٌ لا يصبر، ويتمرَّد على قضاء اللَّه، واللَّه - سبحانه وتعالى - يقول: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) -الزمر: ١٠].

وعلينا أن نتجنَّب أكْلَ الحرام؛ حتى تكون دعوتنا مستجابة.

واعْلموا أنه ليس لنا إلا الرِّضا والقَناعة والصبر؛ لأنَّ ذلك هو الدليل على صِدق إيماننا، وقوَّة يقيننا، وتوكلنا على اللَّه تعالى، وهو أرحم الراحمين.

• وإن كان يظنُّ الواحد أنَّ كل ما يحدُث لك مصيبة تستحقُّ منه كلَّ هذا الجزَع والخوف، والهم والغم، فهو مخطئ؛ لأنَّ كل المصائب تهون إلا المصيبة في الدِّين، فإنَّ ترْك الصلاة والصوم والحج، والخروج عن حدود اللَّه تعالى، فيه خسران الدنيا والآخِرة معًا، وما دام المسلم مؤمنًا أنَّه لن يصيبَه إلا ما كَتَبه اللَّه له، فلماذا إذًا الخوف مِن المجهول؟!
عليه الأخْذُ بالأسبابِ التي تُعينه على تحسين حاله، والرضا بما قدره اللَّه له، والافتقار واللجوء إليه، وهذا وحْدَه يُزيل أثر المعاصي، ويُريح القلب مِن الهموم والغموم.
معشر المسلمين، إنَّ البحث عن السعادة الحقيقيَّة تستحق منَّا العَناء مع الفَهْم الحقيقي لها، وليس كل ما يسعد المرء مِن زينة الحياة الدنيا هو حقيقة السعادة، كلاَّ، وإنَّما هي سعادة زائِفة فانية.
واعلموا أنَّ السعادة وراحة البال لا تكون في المال فقَط، وإنَّما لا بدَّ مِن راحة القلْب والضمير، وهما لا يكونانِ إلا بطاعةِ اللَّه تعالى.
• وإنْ وسوس لك الشيطان بعدم الرِّضا والقناعة، فإنَّ النبي - صلَّى اللَّه عليه وسلَّم - يُوصيك أن تنظرَ إلى مَن هو أسفل منك؛ حتى لا يغرك الشيطان باللَّه الغَرور، وترضى بما آتاك اللَّه مِن رزق، وإنْ كان قليلاً؛ لأنَّها نعمةٌ يتمَنَّاها غيرُك ممن هو أسفل منك.
وليتذكَّر قول النبي - صلَّى اللَّه عليه وسلَّم - عن أبي هريرة أنَّ رسولَ اللَّهِ - صلَّى اللَّه عليه وسلَّم - قالَ: ((إذا نَظَرَ أَحَدُكم إلى مَن فضِّلَ عليه

في المَالِ والخَلْقِ، فلْيَنْظُرْ إلى مَن هو أسْفَلَ منه ممَّنْ فُضِّلَ عليه))؛ مسلم في الزهد والرقائق.

واعلمْ أيُّها الفقير، أنَّك في الدُّنيا بمنزلة المسجونِ عنِ الوصول إلى شهوْته، فكما قال النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((الدنيا سجنُ المؤمِن وجَنَّة الكافِر))؛ مسلم.
والفقر ليس عيبًا؛ لقولِ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((فواللهِ لا الفقرَ أخشَى عليكم، ولكن أخشَى عليكم أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسِطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلِككم كما أهلكتهم))؛ البخاري في الجزية.
• وعن أنس بن مالكٍ قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((يُؤتَى بأنعمِ أهل الدنيا مِن أهل النار يومَ القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يُقال: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا ربِّ، ويُؤتَى بأشدِّ الناس بؤسًا في الدنيا مِن أهل الجنة، فيُصبَغ صبغةً في الجنة فيُقال له: يا ابنَ آدمَ، هل رأيتَ بؤسًا قط؟ هل مرَّ بكَ شدَّة قط؟ فيقول: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شِدَّة قط))؛ مسلم في صفة القيامة.
• وها هو عبدالرحمن بن عوْف - رضي الله عنه - أُتي يَوْمًا بطعامِه، فقال: قُتِل مصعب بن عمير وكان خيرًا مني، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُردة، وقُتِل حمزة أو رجلٌ آخر خيرٌ منِّي، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُردة، لقد خشيت أن يكونَ قدْ عُجِّلتْ لنا طيِّباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعَل يبكي))؛ البخاري في الجنائز.

وعلى الإنسان فقط أن يلتمس البداية الصحيحة، وقطعًا سوف يصل لمأربه مِن شوق للطاعة، وزُهْد في المعصية.

وأللهُ مِن وراء القصْد، وهو يهدي السبيل.

١٢

حقيقة الصبر وأنواعه

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له، مَن يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وعلى آلِه وصحْبه، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أما بعد: أخي القارئ، الصبر كلمة تَفتح لك أبوابَ الجنان إنْ أدركت حقيقتَها.

وإليك حقيقة الصبر وأنواعه؛ لتكونَ على بيِّنة، والله المستعان.

• حقيقة الصبر ومعناه في الكتاب والسنة وأقوال العلماء:

حقيقة الصبر: حبسُ النفس عن الجزَع، واللسان عن الشكوى، والجوارح عن المعاصي والذنوب، بمعنى أن يتلقَّى العبد البلاءَ بصدر رحب دون شَكْوى أو سخط.

• وقال العلماء: هو الإيمان الكامل واليقين الذي ليس فيه شكٌّ بأنَّ ما أصابك ما كان ليخطئَك، وما أخطأك ما كان ليصيبَك، وإنَّما كل شيء بقضاءٍ وقدَر.

• وأهل الصبر هم أهلُ اليمين؛ قال تعالى: (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) -البلد: ١٧].

• وأهل الصَّبْر هم أهلُ الصلاة والقادرون عليها؛ (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) -البقرة: ٤٥].

• وأهلُ الصبر هم الفائزون في كلِّ مكان وزمان؛ (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) -العصر: ١- ٣].

• وأهل الصَّبْر هم أهلُ الخير والشُّكر؛ لقوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فيما رواه عنه عمرُ بن سعد بن أبي وقَّاص، عن أبيه، قال: قال رسولُ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((عجبتُ للمؤمن؛ إذا أصابَه خيرٌ حمِد الله وشكَر، وإنْ أصابتْه مصيبةٌ حمِد الله وصبَر، فالمؤمن يُؤجَر في كلِّ أمره، حتى يُؤجر في اللُّقمة يرفعها إلى فِي امرأته))؛ رواه أحمد، وهو صحيح.

• ويقول سيّدنا عليٌّ - رضي الله عنه -: إنَّ الصبر من الإيمان بمنزله الرأس مِنَ الجسد، وإذا قطع الرأس فسَد الجسد، كذلك إذا زال الصبرُ فسدتِ الأمور.

• أنواع الصبر:

صَبْر واجب - صبر مندوب - صبر محظور - صبر مكروه - صبر مباح؛ وإليك أخي القارئ، المزيد مِن البيان والتوضيح لكلّ نوعٍ مِن أنواع الصبر، مع ضرْب أمثلة مِن واقع الحياة؛ لنكون على بينة، والله المستعان.

أ- الصبر الواجب:

مثال ذلك: المدخِّن الذي يشرب الدُّخانَ، لا يستحي أن يراه الله على معصيته تِلك، وتراه عندَ التوبة يُقلِع ويعود، ويتحجَّج بضعفه وعدم صبْره، ثم هو يدَّعي أنَّه يُحبُّ الله ويخافه!

نعمْ، مِن السهل أن نحبَّ الله؛ فهو خالقنا ورازقنا، ولا غِنى لنا عن رحمتِه وفضله، ونخافه لقوته وبطشه وعذابه في الدنيا والآخِرة، ولكن مِن الصعب أن يعرِفَ العبدُ هل الله يحبُّه أم لا، وهو يسأل نفسَه دومًا: ما هو مقامي عندَ الله؟ هل هو راضٍ عنّي أم لا؟

وهذا سؤال مِن الصعب الإجابةُ عنه، ولكن رُوي عن بعض السلف أنَّه قال: إن أردت أن تعرِفَ مقامَك عند الله، فانظر إلى مقام الله عندَك، تعرِف مقامك عندَ الله - ولله دَرُّه! فهذا كلام لا يَصدُر إلا عن قلب يبصر بنورٍ من الله، ولسان لا يفتُر عن ذِكْره، ويدلُّ على ذلك هذا الحديث:

• عن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - أنَّ النَّبِيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((إذا أحبَّ الله العبدَ نادَى جبريل: إنَّ الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريلُ، فينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله يحب فلانًا فأحبُّوه، فيحبه أهلُ السماء، ثم يُوضَع له القَبول في الأرض))؛ رواه البخاري.

ومِن أمثلة الصبر الواجب أيضًا:

• الصبر علي الوفاء بالوعْدِ؛ لحديث أَبِي هُريرَةَ عن النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((آيةُ المُنافِق ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان))؛ رواه البخاري.

• الصبر عنِ النِّياحة وتجديد الأحزان على الميّت؛ ويَنبغي الصبر عندَ الصدمة الأولى، فهذا صبر واجبٌ شرعًا، ودليل ذلك حديثُ أنسِ بنِ مالِكٍ - رضي الله عنه - قال: مرَّ النَّبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - بِامْرَأَةٍ تبْكي عندَ قَبْرٍ، فقال: ((اتَّقِي اللَّهَ واصبري))، قالتْ: إليْكَ عَنِّي، فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصيبتي، ولم تَعْرِفْه، فقِيل لها: إنَّهُ النَّبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - فأتَتْ بابَ النَّبِيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - فلم تَجِدْ عنده بوَّابينَ، فقالتْ: لمْ أَعْرِفْكَ، فقال: ((إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى))؛ رواه البخاري.

ولحديثِ عبداللَّهِ، قال: قال رَسولُ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لَيْسَ منَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدودَ، أو شَقَّ الجيوب، أو دَعا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّة))؛ رواه مسلم.

والأمثلة كثيرةٌ، ونَكتفي بما ذكَرْنا ليدركَ مفهوم كلامِنا، وأسأل الله أن يوفِّقنا للخير، ويُصبِّرنا على الحلال، إنَّه وليٌّ ذلك والقادِر عليه.

ب- الصبر المندوب وله ثلاث صُور:

- صبر على المكروهات.
- صبر على المستحبَّات.
- صبر عنِ المعاصي بمثلها.

وها هي أمثلة توضيحيَّة:

• الصورة الأولى: الصبر على المكروهات، والمقصود بها: الأشياء الثقيلة على القلوب، وفي الحديث عَن أنسِ بنِ مالِكٍ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رَسولُ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكارِه، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوات))؛ رواه مسلم.

- ومِن أمثلة هذا النوع مِن الصبر: الصبر على الكلام دون ضرورة، والصبر على إكرام الضيف حتى مع ضِيق ذات اليدِ؛ لأنَّ الكرم صفة مِن صفات المتقين، ولحديثِ أبِي هُرَيرَةَ - رضي الله عنه - قالَ: قال: رَسولُ اللَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن كان يُؤمِن باللهِ واليوم الآخِرِ فليقلْ خيرًا أو ليصمت، ومَن كان يؤمن بالله واليومِ الآخِر، فلا يؤذِ جارَه، ومَن كان يُؤمِن بالله واليوم الآخِر، فلْيُكرم ضيفَه))؛ رواه البخاري.

• الصورة الثانية: الصبر على المستحبَّات:
مثال ذلك ذِكْر الله تعالى؛ لقوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) -الرعد: ٢٨].
قال السعديُّ - رحمه الله- في تفسير هذه الآية (ص: ٤١٨): "ثم ذكَر تعالى علامةَ المؤمنين، فقال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)؛ أي: يزول قلقُها واضطرابها، وتحضُرُها أفراحُها ولذَّاتها، (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)؛ أي: حقيق بها وحَريٌّ ألاَّ تطمئنَّ لشيءٍ سِوى ذِكْرِه، فإنَّه لا شيءَ ألذ للقلوب، ولا أشهَى ولا أحْلَى من محبَّة خالقها، والأُنس به ومعرفته، وعلى قدْر معرفتِها بالله ومحبَّتها له، يكون ذِكْرها له، هذا على القوْل بأنَّ ذِكْر الله، ذِكْر العبد لربه، مِن تسبيح وتهليل وتكبير، وغير ذلك". اهـ.

- لحديث أبِي مُوسى - رضي الله عنه - قالَ: قال النَّبِيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَثَلُ الذي يَذْكُر ربَّه والذي لا يَذْكُر رَبَّه مَثَلُ الحَيِّ والميِّت))؛ البخاري (٥٩٢٨).

والأحاديثُ في الذِّكْر وفضله كثيرةٌ، ونكتفي بما ذكَرْنا، والله المستعان.
• الصورة الثالثة: الصبر عن المعاصي بمثلها:
ويَنبغي للمسلِم أن يكون كريمًا ومسامحًا؛ لا يردُّ السيِّئة بالسيِّئة، وإنَّما يصفح ويعفو، وله في رسول الله أُسوة حسنة، فعن أنَس بن مالكٍ - رضي الله عنه - قالَ: كنتُ أمشي مع رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - وعليه بُرْدٌ نجراني غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابي فجَبَذ بردِائه جبذةً شديدة، قال أنس: فنظرتُ إلى صفحة عاتِق النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وقد أثَّرتْ بها حاشيةُ الرِّداء مِن شدَّة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي مِن مال الله الذي عندَك، فالتفَتَ إليه فضحِك، ثم أمَرَ له بعطاء"؛ رواه البخاري.
جـ- الصبر المحظور:
- الصبر والإضراب عن الطعام؛ لقوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) -النساء: ٢٩ – ٣٠].

- وقول النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن قتَل نفسَه بحديدةٍ فحديدتُه في يده يتوجَّأ بها في بطنِه في نار جهنمَ خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا، ومَن شرِب سُمًّا فقَتل نفسه فهو يتحسَّاه في نار جهنمَ خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا، ومَن تردَّى مِن جبل فقَتل نفسَه فهو يتردَّى في نار جهنمَ خالدًا مُخلَّدًا فيها أبدًا))؛ رواه مسلم.

د- الصبر المكروه:

مثل رُؤية مظلوم وعدم نصْره؛ لحديث أنسٍ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رَسولُ اللَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((انصرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا))، قالوا: يا رسولَ الله، هذا ننصرُه مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: ((تأخذ فوْقَ يديه))؛ رواه البخاري.

وحديث قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - أنَّه قال: "أيُّها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) -المائدة: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقولُ: ((إنَّ النَّاسَ إذا رأَوا الظَّالِمَ فلم يأخُذوا على يدَيْه، أوْشَكَ أن يَعُمَّهم اللَّهُ بعِقَابٍ منه))؛ رواه الترمذي.

هـ- الصبر المباح:

مِثل صِيام الاثنين والخميس، أنت أميرُ نفسك؛ لحديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: "كان النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - يصومُ الاثنين والخميس"؛ صحيح سنن النسائي للألباني (ح/ ٢٣٦٤).

• مشتقَّات الصبر ومعانيها:

الصبر له معانٍ عِدَّة مشتقَّة منه، منها: الصبر والتصبُّر، والاصطبار والمصابرة.

وإليك تعريفَ هذه المعاني.

- الصبر: هو حبْس النفس عن الشهوات كما ذكَرْنا سَلَفًا.

- التصبُّر: هو مجاهدة النفس بالتمرين والاحتمال، فهو صابر عليه حتى ينتهي، كالصيام إلى المغرب، وذِكْر الله تعالى.

- الاصطبار: هو طبْع وجِبلّة في شخصيةِ المسلِم لا يجزع ولا يفزع كغيرِه مِن ضِعاف الإيمان والقلوب الرقيقة، بل له قُدرة على ضبْط النفس، والثبات على الحقّ دومًا.

- المصابرة: هي منافسة الخَصْم في ميدان الصَّبر، والمُصابِر: مَن ثبَت على صبره أكثرَ مِن غيره.

• الأسباب التي تُعين على الصبر:

١- معرفة أصْل الدّاء لمعرفة الدواء؛ مثال ذلك: الكِبْر علاجه التواضُع، والبخل علاجه الكَرَم، وهكذا.

والمسلِم في الداء والدواء على ثلاثِ أحوال:
إمّا يصدق ويمل، أو يرى أنّ هناك طبيبًا أعلم ممّن أتاه، أو يعالج نفسه بالهوى فيضرها ويزداد الداء.

٢- تعويض النفس بالحلال المباح المعوّض عن الحرام؛ مثل: الزنا، علاجه الزواج، والربا علاجه البيع والتِّجارة، وهكذا.

٣- أن يتفكَّر الإنسانُ في عقوبة المعصية بترْك الصَّبر والرِّضا به.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبيِّ الكريم، صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى آله وصحْبه أجمعين.

١٣

وبالوالدين إحساناً

الحمدُ لله وكفَى، والصلاة والسلام على مَن اصطفى، وبعد:
فقد قال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) -الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وهناك الكثيرُ مِن الأحاديث التي تدلُّ على عَظمةِ وثواب بِرِّ الوالدين وعقوبة عقوقهما، أذكر منها:
• حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أنَّه قال: سألتُ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: ((الصلاة على وقْتِها، قلتُ: ثمَّ أي؟ قال: بِرُّ الوالدين)).
• وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه قال: ((الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتْل النَّفْس، واليمين الغموس))؛ والحديثان للبخاري.

وها هي بعضٌ مِن آثار السَّلَف الصالح لندركَ عظمة بِرِّ الوالدين والله المستعان:
• كان طلْق بن حبيب مِن العلماء العُبَّاد، وكان يُقبِّل رأسَ أمِّه، وكان لا يمشي فوقَ ظهْر بيت وهي تحته؛ إجلالاً لها.
• وقال عامرُ بن عبدالله بن الزُّبير: مات أبي، فما سألتُ الله حولاً كاملاً إلاَّ العفوَ عنه.
• وسُئِل كعب الأحبار عن عقوقِ الوالدين ما هو؟ قال: هو إذا أقْسَم عليه أبوه أو أمه لم يبرَّ قسمَهما، وإذا أمَرَاه بأمر لم يطِعْ أمرهما، وإذا سألاه شيئًا لم يُعطِهما، وإذا ائتمناه خانَهما.
• ورأى ابن عمر - رضي الله عنهما - رجلاً قد حمَلَ أمَّه على رقبته وهو يطوف بها حولَ الكعبة، فقال: يا ابن عمر، أتراني جازيتها؟ قال، ولا بطلقةٍ واحدة مِن طلقاتِها، ولكن قد أحسنت، والله يُثيبك على القليل كثيرًا.

- وقال بِشر: ما مِن رجل يقرب مِن أمه حيث يسمع كلامَها إلا كان أفضلَ من الذي يضرب بسيفه في سبيلِ الله، والنظر إليها أفضلُ مِن كلِّ شيء.
- وما أجملَ قولَ القائل:

لِأُمِّكَ حَقٌّ لَوْ عَلِمْتَ كَثِيرُ
كَثِيرُكَ يَا هَذَا لَدَيْهِ يَسِيرُ
فَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَتْ بِثِقْلِكَ تَشْتَكِي
لَهَا مِنْ جَوَاهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ
وَفِي الْوَضْعِ لَوْ تَدْرِي عَلَيْهَا مَشَقَّةٌ
فَمِنْ غُصَصٍ مِنْهَا الْفُؤَادُ يَطِيرُ
وَكَمْ غَسَلَتْ عَنْكَ الْأَذَى بِيَمِينِهَا
وَمَا حِجْرُهَا إِلاَّ لَدَيْكَ سَرِيرُ
وَتَفْدِيكَ مِمَّا تَشْتَكِيهِ بِنَفْسِهَا
وَمِنْ ثَدْيِهَا شِرْبٌ لَدَيْكَ نَمِيرُ
وَكَمْ مَرَّةٍ جَاعَتْ وَأَعْطَتْكَ قُوتَهَا
حَنَانًا وَإِشْفَاقًا وَأَنْتَ صَغِيرُ !
فَآهًا لِذِي عَقْلٍ وَيَتَّبِعُ الْهَوَى
وَآهًا لِأَعْمَى الْقَلْبِ وَهْوَ بَصِيرُ
فَدُونَكَ فَارْغَبْ فِي عَمِيمِ دُعَائِهَا
فَأَنْتَ لِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ فَقِيرُ

أمَّا الآن في عصر الاستنساخ، فظُن شرًّا ولا تسأل عن الخبر، وهذه عناوين وعينات مما يحدُث مِن عقوق للوالدين تنشرُها الجرائد الرسمية:
- ابن عاق يُلقي على وجه أبيه العجوز ماءَ النار؛ لأنه منعه مِن مخالطة رفقاء السوء!
- ابنٌ يَضرِب أمَّه ويطردها مِن شقَّتها ولم يرحمْ شيخوختها؛ ليُرضي زوجته التي أعماها الحبُّ لوجودها معهما، فافتعلتِ الأسباب وحرَّضت زوجها على طرْد أمه إلى الشارع!
- بنت تشترك مع عشيقِها في قتْل أمها بتسهيل دخوله للمنزلِ، فطَعَن الأمَّ المسكينة وهي نائمة عشرينَ طعنةً طامعًا في مجوهرتها، وتزعُم أنها كانت تُسيء معاملتها، ونحو ذلك مِن الجرائم.

كيفية علاج العقوق والجحود:

الجواب باتّباع عدد مِن النَّصائح لاجتناب الوقوع فيهما، وتشمَل نصائح للوالدين والأبناء على السواء.
ولنبدأ بالوالدين لمعرفةِ أسباب العقوق والجحود؛ لأنَّنا لو عرفنا الداءَ، كان من اليسير معرفةُ الدواء.

والأسباب التي تدعو للعقوق مِن الأبناء كثيرة، نذكر منها:
١- الانشغال الدائِم للأبِ في عمله لسدِّ العجز في ميزانية البيت - لزوم المأكل والمشرَب ومصاريف الدروس الخصوصية وخِلافه.
٢- خروج الأمّ للعمل حبًّا في المساواة، أو لتضييع الوقت تاركةً مهمتها الطبيعية لتربية الأبناء.
٣- رُفقاء السوء الذين يختلطُ بهم الأبناء بلا حسيبٍ أو رقيب.
٤- الكمُّ الرهيب مِن أفلام العُنف والجريمة، وأغاني الحبِّ عن طريق الدش والتلفزيون والإنترنت وهلمَّ جرًّا.
٥- الأُميَّة الدِّينيَّة في عقول الشباب، فالشباب لا يعرِف شيئًا عن السلف الصالح، بينما يعلم كلَّ كبيرةٍ وضغيرة عن أهل الدنيا مِن الفنَّانين والمطربين ولاعِبي الكرة، ولا حولَ ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

وعلاجُ هذه الأسباب في اجتنابها قَطعًا والتقليل مِن سلبياتها، وهذا مِن جهة الوالدين، أما مِن جهة الأبناء، فيجب على كلِّ ابن أو ابنة العمل بالوصايا التالية:
١- خاطبْ والديك بأدب ولا تقُلْ لهما أُفّ، ولا تَنهْرهُمَا، وُقلْ لهما قولاً كريمًا.
٢- أطِعْ والديك دائمًا في غير معصية، فلا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق.
٣- تلطَّفْ بوالديك ولا تعبسْ بوجههما، ولا تُحدِّق النظر إليهما غاضبًا.
٤- حافظْ على سُمعة والديك وشرفهما ومالهما، لا تأخذ شيئًا بدون إذنهما.
٥- اعملْ ما يسرُّهما ولو مِن غير أمرهما؛ كالخِدمة وشراء اللوازم، والاجتهاد في طلَب العِلم.
٦- شاورهما في أعمالِك كلها، واعتذرْ لهما إذا اضطررتَ للمخالَفة.

٧- أجِب نداءهما مسرعًا بوجه مبتسِم قائلاً: نعم يا أمّي ويا أبي، ولا تقلْ: يا بابا ويا ماما، فهي كلمات أجنبية.
٨- أكْرِمْ صديقهما وأقرباءَهما في حياتهما، وبعد موتهما.
٩- لا تُجادلهما ولا تُخطّئهما، وحاول بأدب أن تُبيّن لهما الصواب.
١٠- لا تُعاندهما، ولا ترْفَع صوتك عليهما، وأنصِت لحديثهما وتأدَّب معهما، ولا تُزعج أحدَ إخوتك إكرامًا لوالديك.
١١- انهضْ إلى والديك إذا دخلآ عليك، وقبّل رأسهما.
١٢- ساعِد أمَّك في البيت، ولا تتأخَّر عن مساعدةِ أبيك في عمله.
١٣- لا تُسافِر إذا لم يأذنا لك ولو لأمر هام، فإن اضطررتَ فاعتذر لهما، ولا تقطعْ رسائلك عنهما.
١٤- لا تدخُلْ عليهما بدون إذن، لا سيّما وقت نومهما وراحتهما.
١٥- إذا كنتَ مبتلًى بالتدخين، فلا تدخِّن أمامهما.
١٦- لا تتناولْ طعامًا قبلهما، وأكرمْهما في الطعام والشراب.
١٧- لا تكذب عليهما، ولا تلمهما إذا عَمِلآ عَمَلاً لا يعجبك.
١٨- لا تُفضّل زوجتك، أو ولدَك عليهما، واطلبْ رِضاهما قبلَ كلّ شيء، فرِضاء الله في رِضاء الوالدين، وسخطه في سخطِهما.
١٩- لا تجلسْ في مكان أعْلى منهما، ولا تمد رِجليك في حضرتهما متكبرًا.
٢٠- لا تتكبَّر في الانتسابِ إلى أبيك، ولو كنتَ موظَّفًا كبيرًا، واحذرْ أن تُنكر معروفهما أو تُؤذيهما ولو بكَلِمة.
٢١- لا تبخلْ بالنَّفَقة على والديك حتى يشكواك، فهذا عارٌ عليك، وسترَى ذلك مِن أولادك، فكما تَدين تدان.
٢٢- أكثِرْ مِن زيارة والديك وتقديم الهَدايا لهما، واشْكُرهما على تربيتك وتعبهما عليك، واعتبرْ بأولادك وما تُقاسيه معهم.
٢٣- أحق الناس بالإكرام أمُّك ثم أبوك، واعلم أنَّ الجنَّة تحتَ أقدام الأمهات.
٢٤- احذرْ عقوقَ الوالدين وغضبهما فتشقَى في الدُّنيا والآخِرة، وسيعاملك أولادُك بمثل ما تُعامِل به والديك.
٢٥- إذا طلبتَ شيئًا مِن والديك فتلطَّف بهما واشكرْهما إنْ أعطياك، واعذرهما إنْ منعاك، ولا تُكثِر طلباتك لئلاّ تزعجهما.
٢٦- إذا أصبحتَ قادرًا على كسبِ الرِّزْق فاعمل، وساعِد والديك.

٣٧- إنَّ لوالديك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وحاول التوفيقَ بينهما إنِ اختلفا، وقدِّم الهدايا للجانبين سِرًّا.
٣٨- إذا اختصم أبواك مع زوجتك فكُن حكيمًا، وأفهِمْ زوجتك أنك معها إنْ كان الحق بجانبها، وأنَّك مضطر لترضيتهما.
٣٩- إذا اختلفتَ مع أبويك في الزواج والطلاق فاحتكموا إلى الشَّرْع، فهو خيرُ عون لكم.
٣٠- دعاء الوالدين مستجابٌ بالخير والشر، فاحذرْ دُعاءَهما عليك بالشر.
٣١- تأدَّبْ مع الناس، فمَن سبَّ الناس سبُّوه؛ قال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مِن الكبائر شتْمُ الرجل والديه؛ يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه فيسب أمَّه))؛ متفق عليه.
٣٢- زُر والديك في حَياتهما وبعدَ موتهما، وتصدَّق عنهما، وأكثِرْ مِن الدعاء لهما قائلاً: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) -نوح: ٢٨]، (رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) -الإسراء: ٢٤]-[١].

والله مِن وراء القصد، وهو يَهدي السبيل.

---

[١]- انظر كتاب توجيهات إسلاميَّة لإصلاح الفرْد والمجتمع، تأليف: محمد بن جميل زِينو.

١٤

إخلاص النية وأثارها في قبول الاعمال

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على من اصطفى، وبعد:
قال تعالي: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) -البينة: ٥].

وعن عُمرَ بن الخطَّاب قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((إنَّما الأعمالُ بالنيَّة، وإنما لامرئٍ ما نوى، فمَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومَن كانتْ هِجرته لدُنيا يُصيبها أو امرأةٍ يتزوَّجها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه))؛ البخاري في الإيمان، ومسلم في الإمارة.

قال النوويُّ في شرْح الحديث ما مختصره: "أجْمع المسلمون على عِظم موقع هذا الحديث، وكثْرة فوائده وصحَّته، قال الشافعي وآخَرون: هو ثُلُث الإسلام، وقال الشافعي: يدخُل في سبعين بابًا من الفِقه، وقال آخرون: هو ربُع الإسلام.

فتقدير هذا الحديث: أنَّ الأعمال تُحسَب بنية، ولا تُحسب إذا كانتْ بلا نيَّة، وفيه: دليل على أنَّ الطهارة وهي الوضوءُ والغُسل والتيمُّم لا تصحُّ إلا بالنية، وكذلك الصلاة والزَّكاة والصوم، والحج والاعتكاف وسائِر العبادات". اهـ.

وممَّا ذكرْنا آنفًا يتبيَّن لنا أهميةُ النية في قبول أو إحباط الأعمال، سواء كانت عباداتٍ أو معاملات أو أقوالاً، وأذكُر هنا أدلَّةً صحيحة مِن كلام من لا ينطِق عن الهوى؛ ليهلِك مَن هلك عن بيِّنة ويحيا مَن حيَّ عن بينة، والله المستعان.

الدليل الأول:
حديث أبي كَبْشَةَ الأنماريّ أنَّهُ سَمِعَ رَسولَ اللَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((ثلاثةٌ أُقسِم عليهنَّ وأُحدِّثكم حديثًا فاحْفظوه، قال: ما نقص

مالُ عبدٍ مِن صدقة، ولا ظُلِم عبدٌ مظلمة فصبَر عليها إلا زادَه الله عزًّا، ولا فتَح عبد بابَ مسألة إلا فتَح الله عليه باب فقْر - أو كلمة نحوها.

وأُحدِّثكم حديثًا فاحفظوه، قال: إنَّما الدنيا لأربعة نفَر: عبد رَزَقه الله مالاً وعِلمًا، فهو يتَّقي فيه ربَّه ويصِل فيه رحمَه ويَعْلَم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزَقه الله عِلمًا ولم يرزقْه مالاً فهو صادقُ النيَّة، يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلان، فهو بنيَّته فأجرُهما سواء، وعبد رزَقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا، فهو يخبِط في ماله بغير عِلم؛ لا يتَّقي فيه ربَّه ولا يصِل فيه رَحِمَه ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخْبثِ المنازل، وعبد لم يرزقْه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلان، فهو بنيته فوِزْرُهما سواء))؛ حديث حسن صحيح، الترمذي في الزهد.

الدليل الثاني:

ما ثبَت في الصحيحين عن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه قال: ((إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سِرتُم مسيرًا ولا قطعتُم واديًا إلا كانوا معكَم))، قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: ((وهُم بالمدينة؛ حبَسَهم العذرُ)).

الدليل الثالث:

في الصحيحين أيضًا: عن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه قال: ((مَن دعا إلى هدًى كان له مِن الأجْر مِثل أجور مَن تبعه مِن غير أن ينقُص منأجورهم شيئًا، ومَن دعَا إلى ضلالة كان عليه مِن الإثم مِثلُ آثام مَن تبِعه، لا ينقص ذلك مِن آثامهم شيئًا))؛ واللفظ لمسلم، وشواهدُ هذا كثيرة.

واعلمْ أخي القارئ أنَّ مِن علامات الإخلاص في النية دوامَ العمل ولو كان قليلاً؛ لحديث عائشةَ - رضي الله عنها - أَنَّ رَسولَ اللَّهِ - صلَّى الله عليه وسلَّم - سُئِلَ: أَيُّ العمل أَحَبُّ إلى اللَّه؟ قَالَ: ((أَدْوَمُه وإِنْ قَلَّ))؛ مسلم في صلاة المسافرين.

واعلم أيضًا أنَّ من الناس مَن ينوي بعمله خيرًا فله الأجْر، ومِن الناس من ينوي بعمله شرًّا فعليه الوزر؛ لحديث ابنِ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما

- عَن النَّبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - فِيما يَرْوي عن رَبِّه - عزَّ وجلَّ - قال: إنَّ اللَّه كتَب الحسناتِ والسيئاتِ ثمَّ بيَّن ذلك، فمَن همَّ بحسَنة فلم يعملْها كتبها الله له عندَه حسنةً كاملة، فإن هو همَّ بها فعَمِلها كتبَها الله له عندَه عشر حسَنات إلى سبعمائة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرة، ومَن همَّ بسيّئة فلم يعملْها كتبها الله له عندَه حسنةً كاملة، فإنْ هو همَّ بها فعملها كتبَها الله له سيِّئةً واحدة))؛ البخاري في الرقاق، ومسلم في الإيمان.

وهنا سؤال هام: هل النية الحسَنة تجعل المعصية مأجورًا عليها؟
والجواب: قطعًا لا، لماذا؟
لأنَّه لا عُذر لمن يفعل ذلك في ارْتكاب المعاصي والمخالَفات الشرعيَّة وتبريرها، وعدم الخوف مِن عُقوبتها بحُجَّة أنَّ القصد منها شريف، فإنَّه خطأ فادِح، وعليه أن يبادر إلى التوبةِ فورًا، ويُخشَى على مَن يقول بذلك أن يكون ممَّن قال الله تعالى فيهم: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) -الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

قال السعدي - رحمه الله - في تفسيرها ما مختصَرُه:
أي: قلْ يا محمَّد للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أُخبِركم بأخْسَر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)؛ أي: بطل واضمحلَّ كل ما عملوه مِن عمل، يَحْسبون أنَّهم مُحسنون في صُنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنَّها باطلة، وأنها محادَّة لله ورُسله ومعاداة؟!" اهـ.

وما أجملَ قولَ الحسن البصري - رحمه الله تعالى -: "ليس الإيمان بالتمنِّي، ولكن ما وقَر في القلب وصدَّقه العمل، إنَّ قومًا ألهتْهُم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسَنة لهم، وقالوا: نُحسِن الظنَّ بالله تعالى، وكذَبوا، لو أحْسَنوا الظنَّ لأحْسَنوا العمل"!

ويقول الغزالي في "الإحياء": "المعاصي لا تتغيَّر إلى طاعات بالنية، فلا يَنبغي أن يفهم الجاهلُ ذلك من عموم قوله: ((إنما الأعمال بالنيات)) فيظن أنَّ المعصية تنقلب طاعة.

ويقول أيضًا: والنيَّة لا تؤثِّر في إخراجه عن كونه ظلمًا وعدوانًا، بل قصدُه الخير بالشرّ على خِلاف مقتضى الشرع شرٌّ آخر، فإنْ عرفه فهو معاندٌ للشرع وإن جهله فهو عاصٍ بجهْله؛ إذ طلَبُ العِلم فريضةٌ على كلِّ مسلم". اهـ.

عوامل تُساعد على إخلاص في النية:
وأكتفي هنا بأهمّ ثلاث وسائل منعًا للإطالة، والله المستعان.
١- إصلاح السريرة والعلانية:
قال - تعالى -: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) -الصف: ٢ - ٣].

قال السعديُّ - رحمه الله -:
أي: لِم تقولون الخير وتحثُّون عليه، وربما تمدحتُم به وأنتم لا تَفْعلونه، وتنهون عن الشرّ، وربَّما نزهتُم أنفسكم عنه، وأنتم متلوّثون به ومتَّصفون به.

فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالةُ الذميمة؟ أم مِن أكبر المقْت عند الله أن يقول العبدُ ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمِر بالخير أن يكونَ أوّل الناس إليه مبادرةً، وللناهِي عن الشرّ أن يكون أبعدَ الناس منه؛ قال - تعالى -: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) -البقرة: ٤٤]، وقال شعيب - عليه الصلاة والسلام - لقومه: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) -هود: ٨٨] اهـ.

قلتُ: ولا ريبَ أنَّ مَن عمِل لآخرته كفاه الله أمرَ دُنياه، ومَن أصلح ما بيْنه وبيْن الله أصلَح ما بينه وبيْن الناس، ومَن أصلح سريرتَه أصلَح الله علانيتَه.

٢- الاستغفار والنَّدَم على ما فات:
قال - تعالى -: (يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) -هود: ٣].

وقال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((عَن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)، فقال النَّبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ في اليَومِ سَبْعِينَ مَرَّةً))؛ الترمذي في تفسير القرآن.

ومِن الآية والحديث - أخي القارئ - نجد أنَّه لا مفرَّ مِن أخْذ خُطوة إيجابيَّة لصفاءِ النُّفوس، وإخلاص النيَّات لله، وبيان الحقّ مِن الباطل، والصواب مِن الخطأ، والخير مِن الشرّ؛ حتى لا يلتبس الأمرُ علينا، ونُدركِ أين مواضِعُ الخَلَل في قلوبنا ونُفوسنا، فإنَّ للطريق مزالقَ خَطِرة، والشيطان والنَّفْس الأمَّارة بالسُّوء وبالمرصاد لكلِّ جهد يُراد به تغيير النَّفْس وإخلاصها في الأقوال والأعمال لله تعالى.

٣- العلم والتعلُّم:

أغلب عيوب وآفات النَّفْس وسوء النيَّة والقصد تأتي مِن الجهل بالحلال والحرام، ولو تفقَّه العبدُ في دِينه لاستطاع ترويضَ نفْسه وتقويمها على طاعةِ الله وإخلاص النيَّة له في أقواله وأعماله.
وفي القرآن والسُّنة في الحثِّ على العِلم والتعلُّم نصوص كثيرة، أذكر منها:
- قوله - تعالى -: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) -طه: ١١٤].
- وقوله - تعالى -: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) -المجادلة: ١١].
- ومِن السُّنة قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رَجُل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكتِه في الحق، وآخر آتاه الله حِكمةً، فهو يَقضي بها ويُعلِّمها))؛ أخرَجه البخاريُّ في العلم (ح/٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (ح/٨١٦).
- وقوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن سلَك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجَنَّة))؛ وإسناده (صحيح) انظر حديث (رقم: ٦٢٩٨) في "صحيح الجامع" للألباني.

والحاصِل :أنَّ العلم والتعلُّم من أهمِّ الوسائل للثَّبات على المنهَج وإخلاص النيَّة لله تعالى كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، والله مِن وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

١٥

الشرك بالله وأنواعه

الشرك بالله وأنواعه:
الحمدُ لله وكفى، والصلاة والسلام على مَن اصطفى.
وبعد:
ففي هذه المقالة أخطرُ وأعظم الكبائر التي يجدُر بكلِّ مسلم أن يوليها اهتمامه، علمًا بها وحذرًا من اقترافها، ألا وهو الشِّرْك بالله تعالى؛ لماذا؟ لأنَّ الشرْك بالله تعالى مِن أعظم الكبائِر على الإطلاق، وكفى أنَّه الذَّنْب الذي لا يَغفِره الله، إلاَّ لمَن تاب وأناب قبلَ أن يموت.
قال - تعالى :- (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) -النساء: ٤٨.]
وقال - تعالى :- (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ) -المائدة: ٧٢.]
وقال النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((ألاَ أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله))؛ متفق عليه.
والشِّرْك بالله تعالى نوعان: شرْكٌ أكْبر، وهو عِبادة غير الله، أو صَرْف أيِّ شيءٍ مِن العبادة لغير الله، وشرْك أصغَر ومنه الرِّياء؛ قال - تعالى - في الحديث القُدسي: ((أنا أغْنَى الشُّركاء عن الشرك، مَن عمِل عملاً أشرَك معي فيه غيري تركتُه وشِرْكه))؛ رواه مسلم.
وإليك بيانَ بعض المحرَّمات الشركية التي يجِب الإقلاع عنها، وقد راعينا في اختيارها ما يهمُّ ويقَع فيها السوادُ الأعظم من الناس، فنسأل الله تعالى أن يقيَنا وسائرَ المسلمين الذنوبَ والمعاصي، وأن يختم لنا بخاتمةِ السعادة أجمعين.
والله مِن وراء القصد وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

-1شدُّ الرِّحال لأولياء الله تعالى:
وهذا أمرٌ قد عمَّ وانتشر انتشارَ النار في الهشيم، وشدُّ الرِّحال والذَّهاب إلى أصحاب الأضرحة مِن الأولياء وأقطاب الصوفيَّة الذين ماتوا

وسؤالهم والاستعانة بهم، والنَّذْر والدُّعاء عندهم، إنَّما هو شرْك يُخالف صريحَ القرآن والسُّنة، وإليك بعض الأدلَّة على حُرمة ذلك؛ قال - تعالى -: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) -يونس: ١٨].

• وعن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - قال: كنتُ خلْفَ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يومًا فقال: ((يا غلامُ، إني أُعلِّمك كلمات: احفظِ الله يحفظْك، احفظِ الله تجدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتَبَه الله عليك، رُفِعت الأقلام وجفَّتِ الصُّحُف.[1-]((

• وعن أبي هُريرة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((قال الله تعالى: أنا أغْنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمِل عملاً أشرْك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه.[2-]((

وفي هذه الأدلَّة مِن القرآن والسُّنة الكفاية ليتبيَّن ضلالُ مَن يفعل ذلك؛ اعتقادًا منه أنَّ هناك مَن ينفع أو يضر مع الله تعالى.

-2الحلف بغير الله تعالى:

لا يجوز للمسلِم أن يحلِفَ أو يقسم بغير الله تعالى، مِثال ذلك: الحَلِف بالأمانة والنِّعمة، وحياة النبي وحياة الأب والأم، وروح فلان أو رحمته، أو غير ذلك، فكلُّ هذا حرامٌ، وإليك بعضَ الأدلَّة من الأحاديث الصحيحة:

• رَوى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عمرَ مرفوعًا قال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((ألآ إنَّ الله ينهاكم أن تحلِفوا بآبائكم، فمَن كان حالفًا فليحلفْ بالله أو ليصمت.[3-]((

• ورَوى أبو داود: ((مَن حلَف بالأمانة فليس منَّا.[4-]((

هذا، وعلى فرْض أنك أخي القارئَ حلفتَ خطأًودون قصْد أو نيَّة بالنبي، أو الأمانة، أو بحياة فلان، أو غير ذلك بحُكم العادات المتوارثة، فكيف تخرُج مما قلت؟

الجواب: ولله الحمد والمِنَّة فقدْ جعَل لنا من الأمْرِ مخْرجًا، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((مَن حلَف فقال في حَلِفه: باللات والعُزَّى، فليقل: لا إله إلا الله.[5-]))
إذًا للخروج ممَّا قلت أن تقولَ: لا إله إلا الله، وليس هناك كفَّارة مِن مال أو صيام؛ لأنَّ الحالِفَ بغير الله قد أشْرك، والشِّرك لا كفَّارة له، فليس له إلا الاستغفار وقول: لا إله إلا الله.
وقدْ جاء في الأثَر أنَّ عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - كان يقول: "لأنْ أحلِفَ بالله كاذبًا أحب إليَّ مِن أن أحلِف بغيره صادقًا"، لماذا؟
لأنَّ الحلِف بالله كاذبًا يمين غموس ومِن الكبائر، والحلِف بغيره شِرْك، ومن أعظم الكبائر، انتبه.

-3تعليق التمائم:
والتَّمائم جمْع تميمة، وهي خرَزة كان العرَب يجعلون أولادهم يلبسونها، زاعمين أنَّها تدفَع عنهم شرَّ الجن وتقيهم العين وغير ذلك، وهذا شِرْك وحرام، والدليل قول النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن علَّق تميمةً فقد أشرك.[6-]))
وقد يقول قائل: إنْ كانتِ التميمة مِن آيات القرآن، فهل تجوز؟

الإجابةُ ما جاء في كتاب" فتح المجيد في شرْح كتاب التوحيد "ما يلي باختصار: "أنَّ السَّلَف اختلفوا في ذلك فبعضُهم رخَّص فيها، وبعضهم منَع، والأقرب إلى الصواب هو النهيُ عن ذلك للأسباب التالية:
-1عموم النهي ولا مُخصِّصَ للعموم.
-2سدّ الذريعة، فإنَّه يُفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.
-3أنَّه إذا علَّق فلا بدَّ أن يمتهنَه المعلِّق بحملِه معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء، ونحو ذلك.

-4الرُّقى:
والرُّقية منها ما هو شِرْك، ومنها ما هو مشروع، فالأوَّل محرَّم وشِرْك، والدليل ما أخرجه مسلمٌ عن عوف بن مالك قال: "كنَّا نرقي في الجاهلية فقُلنا: يا رسولَ الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: ((اعْرِضوا على رُقاكم، لا بأسَ بالرُّقَى ما لم تكن شِركًا.[7-]))

فإن كانتِ الرُّقية بتعاويذ وطلاسِم وكلمات غير مفهومة، فهذا شرْكٌ وكُفر، ومِن أمثلة ذلك ما جاء في كتاب: "الرَّحْمة في الطبِّ والحِكمة"، وأنقُله لك مِن كتاب السُّنن والمبتدعات؛ لنوضِّح ردَّ مؤلفه اللاذع والقوي على هذه السخافات؛ لتزدادَ فائدة وتحترز مِن هذا الكتاب وغيره مِن الكتب التي تدعو إلى الشِّرْك والعياذ بالله؛ جاء في "السنن والمبتدعات" نقلاً وردًّا على كتاب "الرحمة في الطبِّ والحِكمة" ما نصُّه:

(•لعِلاج رمَد العين) نقلاً عن شيخِهم وإمامهم وقُدوتهم إلى الجهْل والبله والغَباء والجنون صاحِب كتاب الرحمة، بل اللَّعْنة في الطبِّ والحِكمة، قال: يُؤخَذ دم الحائِض التي لم يمسَّها رجل ويُخلَّط مع المني، ويكتحل به، فإنه يقطع البياض مِن العين، قال: والحق أنَّه يقطع النُّور مِن العين.

(•لعلاج العمى)، قال الشيخ في كتاب اللعنة: "عزمت عليك، أيتها العين بحق "شرا هيا براهيا ادنواى أصاؤت أل شداي"، عزمت عليك أيتها العين التي فلان بحق "شهت بهت أشهت باقسطاع ألحا."، أخْرجي نظرة السوء كما خرج يوسف من المضيق، وجُعل لموسى في البحر طريق"... إلخ، وقال عبدالسلام محمد في كتابه: "السنن والمبتدعات" ردًّا على هذه الرقية الشيطانية ما نصه:

"أقول: كيف يحكُم الإنسان على هؤلاء الشيوخ؟! أنحكُم عليهم بأنهم يهود؛ لأنهم ألِفوا كلام اليهود وعلوم اليهود، أو نحكُم عليهم بالنصرانية؛ لأنَّ معظم ما ينقلونه هو الكُفر أقرب منه للإيمان، أم هم أهل بدعة وجهالة بالدِّين، بله وغباوة، وقلوب عمياء؟."!

(•لتقوية الجماع) قال الشيخ: تكتب في ورقة بقلم نحاس، وتجعله تحت لسانك أي وقت الجماع، وهذا ما تكتب:

(1916911191115691869311181145)

قال عبدالسلام محمد: مَن عمِل بها فهو أغفل مغفَّل على وجه الأرض، ومن لم يحرق هذا الكتاب وأمثاله فسيُحرق هو بنار الجهل وما يجرُّه عليه من فقر وأمراض، وتخبُّط في البلاء والهموم والأحزان، وبعد هذا عذاب الآخِرة النار يصلونها، ولبئس المهاد .اهـ.[8-]"

وإني أنصح مَن يصدِّق مثل هذا الكلام ويعمل به أن يتوبَ ويلجأ إلى الرقية الشرعية المشروعة، وله فيما فعَلَه ابن مسعود - رضي الله عنه - عبرة وعظة؛ فقد رأى يومًا في عنق زوجته خيطًا فسألها: ما هذا؟

فقالت: خيط رقي لي فيه من الحمَّى، فجذَبه فقطعه فرمى به ثم قال: لقدْ أصبح آل عبدالله أغنياءَ عن الشرك، سمعتُ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((إنَّ الرُّقَى والتمائم والتولة شِرْك))، فقالت: لقد كانت عيني تقذف، وكنتُ أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقَى سكنَتْ، فقال عبدالله بن مسعود: إنَّما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقى كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((أذهِب الباس ربَّ الناس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاءَ إلاَّ شفاؤك شفاء لا يُغادر سَقمًا.[9-]))
ومِن ثَمَّ يتبيَّن لنا من هذه الأدلة أنَّ الرقية الشرعيَّة ما كانت بأسماء الله أو صِفاته أو بقرآنه أو بكلام النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - فكلُّه جائزٌ، وغير ذلك فهو شِرْك، وقد جاء في كتاب" فتح المجيد في شرح التوحيد "ما يلي: قال السيوطي - رحمه الله -: قدْ أجمع العلماءُ على جواز الرُّقى عندَ اجتماع ثلاثة شروط:
1-أن تكونَ بكلام الله أو بأسمائه وصِفاته.
2-وباللِّسان العربي وما يُفهم معناه.
3-وأن يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثِّر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.[10-]"
4-تصديق العرَّافين والدجَّالين:
مَن أتَى العرَّافين والدجَّالين ليسألهم عن شيء، فقد أتى بابًا من أبواب الشِّرْك؛ لأنه اعتقد أنَّ هناك من البشر مَن يعلم الغيب، وهذا افتراءٌ وكذِب؛ لقوله - تعالى -: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُون) -النمل: ٦٥].
هذا، وقد حذَّر النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أمتَه مِن إتيان العرَّافين والدجَّالين؛ فقال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن أتى عرَّافًا فسأله عن شيء لم يُقبل له صلاةٌ أربعين ليلة.[11-]))
وأيضًا الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ قال فيه - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن أتى حائضًا أو أمرأةً في دُبرها فقدْ كفَر بما أُنزل على محمَّد-[12])).
وأنواع الدَّجَل والشعوذة كثيرة؛ كضَرْب الودع، وقراءة الفنجان، وتصديق أبراج الحظ في الجرائد والمجلات، وقراءة الكف والكوتشينة... إلخ.

فكلُّ هذا دجَل وشعوذة، وضرْب من ضروب التخيُّل، وليس غيبًا يعلمونه، وهؤلاء الدجَّالون يمتازون بلباقة في الحديث، ورشاقةٍ في

الأسلوب، وإنَّ من البيان لسحرًا، وهم يضحكون على عقول السذج مِن البُسطاء أو أصحاب القلوب الفارغة مِن الدِّين من حمَلة المؤهلات العليا والمتوسّطة، الذين يُصدِّقون مثلَ هذه الخُرافات، وأُهدي إليهم هذا الدليلَ؛ عسى أن يعودوا إلى طريق الحقّ والرَّشاد مِن كلام الصادق المعصوم - صلَّى الله عليه وسلَّم؛ روَى البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سألَ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - أناسٌ عن الكهَّان، فقال: ((ليسوا بشيء))، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّهم يُحدِّثوننا أحيانًا بشيء، فيكون حقًّا؟ فقال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((تلك الكلمة مِن الحق يَخطَفُها الجن، فيقرها في أُذن وليِّه، فيخلطون معها مائةَ كذبة.[13-]))

وبادئ ذي بَدْء، فإني أحذِّر من شراء الكتب التي تدعو إلى الشّرك، مثل: كتاب شمس المعارف الكبرى، وكتاب الرحمة في الطب والحِكمة، وكتاب أبي معشر الفَلَكي، وغيرها مِن كُتب تحمل في طِيَّاتها السُّمَّ الزعاف، الذي يُصيب مَن يُصدِّقه بوباء الشرك الذي لا يغفره الله تعالى، وإليك فقراتٍ مِن هذه الكتب؛ لتكونَ على بينة من أمرك، فلا تشترها وحذِّر منها إخوانك لما قد يجرُّه عليهم تصديقُها من سوء الخاتمة في الدنيا والآخِرة.

جاء في كتاب شمس المعارف الكبرى (١/ ١٦): "لمَن أراد علاجَ مريض أو عودة غائب أو التوفيق بيْن متخاصمين، فيعرفون ذلك بأن جعلوا لكلِّ ملَك يومًا مسؤولاً عنه، فمَن أراد شفاء المريض أو عودة الغائب أو الإصلاح بين المتخاصمين، يعرفون اليوم، ثُم ينادون على الملَك الموكَّل بهذا اليوم، ويستغيثون به من دون الله لشفاءِ المريض، أو عودة الغائب أو الإصلاح بين المتخاصمين". اهـ.

في نفس الكتاب (١/ ١١٦): دُعاء واستغاثة بأسماء ملائكة وشياطين، وبعض أسماء الله الحُسْنَى أنقُله لك؛ لتدركَ إلى أيِّ مدًى صار تصديق مثل هذا الكلام، من شرك وضحِك على العقول جاء ما نصُّه:

"أجب ياسمسمائيل بحضور الملك الأحمر، أجب يا أحمر بحق الملك الغالب عليك أمره سمسمائيل، وبحق دمليخ إلا ما أجبت وأسرعت وفعلت ما أمرتك به، أقسمت عليك ياميكائيل الموكل بفلك عطارد، وبحق من لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير الستار، أجب يا ميكائيل بحضور برفان أجب يا برفان بحضور الملك الغائب"... إلخ.

وفي (٢/ ٦٣) تقرأ استعانةً وسؤالاً بكلمات كلُّها دجَل وشعوذة، مِثل قوله:
هذا الاسم السَّريع (أهلا هلا هله، الذات واللوح والقلم، يا بريا وصول أوصل كذا إلى كذا، وأوصل المودة بينهما بيهلطيف سليطيع اسماطون أطوان هكش برقش هيو رش بهليور الركياظ هيورش ياروش... أجيبو أيتها الأرواح العظام بالاسم المخزون المكنون، أجب يا سالم يا ميمون، يكتب يوم الأربعاء بماء الحبق النهري القرنفلي والزعفران وماء.(
فهل هذه الأدعية والاستعانات مِن الله أم مِن الشيطان، اعلم أنَّ كلَّ هذا دجَل، ولا يعلم الغيبَ إلا الله، ولا نافِع ولا ضار إلا هو - سبحانه وتعالى.
أما كتاب أبو معشر الفلكي (وهو دستور الدجَّالين والمشعوذين، فهو مليء بالأبراج والأرقام والخُرافات والشِّرْك من أوَّله إلى آخِره، فمثلاً: "إنَّ الحامِل إن أرادتْ أن تعرف المولود لها ذكرًا أما أُنثى جاء ما نصُّه:
احسبِ اسمها واسم أمها واسم اليوم الذي سُئلت فيه، وأسْقِطه على ٤٤، فإن بقي واحد فولد، وإن بقي اثنان فأُنثى، وإن بقي ثلاث تسقط، وإن بقي ٤ تلد زوجًا، ويستطرد قائلاًَ: مَن وَلَد أول النهار يكون غنيًّا، ومَن ولد آخِر النهار يكون غبيًّا."
طاعة الله تعالى: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((مَن نذَر أن يُطيع الله فليطعْه، ومَن نذَر أن يَعصي الله فلا يعصِه [14-]))، والنذر لغير الله شِرْك وظلم، فلا يجوز العمل والوفاء به.
-6الطِّيَرة والتشاؤم:
الطيرة أو التشاؤم شرْك؛ لأنَّ الإنسان إنْ أراد أن يفعل شيئًا كسفَر أو زواج أو غير ذلك وتشاءَم مِن صوت بومة، أو رقم ١٣، أو لون مِن الألوان، أو كلمة يسمعها، أو غير ذلك، وردَّه عما كان سيفعله؛ خوفًا من ضرر يصيبه من ذلك، فقدْ أوقع نفسه في الشرك؛ قال القاضي عياض - رحمه الله تعالى -: إنَّما سمَّاها شِركًا لأنَّهم كانوا يرون ما يتشاءَمون به مؤثرًا في حصولِ المكروه، وملاحظة الأسباب دون مسبِّبها سبحانه في الجملة شِرْكٌ خفي، فكيف إذا نظَر إليها جهالةً وسوء اعتقاد؟!

ومِن أمثله ذلك ما تعتقده النِّساءُ في أيام النِّفاس من الدخول عليهنَّ بلحم أو باذنجان أو بلح أحمر فيحدُث لهنَّ تشاؤم؛ خوفًا من عدم نزولِ اللَّبن أو غير ذلك، فهو شِرْك، وعلى الإنسان أن يتوكَّل على الله، فإنْ منعه مانعٌ دون اعتقاد بالضرر منه، وإنما اضطرَّ إلى ذلك فليس هذه طِيَرة أو شِرْكًا، ما دام عزم التوكل على الله القائِل :(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) -الطلاق: ٣.]

واعلم - أخي القارئ - أنَّ خيرًا من الطِّيَرة الفأل وتوقُّع الخير، وجاء عن أنس - رضي الله عنه - عن النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((لا عَدْوَى ولا طِيرة، ويُعجبني الفأل الحسن))، قالوا: وما الفأل يا رسولَ الله؟ قال: ((كَلِمة طيِّبة[15-))، والمسلم دائمًا يُحسِن الظن بالله ويتفاءَل خيرًا.

-7الرياء أو الشرك الخفي:

مِن شروط العمل الصالح أن يكون خالصًا من الرِّياء، فمن يُرائي في صلاته أو صدقته أو حجَّته أو شجاعته، فعملُه مردودٌ عليه؛ لقوله - تعالى :- (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) -البينة: ٥.]

ثُمَّ إن الرِّياء محبِط للعمل وخِداع للنفْس؛ قال - تعالى :- (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) -النساء: ١٤٢.]

وقد حذَّر النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - وأنذر من الرِّياء والشِّرْك في الأعمال والأقوال، فقال فيما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((قال الله تعالى: أنا أغْنى الشُّركاء عن الشِّرْك، فمَن عمل عملاً أشْرَك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه.[16-))

وأيضًا عن ابن جندب بن عبدالله بن سُفيان - رضي الله عنه - أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((مَن سمَّع سمَّع الله به، ومَن يُرائي يرائي الله به.[17-))

أخي القارئ:

لقد أطلنا في شرْح وتوضيح هذه الكبيرة لخطورتها، وتعلّم كما أعلم يقينًا أن التوحيد الخالص هو الغاية مِن خلْق الله تعالى لعباده، وللجَنَّة والنار، وإرساله للرُّسل والأنبياء على مرّ العصور مبشّرين ومنذرين، ومِن ثم حذارِ أن تجعل أعمالَك وأقوالك يشوبها عدمُ الإخلاص لله تعالى،

فهي مردودةٌ عليك، ولا يتقبَّل الله منك إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، والله مِن وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

1-أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وأحمد في مسند بني هاشم (٢٦٦٤).
2-أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥).
3-أخرجه البخاري في الأدب (٦١٨)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٦).
4-أخْرَجه أبو داود في الأيمان والنذور (٢٨٣١)، وأحمد في مسنَد الأنصار (٢٢٤٧١)، وإسناده صحيح.
5-أخْرَجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٠)، ومسلم في الأيمان (١٦٤٧).
6-أخرَجه أبو داود في الطب (٣٣٨٨)، ومسلم في السلام (٢٢٠٠).
7-أخرجه مسلم باب بَابٌ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ (٢٢٠٠)
8-انظر السنن والمبتدعات؛ لعبد السلام محمد ص (٢٩٢ - ٢٩٥).
9-أخرجه أحمد في مسند المكثِرين من الصحابة (٣٦٠٤)، وأبو داود في الطب (٣٣٨٥)، وإسناده صحيح، والتمائم والتولة: ضرب مِن السِّحْر يزعمون أنَّه يُحبِّب المرأةَ إلى زوجها.
10-فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد (ص/ ١٣٢)، ط دار الفكر.
11-أخرجه مسلم في السلام (٢٢٣٠)، وأحمد في مسند الأنصار (٢٢٧١١).
12-أخرجه الترمذي في الطهارة (١٣٥)، وأبو داود في الطهارة وسننها (٣٤٠٥).
13-أخْرَجه البخاريُّ في الطب (٥٧٦٢)، ومسلم في السلام (٢٢٢٨).
14-أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٦).
15-أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٦) ، ومسلم في السلام (٢٢٢٤).
16-أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢).
17-أخرجه البخاري في الرقائق (٦٤٩٩) ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٧).

١٦

عقوبة تارك الصلاة

الحمدُ لله وكفَى، والصلاةُ والسلام على مَن اصطفى.

وبعد:
فالصلاةُ هي الرُّكن الثاني مِن أرْكان الإسلام، وهي عمود الدِّين، مَن أقامها فقدْ أقام الدِّين، ومَن تركَها فقد هدَم الدين، وهي الصِّلة التي تربط العبدَ بربه خمس مرَّات في اليوم، وتنهَى عن الفحشاء والمنكَر والبغي؛ لماذا؟
لأنها تجعَل العبد دائمًا مراقبًا لله تعالى في أعماله وأقواله، في ذَهابه وإيابه، في سريرته وعلانيته.
لأنَّه سبحانه معه حيث كان، فتطمئن نفسُه وتسكن جوارحه، ويستريح قلبه وفؤاده مِن همومِ الدنيا ومتاعبها؛ ولهذا كان النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - إذا حان وقتُ الصلاة يقول لمؤذنة بلال - رضي الله عنه - : ((أرِحْنا بالصلاة يا بلالُ))، وهكذا كان سلفُنا الصالح من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين خير قرون البشريَّة على الإطلاق؛ كما قال - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - كانوا على هدْي نبيِّهم - صلَّى الله عليه وسلَّم - في المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها وعدم التهاون فيها، أو التكاسل عنها؛ حفظًا لراحتهم وسكينتهم، وجمعًا لهم بيْن خير الدنيا والآخرة.

ثم جاء أحفادُ هذا السَّلَف من أبناء القرن الواحد والعشرين الذي كثُرت فيه الفِتن، وتفشَّت فيه المنكرات، واختلطتْ فيه الأمور والمعايير، وصار الحق باطلاً والباطل حقًّا، والسنة بِدعة والبِدعة سُنَّة، وطغتِ العادات والتقاليد على تعاليم الكتاب والسُّنة، وترَك كثيرٌ من العِباد الصلاةَ - إلا من رَحِم ربي!
وسواء كان مَن تركها كسلاً أو تعمدًا، فالأمر سيَّان؛ لأن المصيبة واحدة فتَرْكُ الصلاة تركٌ لأعظمِ شعائر الإسلام، والسؤال هو :ما هو عُذر مَن يترك الصلاة وما عقوبتُه عندَ الله تعالى؟

وما رخَّص النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في ترْكها إلا لثلاثة: ((المجنون حتى يُفيق، والصبي حتى يبلُغ الحُلم، والنائِم حتى يستيقظ))، فتارك الصلاة واحدٌ من هؤلاء الثلاثة، وكل إنسان أدرى بحقيقة نفْسه.

هناك مَن يقول :إنَّه لا يعرف كيف يتوضَّأ ولا يعرِف الكتابة ولا القِراءة؛ لذلك هو لا يحفظ شيئًا مِن القرآن، ويَجِد في ذلك عذرًا بترْك الصلاة، وهذا عذرٌ أقبح مِن الذنب نفسه؛ لأنَّ الله تعالى حثَّ على العِلم؛ فقال - جل شأنه :- (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) -الزمر: ٩]، وقال تعالى :(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) -المجادلة: ١١.[
وحثَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - على العِلم فقال: ((ومَن سلَك طريقًا يلتمس فيه عِلمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنَّة))؛ رواه مسلم والترمذي.
وإنْ كان هذا عُذر مَن يجهل القِراءة والكتابة، فماذا عن حمَلة المؤهلات العليا من المهندسين والأطبَّاء والمحاسبين وهلم جرًّا؟!
ما عُذرهم وحُجتهم في ترْك الصلاة، هل هو الجهلُ أيضًا بالدِّين؟! أم إنَّه الكِبْر وحب الدُّنيا واتباع الهوى؟!
نعَمْ، لا ريب أنَّنا نعيش فقرًا ثقافيًّا ودينيًّا، ولا أجِد ما أقوله لهؤلاء وهؤلاء إلا قوله - جلَّ شأنه :- (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) -القيامة: ١٤- ١٥.[

نعم، لقدْ صارتِ الصلاةُ عندَ هؤلاء ثقيلةً على القلوب، وصار لسان حالهم يقول: (أرِحْنا مِن الصلاة يا بلال)! وحسبنا الله ونِعم الوكيل.
ومِن ثَمَّ وبناءً على ما سبق، كان تركها مِن الكبائر العظيمة.
وكيف لا؟ !وقد قال - جلَّ شأنُه - (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا *إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) -مريم: ٥٩ - ٦٠.[

قال ابن كثير في تفسيره ما مختصره:
"(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)؛ أي قرون أُخر (أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذِّها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها، فهؤلاء

سيلقون غيًّا؛ أي: خسارًا يوم القيامة، وقدِ اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ها هنا، فقال البعض: المرادُ بإضاعتها تركها بالكلية، وقال غيرُهم كالأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيتَ، ولو كان تركًا كان كُفرًا.
وقال الأوزاعي: قرأ عمرُ بن عبدالعزيز :(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ) -مريم: ٥٩]، ثم قال: لم تكُن إضاعتهم ترْكها، ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ذلك عندَ قيام الساعة، وذَهاب صالحي أمَّة محمد - صلَّى الله عليه وسلَّم - ينزو بعضُهم على بعض في الأزقَّة، وقال الحسن البصري: عطَّلوا المساجدَ ولزموا الضيعات.[1-"
وقال تعالى :(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ *وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ *حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ *فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) -المدثر: ٤٢ - ٤٨].
وفي السُّنة الصحيحة عشرات مِن الأدلة فيها من التحذير والوعيد، مما يجعل ترْك الصلاة كبيرةً من أعظم الكبائر التي تُؤدِّي بصاحبها إلى النار - والعياذ بالله، مِن ذلك:
•ما رواه الترمذيُّ بسند صحيح عن بُرَيدة قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمَن ترَكها فقد كَفَر.[2-))
•ما رواه أحمد بسندٍ جيِّد أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((مَن حافظ عليها كانتْ له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة، ومَن لم يحافظْ عليها لم تكن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاةً يوم القيامة، وكان يومَ القيامة مع فرعون وهامان، و أُبَيِّ بن خَلَف.[3-))
•ما رواه مسلمٌ عن جابر بن عبدالله قال: سمعتُ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((إنَّ بيْن الرجل وبيْن الشِّرْك والكُفر ترْكَ الصلاة-)) 4].
وقال النوويُّ في شرح الحديث ما مختصره:
"ومعنى" بينه وبين الشرك ترْك الصلاة :"أنَّ الذي يمنع مِن كفره كونه لم يترُكِ الصلاة، فإذا ترَكها لم يبق بينه وبين الشِّرْك حائل، بل دخَل فيه، وأمَّا تارك الصلاة فإنْ كان منكرًا لوجوبها فهو كافرٌ بإجماع المسلمين، خارج مِن ملَّة الإسلام، إلا أن يكون قريبَ عهد بالإسلام، ولم يخالِط المسلمين مدَّةً يبلغه فيها وجوبُ الصلاة عليه، وإن كان تركه تكاسلاً مع اعتقاده وجوبَها كما هو حالُ كثيرٍ مِنَ الناس فقدِ اختلف العلماء

فيه؛ فذهب مالكٌ والشافعي - رحمهما الله - والجماهيرُ مِن السلف والخلَف إلى أنه لا يكْفُر، بل يفسق ويُستتاب، فإن تاب وإلا قتلْناه حدًّا كالزاني المحصَن، ولكنَّه يُقتل بالسيف، وذهب جماعةٌ مِن السلف إلى أنَّه يكفُر.." اهـ.

كيف تُحصِّن نفسك مِن هذه الكبيرة ومِن العقوبة التي تنتظر تاركَها عندَ الله تعالى؟

الجواب:

لا يكون ذلك إلا بأداء الصَّلاة في أوقاتها، وعلى الوجه الأكْمَل، وما أغنانا عن كلِّ ما سبَق ذكرُه بطاعتنا لله تعالى، والوقوف بيْن يديه نادمين مستغفِرين، وهو سبحانه غافرُ الذنب، قابِل التَّوْب شديد العقاب.

وأُريد هنا تنبيه القارئ لأمر هام يُلبسه عليه الشيطان؛ ليترك الصلاة بالكلية ولو بعدَ حين، ألاَ وهو استحلال الصلاة في البيوت بغير عُذر شرعي، وها هو البيان والتوضيح؛ ليكون ذلك حِصنًا له من كيده وتلبيسه، والله المستعان.

حُكم الصلاة في البيوت:

تارك الصَّلاة وقدْ أدركنا مصيرَه البائس، فماذا عمَّن يستحلُّ لنفْسه الصلاةَ في البيوت؟ ما حُكم الدِّين فيه؟

لقدْ أحْزَنني كثيرًا أنَّ بيوت الله - جل وعلا - في الصلوات الخمْس خاليةٌ إلا ممَّن رحِم ربي.

لقدْ هجَرَها العبادُ في الوقت الذي عمَّروا فيه دُور السينما والمسارِح، وافترشوا الحدائقَ والنوادي، وخالفوا ما كان عليه نبيُّهم - صلَّى الله عليه وسلَّم - وسَلَف الأمَّة الصالِح - مِن المحافظة على أداء الصلوات جماعةً في المسجد، وتعمير بُيوت الله وعدَم الصلاة في البيوت إلا لأصحابِ الأعذار، وللأسف الشديد تجد الكثيرَ مِن المساجد رُوَّادها لا يتعدَّون أصابعَ اليد الواحدة، وخصوصًا في صلاة الفجْر والعشاء، وهما أثقلُ صلاةٍ على المنافقين كما جاءَ في الحديث المتَّفق عليه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - : ((ليس صلاةٌ أثقلَ على المنافقين من صلاة الفَجْر والعِشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا.[5-]))

والسؤال الذي يطْرَح نفسه :أين يذْهَب العبادُ؟ لماذا يترُكون الصلاةَ في بيوت الله، ويُفضِّلون الصلاةَ في ديارهم؟

هل الصلاةُ في الدِّيار سُنَّة عن نبيّنا - صلَّى الله عليه وسلَّم ؟ ما هي الأعذارُ في ترْك الصلوات المفروضة في بيوتِ الله تعالى؟
حذارِ مِن ترْك الجماعة في بيوت الله بدون عُذر.
وها هي الأعذارُ الشرعيَّة للصلاة في البيوت أو تأخيرها حتى نكشِف الغُمَّة ونُزيل الالتباس، والله المستعان.
الأعذار الشرعية للصلاة في البيوت:
يُرخَّص التخلف عنِ الجماعة في الحالات الآتية:
1-البَرد أو المطَر الشديد، والدليل على ذلك:
عن ابنِ عُمرَ - رضي الله عنهما - عنِ النبيِّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه كان يأمُر مؤذنًا يؤذّن، ثم يقول على إثره: "ألاَ صلُّوا في الرِّحال في الليلةِ الباردة المطيرة في السفر.[6-]"
•وعن جابر - رضي الله عنه - قال: خرجْنا مع رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - في سفَرِنا فمُطرنا، فقال: ((ليصلِّ مَن شاء منكم في رَحْله))؛ أي: منزله.[7-]
قال الفقهاءُ :ومثل البَرد الحرُّ الشديد والظُّلمة والخوف مِن ظالِم، وقال ابن بطَّال: أجمع العلماءُ على أن التخلُّفَ عن الجماعة في شدَّة المطر والظلمة والريح وما أشبه ذلك يُباح.
2-حضور الطعام:
والدليل حديثُ ابن عمرَ - رضي الله عنهما - عن النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه قال: ((إذا وُضِع عَشاء أحدكم وأُقيمت الصلاة، فابْدؤوا بالعَشاء ولا يعجل حتى يفرغَ منه.[8-]))
ويلاحظ :أنَّ جمهور الفقهاء يرَوْن كراهة تقديم الصلاة على الطعام إذا حضَر، ومحل ذلك إذا اتَّسع الوقت وإلاَّ لزِم تقديم الصلاة.
أمَّا الاحتيال واتباع الهوى والنفس الأمَّارة بالسوء التي طُبِعت على حب المعصية والكسل، فيبيح الإنسان لنفسه ترْكَ صلاة الجماعة بحُجَّة حضور الطعام، ثم لا يأكل ما يسد جوعَه وينهض ليلحق بالصلاة، وإنما يفترش ويأكُل ويُطيل حتى لا يبقى أحدٌ في المسجد، ثم يقول قد فاتتْه الصلاة وهو معذور؛ ليصلِّي إذًا في بيته، فهذا وأمثاله نقول له قولَ الله تعالى :(بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) -القيامة: ١٤ - ١٥.[
3-مدافعة الأخبثين:

ودليل ذلك ما جاء عن عائشة - رضي الله عنها - قالتْ: سمعتُ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((لا صلاةَ بحَضْرة طعام ولا هو يُدافِع الأخبثين.[9-]))
ومِن ثم، فإنَّ ترْك الجماعة مع القُدرة عليها ودون عُذر ضياعٌ لثواب عظيم، وأذكر هنا حديثًا واحدًا فيه الكفاية؛ ليدركَ المسلم ما في ترْك الجماعة مِن ضياع لثوابٍ عظيم، سوف يندم عليه بعدَ ذلك.
فعن أبي هُريرَة - رضي الله عنه - قال: قال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((صلاةُ الرجل في جماعة تضعف على صلاتِه في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا؛ وذلك أنَّه إذا توضَّأ فأحسن الوضوء، ثم خرَج لا يُخرِجه إلا الصلاة، لم يخطُ خطوةً إلا رُفِع له بها درجة وحُطَّت عنه بها خطيئة، فإذا صلَّى لم تزل الملائكةُ تُصلِّي عليه ما دامَ في مصلاَّه ما لم يُحدِث، تقول: اللهمَّ صلِّ عليه، اللهم ارحمْه، ولا يزال في صلاةٍ ما انتظر الصلاة.[10-]))

نسأل الله تعالى السدادَ والتوفيق، والبُعد عن كبائرِ الذنوب، إنَّه وليُّ ذلك والقادِر عليه، والله مِن وراء القصد وهو يهدي السبيل.

[1-]تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٣٥).
[2-]أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٩).
[3-]أخرَجه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة (٦٥٤٠) وإسناده جيد.
[4-]أخرجه مسلم في الإيمان - باب إطلاق اسم الكُفر على من تَرَك الصلاة رقم (٨٢).
[5-]أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥١).
[6-]أخرجه البخاري في الأذان (٦٣٢)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٩٧).
[7-]أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٩٨)، والترمذي في الصلاة (٤٠٩).
[8-]أخرجه البخاري في الأذان (٦٧٤)، ومسلم في المساجد (٥٥٩).

[9]-أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٧)، ومسلم مختصرًا في المساجد (٦٤٩).
[10]-أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٦٠)، وأبو داود في الطهارة (٨٢).

١٧

من روائع الطب النبوي في علاج الأبدان

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللهِ مِن شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهدِه الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحْده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحْبه أجمعين.

أما بعد:
فمِن فضل الله تعالى أنه جعَل لكلِّ داءٍ دواءً، وجعَل في قرآنه وسُنة رسوله - صلَّى الله عليه وسلَّم - آياتٍ مِن الإعجاز التي تَشفي كل الأمراض إنْ أخلص العبد النيةَ في توكله عليه؛ قال تعالى :(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) - الإسراء: ٨٢]، وقال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً))؛ أخرجه البخاري في" الطب(5678) "، وابن ماجه في الطب (ح: ٣٤٣٩).

وفي الطبِّ النبوي علاجٌ لكثير من الأمراض البدنية، فهو - صلَّى الله عليه وسلَّم - كان المرجعية الطِّبية لصحابته الكرام، وقد دلَّهم على الداء والدواء، وهو الذي لا ينطِق عن الهوى، وحثَّهم على العلاج بما فاء الله تعالى عليهم مِن خامات طبيعيَّة.

ومِن هذه الأمراض على سبيل المثال:
الحمَّى، استطلاق البَطن - الإسهال - الاستسقاء، الجروح، التسمُّم، أمراض الأسنان، عرق النَّسا، البثور، الجذام، الصداع... إلخ، وكل هذه

الأمراض وغيرها تحتاج لبيان علاجها بالتفصيل إلى مساحة أكبر مِن هذه العجالة.

ومِن ثَمَّ رأينا أن نذكر هنا علاجَ الكثير من هذه الأمراض إجمالاً، وهي تندرج تحتَ دواء مِن الأدوية التي تتوفَّر في الصيدلية النبويَّة مِن روائع الطب النبوي بالخامات والأدوية الطبيعية، وفي هذا ما يَكفي ويَشفي، والله المستعان.

-1العلاج بالحَبَّة السوداء (الشونيز):

الحبَّة السوداء مِن روائع الطب النبوي، وجاء فيها مِن الأحاديث ما يَليق بأهميتها في الشِّفاء مِن كل أمراض الأبدان، وأذكُر هنا حديثًا واحدًا فيه الكفاية.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((عليكم بهذه الحبَّة السوداء، فإنَّ فيها شفاءً مِن كل داء إلا السَّام))، والسام: الموت؛ أخرجه البخاري في الطب (ح: ٥٦٨٧)، ومسلم في السلام (ح: ٢٢١٥).

قال ابن القيم في "الزاد" (٢٧٢/٤):

الحبَّة السوداء: هي الشُّونيز في لُغة الفُرْس، وهي الكمُّون الأسود، وتُسمَّى الكمُّون الهندي، ثم قال: وهي كثيرة المنافِع جدًّا، وقوله: ((شِفاء مِن كل داء))، مِثل قوله تعالى :(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) - الأحقاف: ٢٥]؛ أي: كل شيء يقبل التدميرَ ونظائره، وهي نافعةٌ مِن جميع الأمراض الباردة وتدخل في الأمراض الحارَّة اليابسة بالعرْض، فتوصَّل قوى الأدوية الباردة الرَّطْبة إليها بسرعة تنفيذها إذا أخَذ يُسيِّرها.

وقد نصَّ صاحب القانون وغيره على الزعفران في قرص الكافور لسرعةِ تنفيذه، وإيصاله قوته، وله نظائرُ يعرفها حذَّاق الصناعة، ولا تستبعد منفعة الحار في أمراض حارّة بالخاصية، فإنَّك تجد ذلك في أدوية كثيرة، منها:

الأنزروت وما يُركَّب معه من أدوية الرَّمد؛ كالسكر وغيره مِن المفردات الحارة، والرمد ورم حار باتّفاق الأطباء، وكذلك نفع الكبريت الحار جدًّا مِن الجرَب.

والشونيز حارٌّ يابس في الثالثة مذهب للنفخ مخرج لحب القرْع، نافِع من البرص وحمَّى الربع، والبلغمية مفتح للسدد، ومحلّل للرياح، مجفِّف لبلَّة المعدة ورطوبتها، وإن دقَّ وعُجن بالعسل وشُرب بالماء الحار أذاب الحصاةَ التي تكون في الكليتين والمثانة ويدرُّ البول والحيض واللبن إذا أُديم شربه أيَّامًا، وإن سُخِّن بالخل وطلي على البطن قتَل حب القرع، فإن عجن بماء الحنظل الرَّطب أو المطبوخ كان فِعْله في إخراج الدُّود أقْوى، ويجلو ويقطع ويُحلِّل ويَشفي من الزكام البارد إذا دقَّ وصيّر في خرقة واشتمَّ دائمًا أذهبه، ودهنه نافِع لداء الحية، ومِن الثآليل والخيلان، وإذا شرب منه مثقال بماء نفع من البهر وضِيق النفس، والضماد به ينفع مِن الصداع البارد، وإذا نقع منه سبع حبَّات عددًا في لبن امرأة وسعط به صاحِب اليرقان نفعَه نفعًا بليغًا.

وإذا طُبِخ بخل وتمضمض به نفعَ من وجع الأسنان عن برد، وإذا استعط به مسحوقًا نفَع من ابتداء الماء العارض في العين، وإنْ ضمد به مع الخلِّ قلْع البثور والجرَب المتقرح وحلَّل الأورام البلغمية المزمنة والأورام الصُّلبة، وينفع مِن اللقوة إذا تسعّط بدهنه، وإذا شرب منه مقدار نِصف مثقال إلى مثقال نفَعَ من لسع الرتيلاء، وإن سحق ناعمًا وخُلِط بدهن الحبَّة الخضراء وقطر منه في الأُذن ثلاث قطرات نفَع من البرد العارض فيها والرّيح والسدد، وإنْ قلي ثم دقَّ ناعمًا ثم نُقِع في زيت وقطر في الأنف ثلاث قطرات أو أربع نفَع مِن الزكام العارض معه عطاس كثير، وإذا أُحرق وخلط بشمع مُذاب بدُهن السوسن أو دهن الحنَّاء وطُلي به القروح الخارجة مِن الساقين بعدَ غسلها بالخلِّ نفَعَها وأزال القروح.

وإذا سُحِق بخلٍّ وطُلي به البَرص والبهق الأسود والحزاز الغليظ نفَعَها وأبرأها، وإذا سُحِق ناعمًا واستَفَّ منه كل يوم درهمين بماء بارد من عضة كلْب كلِب قبل أن يفرغ مِن الماء نفَعه نفعًا بليغًا، وأمن على نفسه مِن الهلاك، وإذا استعط بدُهنه نفَع مِن الفالج والكزاز وقطَع موادهما، وإذا دخن به طرد الهوام، وإذا أذيب الأنزروت بماء ولُطخ على

داخل الحلقة، ثم ذرَّ عليها الشونيز كان مِن الذرورات الجيِّدة العجيبة النَّفْع من البواسير، ومنافعه أضعافُ ما ذكرْنا، والشربة منه درهمان" ا.هـ.

وفي تذكرة داود الأنطاكي قال ما مختصره:
وهو يقْطع شأفة البلْغم والقولنج والرّياح الغليظة وأوجاع الصَّدْر والسُّعال، وقذف المدَّة، وضيق التنفُّس، والانتصاب، وفساد الأطعمة، والاستسقاء واليرقان والطحال، واستعماله كلَّ صباح بالزبيب يحمِّر اللون ويصفّيه، ورماده يقطع البواسير شربًا وطلاءً، وبخوره يُنقّي الرأس مِن سائر الصداع والأوجاع، والشقيقة والزكام والعطاس" ا.هـ.

-2العلاج بأعوادِ السِّواك "الأراك":
أخرج مسلمٌ بسنده عن عائشةَ - رضي الله عنها - قالت: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((عشْرٌ من الفِطرة: قصُّ الشارب وإعْفاء اللحية، والسواك واستنشاق الماء، وقصُّ الأظفار وغسل البراجم، ونتْف الإبْط وحلق العانة، وانتقاص الماء، قال زكرياء - راوي الحديث -: قال مصعب: ونسيتُ العاشرة إلاَّ أن تكون المضمضة))؛ أخرجه مسلم في الطهارة (ح: ٢٦١)، والترمذيُّ في الأدب (ح: ٢٧٥٧).

وثبت في الصحيحين عنه - صلَّى الله عليه وسلَّم - أنَّه قال: ((لولا أن أشقَّ على أمَّتي لأمرتُهم بالسواك عندَ كل صلاة))؛ البخاري في الجمعة (ح: ٨٨٧)، ومسلم في الطهارة (ح: ٢٥٢).

وفي صحيح البخاري تعليقًا عنه - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((السواك مطهرة للفمِ مرضاةٌ للرب))؛ أخرجه البخاري في الصوم، والنسائي في الطهارة (ح: ٥)، وغيرهما.

والأحاديث عن فضل السواك كثيرة؛ قال ابن القيم في "الزاد" (٤/٢٩٣):
"وأصلح ما اتّخذ السواك مِن خشب الأراك ونحوه، ولا ينبغي أن يُؤخَذ من شجرة مجهولة فربَّما كانت سمًّا، وينبغي القصد في استعماله، فإنْ بالغ فيه فربَّما أذهب طلاوةَ الأسنان وصقالتَها وهيَّأها لقبول الأبخرة المتصاعِدة مِن المعدة والأوساخ، ومتى استعمل باعتدال جلاَّ الأسنان

وقوّى العمود، وأطلق اللسان ومنع الحفر، وطيَّب النكهة ونقّى الدماغ، وشهى الطعام.

ثم قال:
وفي السواك عدَّة منافع: يُطيّب الفم ويشدُّ اللثة، ويقطع البلغم ويجلو البصر، ويذهب بالحفر ويصح المعدة، ويصفّي الصوت ويُعين على هضم الطعام، ويسهل مجاري الكلام، وينشط للقراءة والذّكر والصلاة ويطرد النوم، ويُرْضي الربّ، ويُعجب الملائكة، ويكثر الحسنات.

ويُستحبُّ كلَّ وقت، ويتأكد عندَ الصلاة والوضوء، والانتباه من النوم، وتغيير رائحة الفم، ويستحبُّ للمفطِر والصائم في كلّ وقت؛ لعمومِ الأحاديث فيه ولحاجة الصائم إليه، ولأنَّه مرضاة للرب ومرضاته مطلوبةٌ في الصوم أشد مِن طلبها في الفِطر، ولأنه مطهرةٌ للفم والطهور للصائِم من أفضل أعماله". اهـ.

وقال صاحب كتاب" التداوي بالأعشاب :[1-]"وقد أثبتت الأبحاثُ الطبية أنَّ السواك المأخوذ مِن شجرة الأراك غنيٌّ بالمواد المطهّرة والمنظِّفة، والقابضة والمانعة للنزف الدَّموي والعفوي والقاتِلة للجراثيم، حيث يحتوي السواك على العفص(TANNICACID) ، ولهذه المادة تأثيرٌ مضاد للتعفُّنات والإسهالات، كما يطهّر اللثة والأسنان ويَشفي جروحها الصغيرة ويَمْنع نزيف الدم منها.

أمَّا مادة (SINNGIRIN) فهي عبارةٌ عن جليكوزيد مكوَّنة من اتّحاد زيت الخردل) أليك (مع سكَّر العنب اليَمني، ويُمكن فصلها بواسطة الخميرة المسمَّاة (MGROSIN) إلى سكَّر العنب وزَيت الخردت، وللأخير رائحة حادَّة وطعْم حرَّاق، وهو ما يُشعِر به الشخص الذي يُستعمل السواك لأوَّل مرَّة، وهذه المادَّة تساعد على الفتك بالجراثيم.

ثم قال :وقد تمَّ صناعةُ معجون الأسنان مِن خلاصة السواك، ولو نظرنا للسواك لوجدْناه كيميائيًّا يتكوَّن من ألياف السليلوز وبعض الزيوت الطيَّارة، ومن راتنج عطري وأملاح معدنية، أهمها: كلوريد الصوديوم - ملح الطعام - وكلوريد البوتاسيوم، وأوسالات الجير؛ ولذلك فالسواك

فرشاةٌ طبيعيَّة زوّدت بأملاح معدنية وموادّ عِطرية تُساعِد على تنظيف الأسنان". اهـ.

-3العلاج بالحجامة:

الحجامة مِن روائع الطب النبوي، وقد ثبَت احتجامُه - صلَّى الله عليه وسلَّم -وأمرَنا به.

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: احتجَم رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - حَجمَه أبو طيبة فأمَر له بصاعين مِن طعام وكلَّم أهله فوضعوا عنه مِن خراجه، وقال: ((إنَّ أفضل ما تداويتم به الحجامةُ، أو هو مِن أمثل دوائكم))؛ أخرجه مسلم في المساقاة (ح: ١٥٧٧).

وثبَت أيضًا احتجامه من السمّ الذي أصابه مِن الشاه المسمومة.

قال ابن القيم في "الزاد" (١١١/٤):

"عن عبدالرحمن بن كعْب بن مالك - رضي الله عنه - قال: "إنَّ امرأةً يهودية أهدتْ إلى النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - شاةً مصلية بخيبر، فقال: ((ما هذه؟)) قالت: هدية، وحذرتْ أن تقول: من الصَّدَقة، فلا يأكل منها، فأكَل النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - وأكَل الصحابة، ثم قال: أمسكوا، ثم قال للمرأة: ((هل سممتِ هذه الشاة؟)) قالت: مَن أخبرك بهذا؟ قال: ((هذا العظم لساقِها، وهو في يدِه؟))، قالت: نعم، قال: ((لِمَ؟)) قالت: أردتُ إن كنتَ كاذبًا أن يستريح منك الناس، وإن كنت نبيًّا، لم يضرَّك، قال: فاحتجم النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - ثلاثةً على الكاهل، وأمر أصحابه أن يحتجِموا، فاحتجموا، فمات بعضُهم؛ والحديث صحيح، صحَّح الألبانيُّ إسنادَه في سنن أبي داود (ح: ٤٥١٢).

ثم قال - رحمه الله" :- معالجة السمّ تكون بالاستفراغات، وبالأدوية التي تعارض فعلَ السمّ وتبطله، إمَّا بكيفياتها، وإما بخواصِّها، فمَن عدم الدواء، فليبادرْ إلى الاستفراغ الكُلي، وأنفعه الحجامة، ولا سيَّما إذا كان البلدُ حارًّا، والزمان حارًّا، فإنَّ القوة السمية تسري إلى الدم، فتنبعث في العُروق والمجاري حتى تصلَ إلى القلب، فيكون الهلاك، فالدم هو المنفذ الموصل للسُّمّ إلى القلب والأعضاء، فإذا بادر المسموم وأخرج

الدم، خرجتْ معه تلك الكيفيةُ السُّمية التي خالطتْه، فإنْ كان استفراغًا تامًّا لم يضرَّه السم، بل إما أن يذهب، وإمَّا أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة، فتُبطل فعْلَه أو تُضعفه.

ولما احتجم النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - احتجَم في الكاهل، وهو أقربُ المواضع التي يُمكن فيها الحجامة إلى القلْب، فخرجتِ المادة السميَّة مع الدم لا خروجًا كليًّا، بل بقِي أثرها مع ضعْفه لما يريد الله سبحانه مِن تكميل مراتب الفضْل كلها له، فلمَّا أراد الله إكرامَه بالشهادة، ظهَر تأثيرُ ذلك الأثَر الكامن من السمّ؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً."

وقال - رحمه الله - في موضع آخَر من الكتاب (٤٩٨/٤) عن منافع الحجامة ما مختصره: "وأمَّا منافع الحجامة: فإنَّها تنقي سطحَ البدن أكثرَ من الفصد، والفصد لأعماق البدن أفضل، والحجامة تستخرج الدم مِن نواحي الجلد.

ثم قال :قال صاحب القانون - ابن سينا -: ويُؤمر باستعمال الحجامة لا في أوَّل الشهر؛ لأنَّ الأخلاط لا تكون قد تحرَّكت وهاجت، ولا في آخِره؛ لأنَّها تكون قد نقصت، بل في وسط الشهر حين تكون الأخلاطُ هائجةً بالغة في تزايدها لتزيد النور في جرْم القمر.

ثم قال :والحجامة على الكاهِل: تنفَع مِن وجع المنكب والحلْق.

والحجامة على الأخدعين تنفَع مِن أمراض الرأس، وأجزائه، كالوجه، والأسنان، والأذنين، والعينين، والأنف، والحلْق إذا كان حدوثُ ذلك عن كثرة الدم أو فساده، أو عنهما جميعًا.

والحجامة تحت الذَّقن تنفَع مِن وجع الأسنان والوجه والحلقوم، إذا استعملت في وقتها، وتنقي الرأس والفكين، والحجامة على ظهْر القدَم تنوب عن فصْد الصافن، وهو عِرْق عظيم عند الكعب، وتنفَع من قروح الفخذين والساقين، وانقطاع الطمْث، والحكَّة العارضة في الأنثيين،

والحجامة في أسفل الصَّدر نافعة مِن دماميل الفخذ، وجرَبه وبثوره، ومِن النقرس والبواسير، والفيل وحكَّة الظهر.

ثم قال عن أفضل أوقات الحجامة:
عن أنس - رضي الله عنه - كان رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يحتجِم في الأخدعين والكاهل، وكان يحتجم لسبعةَ عشر، وتسعةَ عشر، وفي إحدى وعشرين"؛ أخرجه الترمذي في الطبِّ (ح: ٢٠٥١)، وانظر صحيح الجامع (ح: ٤٩٢٧).

وفي سُنن أبي داود من حديثِ أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعًا: ((مَن احتجم لسبعَ عشرة، أو تسع عشرة، أو إحدى وعشرين، كانت شفاءً مِن كل داء))؛ انظر صحيح الجامع (ح: ٥٩٦٨).

ثم قال :وهذه الأحاديثُ موافقةٌ لما أجْمع عليه الأطباء، أنَّ الحجامة في النصف الثاني، وما يَليه مِن الربع الثالث مِن أرباعه أنفعُ مِن أوله وآخره، وإذا استعملت عندَ الحاجة إليها نفعَتْ أيَّ وقت كان مِن أول الشهر وآخره.

وقال صاحب القانون :أوقاتها في النهار: الساعة الثانية أو الثالثة، ويَجِب توقيها بعدَ الحمام إلا فيمَن دمُه غليط، فيجب أن يستحم، ثم يستجم ساعة، ثم يحتجم، انتهى.

وتُكره عندهم الحجامة على الشِّبَع، فإنها ربما أورثتْ سددًا وأمراضًا رديئة، لا سيَّما إذا كان الغذاء رديئًا غليظًا، وفي أثر" :الحجامة على الرّيق دواء، وعلى الشِّبع داء، وفي سبعةَ عشرَ مِن الشهر شفاء"، واختيار هذه الأوقات للحجامة، فيما إذا كانتْ على سبيل الاحتياط والتحرُّز مِن الأذى، وحفظًا للصحة، وأما في مداواة الأمراض، فحيثما وجد الاحتياج إليها وجَب استعمالها". اهـ.

-4العلاج بأبوال الإبل وألبانها:
قال ابن القيم في "الزاد" (٤/٤٢) ما مختصره:

"في الصحيحين مِن حديث أنس بن مالك - رضي اللّٰه عنه - قال: قدِم رهطٌ من عرينة وعكل على النبي - صلَّى اللّٰه عليه وسلَّم - فاجْتَووا المدينةَ، فشكَوا ذلك إلى النبيِّ - صلَّى اللّٰه عليه وسلَّم - فقال: ((لو خرجتُم إلى إبل الصدقة فشربتُم مِن أبوالها وألبانها))، ففعلوا، فلما صحُّوا، عمَدوا إلى الرعاة فقتلوهم، واستاقوا الإبل، وحاربو آللّٰه ورسولَه، فبَعث رسول اللّٰه - صلَّى اللّٰه عليه وسلَّم - في آثارهم، فأخذوا، فقُطِع أيديهم، وأرجلهم، وسمل أعينهم، وألْقاهم في الشمس حتى ماتوا"؛ أخرجه البخاري في الجهاد (ح: ٣٠١٨)، ومسلم في القسامة والمحاربين (ح: ١٦٧١).(

والاستسقاء :مرَض مادي سببه مادةٌ غريبة باردة تتخلَّل الأعضاء فترْبو لها، إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإمَّا المواضع الخالية مِن النواحي التي فيها تدبيرُ الغذاء والأخلاط، وأقسامه ثلاثة: لحْمي - وهو أصعبها - وزقي، وطبلي.

ولما كانتِ الأدوية المحتاج إليها في علاجه هي الأدويةَ الجالبة التي فيها إطلاق معتدل، وإدرار بحسب الحاجة، وهذه الأمور موجودة في أبوال الإبل وألبانها، أمَرَهم النبيُّ - صلَّى اللّٰه عليه وسلَّم - بشربها، فإنَّ في لبن اللقاح جلاءً وتليينًا، وإدرارًا وتلطيفًا، وتفتيحًا للسدد، ثم قال: وهذا المرض لا يكون إلاَّ مع آفة في الكبد خاصَّة، أو مع مشاركة، وأكثرها عن السَّدد فيها، ولبن اللقاح العربية نافعٌ مِن السدد؛ لما فيه من التفتيح، والمنافع المذكورة.

قال الرازي :لبن اللقاح يَشفي أوجاع الكبد، وفساد المزاج، وقال الإسرائيلي: لبن اللقاح أرقُّ الألبان، وأكثرها مائيةً وحدَّة، وأقلها غذاء؛ فلذلك صار أقواها على تلطيفِ الفضول، وإطلاق البطن، وتفتيح السدد، ويدلُّ على ذلك ملوحتُه اليسيرة التي فيه لإفراطِ حرارة حيوانية بالطبع؛ ولذلك صار أخصَّ الألبان بتطرية الكبد، وتفتيح سددها، وتحليل صلابة الطِّحال إذا كان حديثًا، والنفع من الاستسقاء خاصَّة إذا استعمل لحرارته التي يخرُج بها من الضرع مع بولِ الفصيل، وهو حارٌّ كما يخرج مِن الحيوان، فإنَّ ذلك مما يَزيد في ملوحته، وتقطيعه الفضول،

وإطلاقه البطن، فإن تعذَّر انحداره وإطلاقه البطن، وجَب أن يطلق بدواء مسهّل.

وقال صاحب القانون :ولا يلتفت إلى ما يُقال: مِن أنَّ طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء، قال: واعلمْ أنَّ لبن النوق دواءٌ نافع؛ لما فيه مِن الجلاء برفق، وما فيه مِن خاصية، وأنَّ هذا اللبن شديد المنفَعَة، فلو أنَّ إنسانًا أقام عليه بدل الماء والطعام شُفِي به، وقد جُرّب ذلك في قوم دفعوا إلى بلادِ العرب، فقادتهم الضرورةُ إلى ذلك، فعوفوا، وأنفع الأبوال: بول الجمل الأعرابي، وهو النَّجيب". اهـ.

-5العلاج بعسل النحل:

عسَل النحل جعَله الله تعالى شفاءً للناس مِن كل داء، قال تعالى : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) -النحل: ٦٩.]

والنبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - حثَّ أمَّته على التداوي به، وثبَت هذا في الصحيحين مِن حديث أبي سعيد الخدري: "أنَّ رجلاً أتى النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - فقال: إنَّ أخي يشتكي بطنه: وفي رواية: استطلَق بطنه، فقال: ((اسقه عسلاً))، فذهَب ثم رجَع، فقال: قد سقيتُه، فلم يُغنِ عنه شيئًا، وفي لفظ: فلم يزدْه إلا استطلاقًا مرّتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول له: ((اسقه عسلاً))، فقال له في الثالثة أو الرابعة: ((صدَق الله، وكذَب بطنُ أخيك))؛ أخرجه البخاري في الطب (ح: ٥٧١٦)، ومسلم في السلام (ح: ٢٢١٧).

وقال ابن القيم في "الزاد" (٣/٤):

"والعسل فيه منافعُ عظيمة، فإنَّه جلاءٌ للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلِّل للرطوبات أكلاً وطلاءً، نافِع للمشايخ وأصحاب البَلغم، ومن كان مزاجُه باردًا رطبًا، وهو مغذٍّ مليّن للطبيعة، حافِظ لقُوى المعاجين ولما استودع فيه، مُذهِب لكيفيات الأدوية الكريهة، منقّ للكبد والصدر، مدرّ للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شُرب حارًّا بدهن الورد، نفَع من نهش الهوام وشرب الأفيون، وإنْ شُرب وحْده ممزوجًا بماء نفَع مِن عضة الكَلْب الكَلِب... ثم قال:

وهو غذاءٌ مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشْربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفْرح مع المفرحات، فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مِثله، ولا قريب منه، ولم يكُن معوَّل القُدماء إلاَّ عليه، وأكثر كتب القُدماء لا ذِكر فيها للسكر البتة، ولا يعرفونه، فإنَّه حديث العهْد حدَث قريبًا، وكان النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - يشربه بالماء على الرّيق، وفي ذلك سرٌّ بديع في حِفظ الصحة لا يُدركه إلا الفِطنُ الفاضل.

ثم قال:
وفي قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((صَدَق الله وكذَب بطنُ أخيك))، إشارة إلى تحقيق نفْع هذا الدواء، وأنَّ بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفْسه، ولكن لكذب البطن، وكثرة المادَّة الفاسدة فيه، فأمره بتكْرار الدواء لكثرةِ المادة.

وليس طبه - صلَّى الله عليه وسلَّم - كطبِّ الأطباء، فإن طبَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - متيقّن قطعي إلهي، صادِر عن الوحي، ومشكاة النبوَّة، وكمال العقل، وطب غيره، أكثرُه حدسٌ وظنون، وتجارب، ولا يُنكر عدم انتفاع كثير مِن المرضى بطبِّ النبوة، فإنَّه إنما ينتفع به مَن تلقَّاه بالقَبول، واعتقاد الشّفاء به، وكمال التلقّي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذي هو شفاءٌ لما في الصُّدور - إنْ لم يتلقَّ هذا التلقّي - لم يحصلْ به شفاء الصُّدور من أدوائها، بل لا يَزيد المنافقين إلاَّ رجسًا إلى رجْسِهم، ومرضًا إلى مرَضهم، وأين يقَع طب الأبدان منه؟ فإعراض الناس عن طبِّ النبوَّة كإعراضهم عن طبِّ الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشّفاء النافِع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخُبث الطبيعة، وفساد المحل، وعدم قَبوله، والله الموفَّق". اهـ.

ولمعلوماتك - أخي القارئ - ففي العسل كلُّ ما يحتاجه جسمُ الإنسان مِن فيتامينات، ففيه فيتامين أ، ب١، ب٢، ب٣، ب٥، ب٦، د، ك، و، هـ.

وكذلك يحتوي على معادن وأملاح، كالحديد والكبريت، والكالسيوم والبوتاسيوم، واليود والصوديوم، والقصدير والرصاص والمنجنيز... إلخ. وفوائده لا تُحْصَى ولا تُعدُّ - ولله الحمد والمِنَّة.

وبعد :فأختُم هذه المقالة بعدَ أن وصلت لنهايتها على الرغم من حاجة الموضوع لمساحةٍ أكبرَ، ولكن فيما ذكرْناه من روائع الطبِّ النبوي الكفاية؛ ليلتمس البعض الشفاءَ فيه بعيدًا عن الآثار السيّئة والأعراض الجانبيَّة للأدوية الكيماوية، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على الصادِق المعصوم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحْبه أجمعين.

" [1]-التداوي بالأعشاب"؛ لعبداللطيف عاشور.

١٨

الوصايا الذهبية للمشاكل الزوجية

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعِينُه، ونستَغفِره ، ونعوذُ بالله من شرُور أنفُسِنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلواتُ ربي وسلامُه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

يقولون: الوقاية خيرٌ من العلاج، وهذا صحيح.

ومن ثَمَّ فما نطرَحُه هنا من وَصايا ذهبية هو خُلاصة ما لمسناه واستنبَطْناه من مشاكل كثيرةٍ عُرضتْ علينا، وقدَّمنا فيها النصيحة الطيّبة لأصحابها؛ فكانتْ لها ثمارٌ إيجابيَّة على المدى القصير والطويل، ولله الحمد والمنَّة.

الوصيَّة الأولي: عدم الإسراف في المال:

لو كتَبْنا هنا عن المشاكل التي تنشأ ببين الأزواج بسبب المال لاحتَجْنا لكتابٍ منفصل!

المال نعمةٌ كما هو نقمة؛ ولذلك دلَّنا الله - تعالى - على كيفيَّة التصرُّف فيه، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الإسراف وما في معناه من التبذير والترَف

من الأمراض الاجتماعيَّة التي تُهدِّد الحياة الزوجيَّة؛ لأنَّ الترف والبذخ بداية النهاية.

وجاء في "أدب الدنيا والدين) "ص٢٩٩): واعلَمْ أنَّ السرف والتبذير قد يفترق معناهما؛ فالسرف: هو الجهل بمقادير الحقوق، والتبذير: هو الجهل بمواقع الحقوق.

وكلاهما مذمومٌ، وذمُّ التبذير أعظم؛ لأنَّ المسرف يخطئ في الزيادة، والمبذِّر يخطئ في الجهل، اهـ.

قلت: وسَواء كان سرفًا أو تبذيرًا، فكلاهما ممقوتٌ شرعًا.

• ومن صُوَر الإسراف من الزوج السرف في شرب وتَعاطِي الدخان وما يجري مجراه، وكان أولى بهذا المال أنْ يُكرم به زوجته وأولاده!

ألم يقل النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((دِينارٌ أنفَقتَه في سبيل الله، ودِينارٌ أنفَقتَه في رقبةٍ، ودِينارٌ تصدَّقت به على مسكين، ودِينارٌ أنفَقتَه على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفَقتَه على أهلك))؛ رواه مسلم.

ثم إنَّ التدخين من المحرَّمات والخبائث؛ قال - تعالى :- (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) -المائدة: ١٠٠].

وهو أولاً :تبذيرٌ للمال من غير طائل، وثانيًا: ضرره على الصحَّة والبدن مدمِّر على المدى القصير والطويل، فهو يُشبِه الانتحار البطيء.

نعم؛ فهو - أي: التدخين - يتسبَّب في تسوُّس الأسنان، واصفرارها، واسودادها، ويتسبَّب في التهاب اللثَةِ، وتقرُّحات الفمِ واللسان، والربو، وضيق النَّفَس، والسُّعال، والبصاق، وضَعْف كَفاءةِ الرئة، وسُوء الهضم، وتليُّف الكَبِد، والسكتة الدماغيَّة، والذبحة الصدريَّة، وإصابة شرايين المخِّ بالتصلُّب، ويُسبِّب الغثيان، والإمساكَ المزمنَ، والصُّداعَ، والأرقَ،

والفشلَ الكُلويّ، وضَعْفَ السمع، وفُقدانَ حاسَّةِ الشم أو إضعافَها، وضعفَ الجهاز المناعي... إلخ.

وهذه الأمراض يحتاجُ الزوج للعلاج ممَّا قد يصيبه منها لكثير من المال، ولا ريب أنَّ مثل هذا الإسراف والتبذير من الرجل أو المرأة التي ربما تُدخِّن هي أيضًا!

ضرره في الدِّين والدنيا لا يُجادِل فيه إلا جاحدٌ فاسد القلب والعقل، وهو مصيبةٌ مُتعدِّدة النواحي والمصايب، وحسبنا الله ونعم الوكيل!

وما يُقال عن الإسراف في التدخين يُقال مثلُه عن الإسراف في الطعام والشراب وشراء الملابس... وهَلُمَّ جَرًّا.

الوصية الثانية: الرضا والقناعة:

القناعة والرضا أفضل علاج للإسراف والتبذير الذي ذكرناه أنفًا، ولكنَّ الصبر عليهما من الزوجين يحتاجُ لمشقَّة وجهد، ومَن يلتزم منهما بذلك فهو دليلٌ على حبِّه ومُراقبته لله - تعالى - وابتغاء مرضاته، والتزامه بالمنهج الشرعي الذي يأمُره بالزهد والتقشُّف، ولا يُحرّم عليه التمتُّع بالطيّبات من الرزق، ما دام لا يخرج به عن حدِّ الاعتدال غير المرغوب فيه.

كما قال - تعالى :- (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) -[القصص: ٧٧].

قال ابن كثير في تفسيره: "أي: استعمل ما وهبَكَ الله من هذا المال الجزيل والنِّعمة الطائلة، في طاعة ربِّك والتقرُّب إليه بأنواع القُربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخِرة، (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)؛ أي: ممَّا أباح الله فيها من المآكِل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح؛ فإنَّ لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، فآتِ كلَّ ذي حقّ حقَّه"؛ انظر: تفسير ابن كثير (٦/٢٥٣).

وقال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((قد أفلَحَ مَن أسلَمَ، ورُزق كفافًا، وقنَّعَه الله بما آتاه))؛ انظر: السلسلة الصحيحة؛ للألباني (١/١٢٩).

ولا ريب من واقع ما سمعتُ من الناس أنَّ أهمَّ الأسباب المؤدِّية للهموم والغموم التي تُصِيب كثيرًا من بيوت المسلمين هو عدمُ القناعة بما أعطاهم الله، والتفاخُر بينهم في الإنفاق بسَفهٍ؛ بغرَض التنافُس الممقوت والإسراف في المظاهر، واللجوء إلى الاستِدانة رغم قلَّة الإمكانيَّات الماليَّة عند البعض منهم؛ ممَّا يُؤدِّي إلى تَراكُم الديون التي تُثقِل كاهلهم، وتفسد أخلاقهم، وتدفَعهم إلى طريق الحرام دفعًا، أو على الأقلّ التقصير في حقّ الله - تعالى - ومعصيته، وكفى بهذا جهلاً وسفهًا.

ولو تأمَّلنا الواقع على مستوى الإنفاق المذموم لأفراد الأسرة متوسِّطة الدخل لتعجَّبْنا من كثْرة الاحتِفالات والولائم؛ سَواء في إقامة حَفلات الزواج لأبنائها في النوادي، أو احتفالاً بأعياد الميلاد، أو ما أشبه ذلك، وكلُّ ذلك يحتاجُ لِمَبالغ طائلة من أجل مَظاهر كاذبة ليستْ من الدِّين في شيءٍ.

الوصية الثالثة :مراقبة الله - تعالى:

يُخطِئ كلٌّ من الزوج وزوجه إنْ ظنَّ أحدهما قُدرته على خِداع الطرف الآخَر، لسببٍ من الأسباب التي تدفعه إلى ذلك؛ لأنَّه دومًا ما ينكشف الأمر ولو بعدَ حين، وهنا يترتَّب على آثار هذا الانكشافِ حاجزٌ نفسي يَصعُب هدمُه على المدى الطويل.

ومن ثَمَّ كانتْ هذه الوصيَّة بِمُراقبة الله لكلِّ من الزوج وزوجِه أمرًا في غاية الأهميَّة، وإهمالها سيُؤدِّي قطعًا لمشاكل جمَّة.

وكثيرٌ منها - أي: المشاكل التي تنشَأ من انعِدام الثقة بالطرَف الآخَر - سببها عدم الخوف من الله ومُراقبته.

قال - تعالى -: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) -غافر: ١٩].

قال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٩٦: "قوله - تعالى :- (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) -غافر: ١٩]، يُخبِر - عزَّ وجلَّ - عن علمه التامِّ المحيط بجميع الأشياء؛ جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله - تعالى - حقَّ الحياء، ويتَّقوه حقَّ تَقواه، ويُراقِبوه مراقبةَ مَن يعلم أنَّه يَراه، فإنَّه - عزَّ وجلَّ - يعلَم العين الخائنة وإنْ أبدتْ أمانة، ويعلم ما تنطَوي عليه خَبايا الصدور من الضمائر والسرائر"، اهـ.

•وفي السنَّة الحثُّ على مُراقبة الله؛ ففيما أخرجه مسلمٌ من حديث جبريل - عليه السلام - عن عمر بن الخطاب - رضِي الله عنه - قال: يا محمد، فأخبرني عن الإحسان، قال: ((أنْ تعبُد الله كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يَراك.((

•قال ابن القيّم في مدارج السالكين (٢/٦٥) بتصرف: المراقبة دَوام عِلم العبد وتيقُّنه باطِّلاع الحقّ - سبحانه وتعالى - على ظاهره وباطنه، فاستِدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرة عِلمه بأنَّ الله - سبحانه - رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، وهو مطَّلِعٌ على عمله كلَّ وقت وكلَّ لحظة، وكلَّ نفَس وكلَّ طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزلٍ عن حال أهل البِدايات، فكيف بحال المُريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

وقيل: مَن راقَبَ الله في خواطره، عصَمَه في حركات جوارحه.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثارُ ما أنزل الله، وتعظيم ما عظَّم الله، وتصغير ما صغَّر الله، اهـ.

ومن ثَمَّ ينبغي على الزوج وزوجه عدمُ خِداع كلٍّ منهما الآخَر؛ لأنَّ انعِدام الثقة بينهما سيترتَّب عليه هدْم عشِّ الزوجية.

الوصيَّة الرابعة :عدم التمادي في الغيرة وإظهارها:

الغيرة المعتدلة لكلٍّ من الزوجين بعضهما على بعض بلا إفراط أو تفريط أمرٌ محمود في الإسلام؛ ودليل ذلك قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((إنَّ الله يَغار، وإنَّ المؤمن يَغار، وغيرة الله أنْ يأتي المؤمن ما حرم عليه))؛ أخرجه البخاري في النكاح ح/٥٢٢٣.

•وعن أنسٍ قال: "كان النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمَّهات المؤمنين بصحفةٍ فيها طعامٌ، فضربت التي النبيُّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - في بيتها يدَ الخادم؛ فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: ((غارت أمُّكم))، ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفةٍ من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صَحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت"؛ أخرجه البخاري في النكاح ح/٥٢٢٥.

قال الحافظ بن حجر في شرح الحديث ما خُلاصته:
قوله ((غارت أمكم)) الخطاب لِمَن حضر، والمراد بالأم هي التي كسرت الصحفة، وهي من أمَّهات المؤمنين... ثم قال: وعلى هذا حمَلَه جميع من شرح هذا الحديث، وقالوا: فيه إشارةٌ إلى عدم مُؤاخَذة الغَيْراء بما يصدُر منها؛ لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا بشدَّة الغضب الذي أثارَتْه الغيرة، اهـ.

•وقال العلامة ابن القيّم - رحمه الله - في الفوائد (١/١٤١): ... والغيرة لها حدٌّ إذا جاوزَتْه صارت تهمة وظنًّا سيئًا بالبريء، وإن قصرت عنه كانت تغافُلاً ومبادئ دِياثة، وللتواضُع حدٌّ إذا جاوَزَه كان ذلاًّ ومَهانة، ومَن قصر عنه انحرَفَ إلى الكبر والفخر، وللعزّ حدٌّ إذا جاوَزَه كان كبرًا وخلقًا مذمومًا، وإنْ قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

وضابط هذا كله العدل؛ وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخِرة، اهـ.

ومن ثَمَّ يجب أنْ يدرك كلٌّ من الزوجين أنَّ الغيرة المعتدلة المحمودة مطلوبةٌ؛ لأنها دليل المحبة، ولو كان فيها نوع من التصرُّف المرفوض

فهو مَعفِيٌّ عنه؛ لعدم القصد في الأذى، ولكن إنْ خرجت عن حدِّ الاعتدال إلى التشكيك والاتهام، وربما التجسُّس على الطرف الآخَر فهي غيرة مذمومة ومرفوضة؛ لأنها تُعكِّر صفوَ الحياة الزوجية حتمًا.

الوصية الخامسة :التكتُّم على الأسرار الزوجيَّة:

كثيرٌ من الرجال والنساء المتزوجين يُهمِلون مثل هذه الوصيَّة العظيمة، فالبيوت والأبواب إنما كانت لستر عورات الناس، واحتِفاظهم بخصوصياتهم التي لا يطَّلع عليها أحدٌ غيرهم.

فلو كانت حَياتهم بما فيها من خُصوصيَّات يمنعهم الحياء والخلق الحسن من كشْفها إلا في بيوتهم حيث يمارس كلٌّ من الزوج وزوجه حريَّته على طبيعته وفطرته دون تصنُّع، فمن البدهي أنَّ معرفة الأهل والأصدقاء بهذه الخصوصيَّات من الزوج أو الزوجة سيُؤدِّي إلى الصدام بينهما والحقد والكراهية وفقدان الثقة والغيرة المحمودة إلى النقيض تمامًا.

وبالتبعة يُؤدِّي ذلك إلى الفشل في العلاقات الزوجيَّة، فتنتهي بالطلاق أو الخلع، وهو النهاية المتوقَّعة للجهل بمثْل هذه الأمور.

ولعلَّ من أشدِّ الأسرار والخصوصيَّات التي ينبَغِي عدم إفشائها مهما كانت حدَّة الخلاف أسرارَ المعاشرة بينهما على الفراش؛ لأنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - حذَّر من ذلك فقال: ((إنَّ من شِرار الناس عند الله منزلةً يوم القيامة الرجلَ؛ يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشرُ أحدهما سرَّ صاحبه))؛ أخرجه مسلم في النكاح ح/١٤٣٧، وأبو داود في الأدب ح/٤٨٧٠.

قال النووي في شرح الحديث ما مختصره:

وفي هذا الحديث تحريمُ إفشاء الرجل ما يجري بينه بين امرأته من أمور الاستمتاع، ووصف تفاصيل ذلك، وما يجري من المرأة فيه من قول أو فعل ونحوه، فأمَّا مجرَّد ذكر الجماع، فإنْ لم تكن فيه فائدةٌ ولا إليه حاجةٌ فمكروهٌ؛ لأنَّه خِلاف المروءة.

وإنْ كان إليه حاجة أو ترتَّب عليه فائدة بأنْ يُنكِر عليه إعراضه عنها، أو تدَّعي عليه العجز عن الجماع، أو نحو ذلك فلا كراهة في ذكره؛ كما قال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((إني لَأفعَلُه أنا وهذه))، وقال - صلَّى الله عليه وسلَّم - لأبي طلحة: ((أعرستم الليلة؟))، والله أعلم، اهـ.

ومن ثَمَّ ينبغي الحذر من إفشاء أسرار الفِراش بصفة خاصَّة، والأسرار الزوجية بصفة عامَّة؛ لأنَّه يؤدِّي إلى القيل والقال، وتلويث السمعة وتدخُّل الناس بلا داعي، وهو أمرٌ يمقته الطبع السليم والشرع المطهَّر.

الوصية السادسة :الحذر من فتور المحبة بين الزوجين:

لو سألت أيَّ زوجين بعد زواج دام عشر سنوات مثلاً عن شُعور كلّ منهما نحو الطرَف الأخربعد هذه المدة الطويلة، وهل هو نفس الشعور خلال فترة الخطوبة وبداية الزواج؟!

الجواب قطعًا: لا.

والسبب في ذلك فُتور المحبَّة.

وسببها الانشغالُ الدائم في العمل، وفي رعاية الأولاد، وعدم الانفِراد العاطفي بينهما خارج البيت، أو حتى داخله، وبث ما في القلب، وإهمال المناسبات السعيدة بينهما، وإهمال التزيُّن والتجمُّل، وغير ذلك.

وبدل الشعور بالحبِّ نجدُ الرحمة والشفقة هي التي تُغلِّف تصرُّفات كلِّ من الزوج وزوجه.

ولكنَّ الرحمة والشفقة والإحساس بالأمان مع شريك الحياة قد لا يصمد أمامَ الفتن التي زادَتْ، والاختلاط بين الجنسيين بلا رادِع من دِين أو حَياء الذي عمَّ أرجاء الحياة المعاصرة.

والذي من أعظم أسبابه تبرُّج المرأة وابتذالها، وهي من أخطر الفتن على الإطلاق والذي انتشر انتشارَ النار في الهشيم، وغير ذلك من الفتن.

كلُّ هذا جعل كلاًّ من الزوج أو زوجه بحاجةٍ إلى شعور عاطفي قوي يربطه بشَريكه حتى لا يَنهار أحدهما، ويغرق مع تيَّار لم يتعوَّد على ردِّه وصدِّه.

ومن ثَمّ ينبغي للزوجين إحياء رُوح الشباب، وعودة الترابُط العاطفي بينهما؛ لتستمرَّ الحياة الزوجيَّة ترتوي من ينبوع هذا الترابُط، وترتَقِي إلى أعلى درجات السموّ الروحي والعاطفي بعيدًا عن رياح التجديد والفتن التي فترت علاقتهما القلبيّة بكثرة الهموم والغموم!

ولذلك أنصَحُ كلاًّ من الزوج وزوجه بأمرَيْن على الأقل:
الأمر الأول: أن يتزيَّن ويتجَمَّل كل منهما للآخَر:
إنَّ ممَّا يُسعِد قلب الزوج أنْ يَعُود فيجد زوجته في أبهى صورة وأطيب ريح مرحبةً به، وبكلماتٍ طيّبة مُشجِّعة تنسيه همومَه ومشاكله في يومه هذا وهو بين يديها.

فكثيرٌ من المشاكل تنشأ لإهمال الزوجة هذا الجانب الحيوي تحت عنوان راح الشباب وانقضى!

لا أيَّتها الزوجة المحبّة، إنَّ الحياة الزوجيَّة واستمرارها تحتاجُ إلى تضحيات وإنكار ذات، ولك أنْ تتصوَّري زوجك المسكين الذي ما زال ينبض قلبُه ويتعطَّش للمسة حَنان منك لا يجد منك كلَّما عاد إلى بيته إلاَّ الإهمال والتجاهُل، ووجدك رثَّة الثياب، مشغولة دائمًا في أعمال المطبخ والغسيل وفض مشاجرات الأولاد.

وهو الذي تقَعُ عينه بقصدٍ أو بدُونه على زميلاته في العمل أو المتبرّجات من النساء التي تسلب لبَّه فيبدأ المقارنة بينك وبينهن!

وكُوني على يقين أنَّ كفَّتهن أرجح وأخطر، وإنْ كان زوجك يخاف الله ويغضُّ بصره، ولا يخونك ويخاف من الحرام، فهذا أمرٌ يُحسَب له لا لك.

لكن ما يكبته في قلبه وتعطُّشه للغذاء العاطفي الذي يَرويه ولا يجده منك، سيجعله حتمًا يخرج عن صَمته كردّ فعلٍ لإهمالك إياه.

وربما يغضَب لأسباب تافهة، أو يتلفَّظ بالطلاق بمناسبةٍ وغير مناسبة.

أنت طالق إنْ خرجت، أنت طالق إن ذهبت لفلان، أنت عليّ حرام... وهكذا.

ويبدأ من جهتك الشكُّ في تصرُّفاته، ويلعَب الشيطان لعبته في إيقاد نار الشك في هذا التغيير، ويُوَسوس لك بوجود امرأةٍ أخري!

وتبدأ المشاجرات مَن هي؟ ومتى وأين عرفتها؟!
وما أغناك عن كلِّ ذلك بأنْ تهتمّي بنفسك قليلاً؛ فإنَّ لزوجك عليك حقًّا، فليكن بيتك جنَّتك ومصدر سَعادتك، كُوني أمامَه في أجمل صورة وأطيب ريح، وسوف ترَيْن العجب!

يقول الإمام السيوطي في كتابه" الإيضاح في علم النكاح :"إنَّ الفُقهاء أكثروا من نُصح النساء باستكمال زينتهنَّ داخل المنازل؛ وذلك بتسريح الشعر وتزيينه، والتطيُّب بالطيب أمام الزوج ليطيب قلبه، اهـ.

وعلى الزوج أيضًا ألا يُهمِل هذا الجانب؛ فالزوجة يسعدها أنْ تجد زوجَها في صورة ورائحة طيّبة، وفي الخبر المشهور أنَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم - "كان لا يُفارقه المشط والمدرى والمرآة في سفر ولا حضر."

وهي سنَّة العرب، وهو - صلَّى الله عليه وسلَّم - قد أمرنا بسنن الفطرة التي فيها النظافة العامَّة كما في حديث أنس - رضي الله عنه - قال: "وقَّت لنا النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - في قصِّ الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، ألا يترك أكثر من أربعين ليلة))؛ أخرجه مسلم في الطهارة (٢٥٨)، والترمذي في الأدب (٢٧٥٨).

وعلى الزوج أنْ يُدرك أنَّ زوجته مثله تمامًا، وله في ابن عباسٍ - رضي الله عنهما - قدوةٌ؛ فقد رُوي أنَّه قال: إنِّي لأتزيَّن لزوجتي كما تتزيَّن لي، وما أحبُّ أنْ أستنظِف كلَّ حقي الذي لي عليها فتستوجب حقَّها الذي لها عليّ؛ لأنَّ الله - تعالى - قال :(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) -البقرة: ٢٢٨].

وقال ابن الجوزي - في صيد الخاطر (٢٠١/١) - ما مختصره: فينبغي للعاقل أنْ يكون له وقتٌ معلوم يأمُر زوجته بالتصنُّع له فيه، ثم يغمض عن التفتيش ليطيب له عيشه، وينبغي لها أنْ تتفقَّد من نفسها هذا، فلا تحضره إلا على أحسن حال، وبمثل هذا يَدُوم العيش.

فأمَّا إذا حصَلت البذلة بانتْ بها العيوب، فنبت النفس وطلبت الاستبدال، ثم يقع في الثانية مثل ما وقع في الأولى، وكذلك ينبغي أنْ يتصنَّع لها كتصنُّعها له؛ ليدوم الود بحسن الائتلاف، ومتى لم يجر الأمر على هذا في حق مَن له أنفة من شيءٍ تنبو عنه النفس، وقع في أحد أمرين: إمَّا الإعراض عنها، وإمَّا الاستبدال بها.

ويحتاج في حالة الإعراض إلى صبر عن أغراضه، وفي حالة الاستبدال إلى فضل مُؤنة، وكلاهما يُؤذِي، ومتى لم يستعمل ما وصَفْنا لم يطبْ له عيشٌ في متعة، ولم يقدر على دفْع الزمان كما ينبغي، اهـ، انظر: صيد الخاطر؛ لابن الجوزي، فصل دوام الود بحسن الائتلاف.

الأمر الثاني: فتح جسر بينهما للتفاهُم والتشاوُر:

الحاجز النفسي الذي أوجده إهمالُ كلٍّ منهما للآخَر بسبب كثْرة مشاكل الأولاد وتربيتهم ورعايتهم، والهموم والغموم التي تُحِيط بالأسرة، ومُرور الأعوام وفتور العاطفة... إلخ.

لا بُدَّ لهذا الحاجز من هَدمِه وبناء جسر من التفاهُم والانسجام بينهما قوامُه رعاية كلٍّ منهما لحقوق الآخَر؛ حتى يكون التآلُف والتآزُر بينهما قائمًا على أساس المعروف، لا على أساس الهوى والنزوة.

فلا يُهمِل الزوج حُقوقَ زوجته لمجرَّد خطَأ منها أو شيء يكرهه فيها، وكذلك لا تهمل الزوجة حُقوق زوجها لبخلٍ منه، أو أذى بدر منه؛ لسوء فهم، أو سرعة غضب، أو غير ذلك.

نعم؛ ينبغي لكلٍّ من الزوجين التجاوُز عن أيِّ هفوةٍ أو زلَّةٍ من الطَّرَفِ الآخَر، ولا يطلب من شريكه أنْ يكون مثاليًّا خاليًا من العيوب؛ ولهذا أوصى النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - الرجل بتجاوُز بعض الهفوات من

الزوجة لضعفها؛ فقال: ((لا يَفرَك مؤمنٌ مؤمنةً، إنْ كَرِهَ منها خلقًا رَضِيَ منها آخَر - أو قال: غيره))؛ أخرجه مسلم في الرضاع ح/١٤٦٩.

قال النووي في شرح الحديث: قوله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((لا يَفرَك مؤمنٌ مؤمنةً، إنْ كَرِهَ منها خلقًا رَضِيَ منها آخَر - أو قال: غيره))؛ يَفرَك: بفتح الياء والراء وإسكان الفاء بينهما، قال أهل اللغة: فركه بكسر الراء يفرَكه إذا أبغضه، (والفَرْك) بفتح الفاء وإسكان الراء: البُغض.

ثم قال - رحمه الله -: أي: ينبغي ألاَّ يبغضها؛ لأنَّه إنْ وجد فيها خلقًا يُكرَه وجد فيها خلقًا مرضيًّا، بأنْ تكون شرسةَ الخلق، لكنها ديّنة، أو جميلة، أو عفيفة، أو رفيقة به، أو نحو ذلك، اهـ.

وأوصى أيضًا بغضِّ النظر عن هَفوات الزوج وابتغاء مرضاته؛ فقال - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((ألا أُخبِركم برجالكم من أهل الجنَّة؟ النبيُّ في الجنَّة، والصديق في الجنَّة، والشهيد في الجنَّة، والمولود في الجنَّة، والرجل يزُورُ أخاه في ناحية المصر لا يزورُه إلا لله - عزَّ وجلَّ - ونساؤكم من أهل الجنَّة: الودود الولود العؤود على زوجها؛ التي إذا غضبتَ جاءتْ حتى تضع يدها في يد زوجها وتقول: لا أذوقُ غمضًا حتى تَرضَى.((

ونكتَفِي هنا بما ذكرناه من وَصايا لحلِّ مشاكل الزواج، والله من وراء القصد، وهو يَهدِي السبيل.

١٩

عضل البنات بين الدين والعادات

الحمدُ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتدي ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، أمَّا بعد:
العَلاقةُ بين الرجلِ والمرأة وما طبع الله - تعالى - في كلٍّ منهما من صفاتٍ وخصائصَ - تبيّنُ أنَّه لا غنًى للرَّجلِ عن المرأةِ، ولا غنًى للمرأةِ عن الرجلِ؛ لأنَّ كلاًّ منهما يكملُ الآخر؛ ولذلك كان الزَّواجُ فطرةً طبيعية فطرَ ٱللَّه - تعالى - الإنسانَ عليها، وأنَّ الإعراضَ عنه مع توفُّرِ شروطِه ومتطلباتِه الشَّرعية تنطعٌ في الدِّين وتزمُّت مذموم.

وتسويفُ زواجِ المرأة سواء كانتْ مطلقةً أو بكرًا مما لا أصلَ له في الشريعةِ، فهذا هو العَضْلُ وهو يعدُّ من أخطرِ مظاهر انتهاكِ حقوقِ المرأة في عالمنا المعاصر، وهو للأسفِ الشَّديدِ منتشرٌ في مجتمعاتِنا الإسلامية، وله صورٌ متعدِّدة؛ مثل؛ رفض زواجِها من رجلٍ لا يُعاب عليه في دينِه أو خلقِه، أو إجبارها وبغير رضاها على الزَّواجِ من رجلٍ في عمرِ أبيها لا تريدُه زوجًا لها، أو حجزها لقريبٍ لها من العائلةِ أو القبيلة لهوى نفسٍ، ولو كان لا خُلقَ له ولا دين، أو للاستفادةِ من مالِها إن كانت تعملُ أو لها إرثٌ من زوجٍ مُتوفى أو ما أشبهه، كلُّ هذه الصورِ من العضلِ الذي نهى الله عنه في قولِه - تعالى -: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) -النساء : ١٩]

ضرر العضل على البنات:
الدِّين ينهى عن هذا العملِ المشين؛ لأنَّه - أي الدين - لا يهينُ المرأةَ، بل يكرمُها في جميعِ أطوار حياتِها؛ أمًّا وزوجةً وأختًا وابنة، والنبي - صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((لا ضَرَرَ ولا ضِرَار))؛ حديث حسنٌ رَواهُ ابنُ ماجَه.

وقال ابنُ العثيمين - رحمه الله - في شرحِ الأربعين النووية مختصرًا: "الحديثُ أصلٌ عظيم في أبواب كثيرة، ولا سيما في المعاملات: كالبيعِ والشِّراء والرَّهنِ والارتهان، وكذلك في الأنكحةِ، يضارُّ الرجلُ زوجتَه أو هي تضار زوجَها، وكذلك في الوصايا يوصي الرجلُ وصيةً يضرُّ بها الورثةَ.
فالقاعدةُ: متى ثبت الضَّررُ وجب رفعُه، ومتى ثبتَ الإضرارُ وجب رفعُه مع عقوبةِ قاصدِ الإضرار". اهـ.

ولا ريبَ أنَّ العضْلَ من أعظمِ الأضرار للمرأةِ على الإطلاقِ كما لا يخفى، وعدمُ تزويجِ البنتِ بلا مبررٍ شرعي له آثارٌ سيئة، وعلماء الصِّحةِ النفسية وأهلُ الاختصاصِ أجمعوا على أنَّ "عضل البنات" انتهاكٌ لحقوقهنَّ، وقد يؤدِّي هذا إلى إصابتهنَّ بالاضطراباتِ النفسية والاكتئاب، والقلقِ والعزلة، وربَّما ينتهي الأمرُ بالانتحار!!

وأنا ككاتبٍ وداعيةٍ أرى أنَّ من أخطرِ آثارِ هذه المشكلة: عقوق الوالدين، وجحود فضلِهما، وربَّما ضياع شرفِ البنت وكرامتِها؛ لأنَّها قد ترضى بمن يتقدَّمُ لها لخلقٍ أو دين أو غير ذلك مع قدرتِه على الزَّواج ومؤنته، فيرفض وليُّ أمرِها دومًا لأسبابٍ غيرِ شرعية؛ مثل:
- قوله: ما زالتْ ابنتُنا صغيرةً على الزَّواج.
- وقوله: لا بدَّ من تكميل تعليمِها أولاً.
- وقوله: نريدُ رجلاً بمواصفاتٍ خاصة.

وما أشبه ذلك، فهذه المعاذيرُ قد تَدْخلُ في العضْلِ الممقوت شرعًا - هذا من جِهةِ الولي - ومن جهةِ البنت يدعوها الشَّيطانُ ورفيقات السوءِ ممن تختلط بهن إلى العقوق، وربَّما الهرب للزَّواجِ من خلفِ عيونِ الأهل، ولعلَّكم سمعتُم في مصر عن زواجِ الدَّمِ والكاسيت والهبة، والزَّواج العرفي الزَّائف الذي لا تتوفَّرُ فيه أركانُ الزواج الشرعي، والذي

يتمُّ من خلفِ عيون أولياءِ المرأة، مع شبابٍ طائشٍ لا يعرفُ من الدِّين إلا اسمَه، ومن الإسلام إلا رسمَه،ولا ريب أنَّ كلَّ صورٍ وأنواع هذا الزَّواج (المودرن) الذي أحدثه الشَّبابُ لإشباعِ الغريزة الجنسية - ما هو إلا زنا!

وعندما يفرُّ الجاني بفعلتِه، أو يلفظها هربًا من تبعاتِ هذا الزَّواج المحرَّم، بعد أن ذاق عسيلتَها وانتفخت بطنُها، يتبرأ منها الأهلُ والأصدقاء وظُنَّ شرًّا ولا تسأل عن الخير!

وكثيرٌ من النَّاس - إلا من رحم ربي - عن أمرِ الدِّين وسماحتِه ويسرِه في جهلٍ وغفلة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كلمةٌ ونصيحة لأولياء الأمور:

أقولُ لأولياءِ هذا العصر؛ عصر التبرُّجِ والانفتاح على العالم؛ عصرِ الفِتَن والاختلاط والمساواة؛ عصرٍ صار فيه الحديثُ عن الحقّ والدِّفاع عن الدِّين تنطعًا وتشدُّدًا وغلوًّا، وطغتِ العاداتُ والتقاليد والبدع على تعاليمِ الكتاب والسنة، أقول لهم: إنَّ الزواجَ نعمةٌ من الله - تعالى - وتأجيله بالنسبةِ للبنت بلا مبررٍ شرعي عَضْلٌ ممقوت، ودعوةٌ لفتنةِ فتياتكنَّ وهلاكهنَّ، فلا تكونوا من أهلِ الغفلة والهوى وعمى البصَر والبصيرة.

ونصيحتي لهم إن كانوا مسلمين حقًّا: لكم في رسول - الله صلَّى الله عليه وسلَّم - أسوةٌ حسنة، فقد ثبت قولُه في الحديثِ ناصحًا النِّساءَ وأولياءَ أمورهنَّ: ((إذا أتاكم من ترضون دينَه وخلقَه فزوِّجوه، إلاَّ تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ عريض))؛ حسنه الألباني في: "الإرواء": (ح/١٨٦٨).

وقد أفلحَ من تزكَّى وأطاع منكم، والله من وراءِ القصدِ وهو يهدي السبيل.

٢٠

مفهوم الاستقامة والواقع المعاصر

إنَّ الحمدَ لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد:
ففي العصر الحديث في القرن الواحد والعشرين ابتعد كثيرٌ من العباد عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، ومن الحياء من المعصيةِ والنَّدم على ما فات إلى الجرأة على الذنب والتمادي فيه، وعلى الإنسان فقط أن يلتمسَ البدايةَ الصحيحة إن أراد بلوغَ الطريق إلى الله، وقطعًا إن أخلَصَ النيةَ والعمل معًا سوف يصل لمأربِه؛ من شوق للطاعة وزهد في المعصية، ولا يكفي قولُ البعضِ من المتواكلين: تُبْنا إلى الله واستقمنا، وينتهي الأمرُ عند هذا الحدّ!! كلاَّ، فهذا قصورٌ شديد في فهمِ المقصود من معنى الاستقامة التي هي بدايةُ الطريق إلى الله - تعالى - وقد يقول البعضُ مستفسرًا: كيف نستقيمُ ونحن نجهل واقعَنا؟ ماذا يحدثُ لنا عند أولِ الغيث؛ عند وقوع النَّفس أمام اختبار حقيقي، يغريها الهوى والشَّيطانُ الذي لن يدعَها تمضي في سلامٍ وأمان؟
أقول: ينبغي أنْ يدركَ المرءُ أنَّ هناك خطوةً هامَّة إن أردنا العودةَ لله على أرضيةٍ ثابتة ويقين لا يتزعزع، ألآ وهي فهم الواقع المعاصر من منظور الإسلام، بلا إفراطٍ أو تفريط، والتكيف معه واتباع خطةٍ، أو قلْ: ورقة عملٍ واضحة لا نحيدُ عنها أبدًا.

بدايةُ الاستقامة إدراكُ الواقع:
وتلك حقيقةٌ بدهية، فلن يستقيمَ المرءُ لمجرد ومضاتٍ إيمانية، وخشية لا تستندُ على أساس متين، بمعنى أنَّه ينوي إهمالَ كلِّ المؤثِّراتِ والسلبيات - مثل رفقاء السُّوء ومخالطته لهم - وإدمانه للمُسكِرات - أو ما أشبه هذا - التي أبعدتْه عن طريق اللّه - تعالى - ردحًا من الزمن، ثم يريدُ أن يستقيمَ بغتة ضاربًا عرض الحائطِ بكلِّ مخاطرها التي تحيطُ به، غيرَ عابئ بخطورتِها في إغرائِه على العودةِ للمعصيةِ مرةً أخرى عند أول هفوةٍ، عندما يجدُ نفسَه في مُواجهةٍ مباشرة مع سلبياتِ هذه المؤثرات التي طُبعَ عليها، وتمنعُه من التقدمِ خطوةً إيجابية صحيحة على أسسٍ متينة تصمد معها نفسُه بعزيمةٍ لا تلينُ، ومتوكلاً على ربِّه واثقًا في قدرتِه على تجاوزها، فهذا لا توصفُ استقامتُه بالحكمةِ، بل بالتسرع والرُّعونةِ، وأولى به أن يتروّى، ليس في توبتِه من المعصية فورًا، كلاَّ وألف كلاَّ، وإنَّما من تركِ المؤثراتِ التي أبعدتْه عن طريق اللّه - تعالى - كلَّ هذا الزمن الطَّويلِ، وعلاج سلبياتِها بكلِّ حكمةٍ بعدما استشعرَ حلاوةَ الإيمان، وعليه أن يثقَ في قدرتِه وإرادتِه على تركِ أسبابها بالكُلِّيةِ وبترها، ومن ثَمَّ يجبُ عليه أمران مهمَّان هما:
خلاصةُ ما ذكرناه آنفًا:
الأمر الأول :أنْ يخلصَ النيةَ للّه، ويبدأ بتركِ المؤثِّراتِ، وترويض النفس بالبديلِ الحلالِ فترةً من الزمن، فلو كانت المعصيةُ إدمانه للمخدِّراتِ وأراد الاستقامةَ فليقلع عنها فورًا، ولكن لا يهملُ علاجَ نفسِه، ويأخذ بأسبابِ ذلك ولا يتواكل على اللّه، بل يتوكَّلُ عليه ويأخذ بأسبابِ النَّجاةِ، ونقول نفسَ الكلامِ في غير ذلك من المعاصي.
الأمر الثاني :أن يروّضَ نفسَه على الطَّاعةِ في البيئةِ التي يعيشُ فيها، ولا ييئس من رحمةِ اللّه أبدًا، وتلك واللّه وسيلةٌ لا يدركُها إلا مَنْ أنار اُللّه بصيرتَه، ولا يقدرُ على القيامِ بها إلا أصحاب عزيمةٍ لا تلينُ أمام الصّعاب.
فليس استقامةُ المرء مع الانطواءِ والانعزالِ عن دنيا النَّاس هو الصَّواب، بل فهم خاطئ وبلاء عظيم، فلا تنفكُّ حياةُ المرءِ عن واقعِه بأيِّ حالٍ من الأحوال، وبنظرة إلى الواقع الذي نعيشُ فيه هذه الأيام لا نملكُ إلاَّ أن نقولَ: لا حولَ ولا قوة إلا باللّه، وإنَّا للّه وإنا إليه راجعون.

الواقع المر ومسلمون بلا هُوية:
ففي القرن الواحد والعشرين أصبحَ الدّينُ عند الكثير منّا - إلاّ من رحم ربي - مجرد طقوسٍ وشعائرَ بين العبدِ وربّه، لا دخلَ له في الدُّنيا، والواقعُ المرُّ الذي نعيشُه يجعلنا نسأل:
- كيف يزني المسلمُ وهو يشهدُ أن لا إله إلا اللّه، وأن محمَّدًا رسولُ اللّه،كيف؟
- كيف يسرقُ ويرتشي وهو دائم الصّلاةِ على النبي - صلَّى اللّه عليه وسلّم - كيف؟
- كيف يشربُ الخمرَ ويتعاملُ بالرّبا وفي يدِه مسبحة، ولا يفتر لسانُه عن ذكر اللّه - تعالى - كيف؟

وفي المقابلِ كم مسلمٌ بيننا قد أعفى لحيتَه؛ لأنَّ النبي أمرَ بها ويأثم بحلقِها، كم؟
- كم مسلم بيننا يقوم الليلَ، ويتصدَّقُ ويُخرجُ من مرتَّبِه بانتظامٍ شيئًا للّه تعالى، كم؟
- كم مسلم بيننا يحافظُ على الصلواتِ الخمس جماعةً في المساجد،كم؟

أيُّ دين يدين به هؤلاء الغافلون عن الدّين، الغارقون في ملذاتِ الدُّنيا وزينتها حتّى الثمالة، فيصبحون هلكى وصرعى في دروبِها الشائكة، لا همَّ لهم إلا إرضاء شهواتِهم؟
فإذا كان الدّينُ عند أمثالِ هؤلاء النَّاس مجرَّدَ طقوسٍ، فلن تتغيرَ حياتُهم أبدًا، لماذا؟
لأنَّه تعالى يقول :(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) -الرعد : ١١]،
لهذا كلِّه لا انعزالَ عن الواقع إن أردنا الاستقامةَ على طريق اللّه ما بقي لنا من عمر في هذه الدنيا، ولا يأسَ من رحمةِ اللّه أبدًا، ولا بدَّ بعد ظلمةِ الليل من بزوغ الفجر، وبعد العُسر يسرٌ، قال ابنُ القيم في "طريق الهجرتين (1/ 71) "ما مختصره: "كمالُ صلاح النَّفسِ غناها بالاستقامةِ من جميع الوجوه، وبلوغُها إلى درجةِ الطَّمأنينة لا يكونُ إلا بعد صلاح القلب، وصلاحُ النَّفسِ متقدّمٌ على إصلاحِها، هكذا قيل وفيه ما فيه؛ لأنَّ صلاحَ كلِّ واحدٍ منهما مقارن لصلاحِ الآخر، ولكن لَمَّا كان القلبُ هو

الملك وكان صلاحُه صلاحَ جميع رعيتِه - كان أولى بالتقديم، وقد قال النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحتْ صلح لها سائرُ الجسد، وإذا فسدتْ فسدَ لها سائرُ الجسدِ؛ إلاّ وهي القلب))"، ثم قال: "وأن تكونَ هذه الاستقامةُ على الفعلِ والتَّركِ تعظيمًا لله - سبحانه - وأمره، وإيمانًا به، واحتسابًا لثوابِه، وخشيةً من عقابِه، لا طلبًا لتعظيمِ المخلوقين له ومدحِهم، وهربًا من ذمِّهم وازدرائهم، وطلبًا للجاهِ والمنزلة عندهم، فإنَّ هذا دليلٌ على غايةِ الفقر من الله والبعد عنه، وأنَّه أفقر شيء إلى المخلوق فسلامةُ النفسِ من ذلك واتصافها بضدِّه دليلُ غناها؛ لأنَّها إذا أذعنتْ منقادة لأمر الله طوعًا واختيارًا، ومحبةً وإيمانًا واحتسابًا، بحيث تصيرُ لذتُها وراحتُها ونعيمها وسرورها في القيامِ بعبوديتِه كما كان النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((يا بلالُ أرحنا بالصَّلاة))؛ صحيح سنن أبي داود للألباني (ح/ ٤٩٨٦)، وقال: ((حُبِّبَ إلي من دنياكم النِّساءُ والطِّيب، وجُعِلتْ قرةُ عيني في الصَّلاة))؛ صحيح الجامع (ح/ ٣١٢٤)، فقرةُ العين فوق المحبة، فجعل النِّساءَ والطِّيبَ مما يحبُّه، وأخبر أنَّ قرة العين التي يطمئن القلبُ بالوصولِ إليها، ومحض لذتِه وفرحه وسروره وبهجته - إنَّما هو في الصَّلاةِ التي هي صلةُ الله وحضورٌ بين يديه، ومناجاةٌ له، وقرب منه، فكيف لا تكونُ قرَّة العين، وكيف تقرُّ عينُ المحبِّ بسواها؟ فإذا حصل للنَّفسِ هذا الحظُّ الجليل فأيُّ فقر يخشى، وأيُّ غنًى فاتها حتى تلتفتَ إليه؟ ولا يحصلُ لها هذا حتَّى ينقلبَ طبعُها ويصيرَ مجانسًا لطبيعةِ القلب، فتصير بذلك مطمئنةً بعد أن كانتْ لوامةً، وإنَّما تصيرُ مطمئنة بعد تبدل صفاتِها وانقلاب طبعِها؛ لاستغناء القلبِ بما وصل إليه من نور الحقّ - سبحانه - فجرى أثرُ ذلك النُّور في سمعِه، ونثره وشعره، وبشَره وعظمه، ولحمِه ودمه وسائر مفاصله، وأحاط بجهاتِه؛ من فوقِه وتحته، ويمينِه ويساره، وخلفِه وأمامه، وصارت ذاتُه نورًا، وصار عملُه نورًا وقولُه نورًا، ومدخلُه نورًا ومخرجُه نورًا، وكان في مبعثِه ممن انبهر له نوره فقطع به الجسر، وإذا وصلت النَّفسُ إلى هذه الحالِ استغنت بها عن التطاولِ إلى الشهواتِ، التي توجِبُ اقتحامَ الحدودِ المسخوطة، والتقاعدَ عن الأمور المطلوبة المرغوبة، فإنَّ فقرَها إلى الشَّهواتِ هو الموجِبُ لها التقاعد عن المرغوبِ المطلوب، وأيضًا فتقاعدُها عن المطلوبِ بينهما موجب لفقرها إلى الشَّهواتِ، فكلٌّ منهما موجبٌ للآخرِ، وترك الأوامرِ أقوى لها من افتقارِها إلى الشَّهواتِ، فإنَّه بحسب

قيامِ العبد بالأمر تدفعُ عنه جيوش الشَّهوةِ كما قال - تعالى :- (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) -العنكبوت : ٤٥]"، ثم قال - رحمه الله -: "وإذا صارتِ النَّفسُ حرةً طيبة مطمئنة غنية بما أغناها به مالكُها وفاطرُها من النُّور الذي وقع في القلبِ، ففاض منه إليها - استقامتْ بذلك الغنى على الأمر الموهوب، وسلمتْ به عن الأمر المسخوط، وبرئتْ من المراءاةِ، ومدارُ ذلك كلِّه على الاستقامةِ باطنًا وظاهرًا، ولهذا كان الدِّينُ كلُّه في قولِه - تعالى :- (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) -هود : ١١٢]، وقال - سبحانه :- (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) -الأحقاف : ١٣]".اهـ.

مفهوم الاستقامة:

سيكونُ مدخلُنا في ذلك هذه الكريمة من كتابِ الله - تعالى - لفهمِ وإدراكِ المعنى العظيمِ لمفهوم الاستقامة، قال - تعالى :- (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) -فصلت : ٣٠]؛ قال القرطبي في تفسيره ما مختصره: "قوله - تعالى :- (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ...) قال عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: نزلت هذه الآيةُ في أبي بكر الصِّديق - رضي الله عنه - وذلك أنَّ المشركين قالوا: ربنا ٱللّه والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤُنا عند اِللّه، فلم يستقيموا... وعلى معنى (اسْتَقَامُوا) ففي صحيح مسلمٍ؛ عن سفيانَ بن عبدالله الثقفي، قال: "قلت: يا رسولَ اِللّه، قُلْ لي في الإسلامِ قولاً لا أسألُ عنه أحدًا بعدك، وفي رواية: (غيرك)، قال: ((قل آمنتُ باللّه ثُمَّ استقم))"، زاد الترمذيُّ: قلتُ : "يا رسولَ الله، ما أخوف ما تخافُ علي؟ فأخذ بلسان نفسِه، وقال: ((هذا))"، وروي عن أبي بكر الصِّديق - رضي الله عنه - أنه قال" :(ثُمَّ اسْتَقَامُوا ...)؛ لم يشركوا باللّه شيئًا"، وروى عنه الأسودُ بن هلالٍ أنَّه قال لأصحابِه: "ما تقولون في هاتين الآيتين :(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ...)، و :(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ...) -الأنعام : ٨٢]؟"، فقالوا: استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسُوا إيمانَهم بخطيئةٍ، فقال أبو بكر: "لقد حملتموها على غير المحمَلِ ثم قال :(قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)، فلم يلتفتوا إلى إلهٍ غيره"، ورُوي عن عمرَ - رضي الله عنه - أنَّه قال على المنبر وهو يخطب" :(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ...)، فقال: استقاموا واللّه على الطَّريقةِ لطاعتِه، ثم لم

يروغوا روغانَ الثَّعالبِ"، وقال عثمان - رضي الله عنه" :- ثم أخلصوا العملَ لله"، وقال علي - رضي الله عنه" :- ثم أدُّوا الفرائضَ"، وأقوال التابعين بمعناها، قال القرطبي: "وهذه الأقوالُ وإن تداخلتْ فتلخيصُها: اعتدلوا على طاعةِ الله عقدًا وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك، (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) قال ابنُ زيد ومجاهد" :عند الموتِ"، وقال مقاتل وقتادة" :إذا قاموا من قبورهم للبعثِ"، وقال ابنُ عباسٍ - رضي الله عنهما" :- هي بشرى تكونُ لهم من الملائكةِ في الآخرةِ"، ...(وَلَا تَحْزَنُوا) على أولادِكم، فإنَّ الله خليفتُكم عليهم، وقال عطاء بن أبي رباح" :لا تخافوا ردَّ ثوابِكم فإنّه مقبولٌ، ولا تحزنوا على ذنوبِكم فإنّي أغفرُها لكم"، وقال عكرمة: "ولا تخافوا أمامكم، ولا تحزنوا على ذنوبِكم، (وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)."اهـ

والحاصل إذًا من أقوالِ السّلفِ الصّالح، وبتبسيطٍ شديد :أن نفهمَ وندركَ أنَّ الاستقامةَ تحتاجُ منَّا إلى الالتزامِ بثلاثِ نقاط على الأقلّ في واقعنا المعاصر لا بدَّ منها، والبعد عن ثلاثةٍ، وعدم الوقوع فيها أبدًا؛ أمَّا الثلاثُ التي لا مفرَّ من الالتزامِ بها:

1-التخلُّصُ من الآفاتِ المحبطةِ للعملِ.
2-العملُ بالمنهج - الكتاب والسنة - والبعد عن الهوى.
3-مجاهدة الشَّيطان، ورد تلبيسه.

وأمَّا الثلاث التي يجبُ الحذرُ وعدم الوقوع فيها:

1-تركُ الفرائضِ أو التكاسُلِ عنها.
2-أكلُ الحرامِ والشُّبهات.
3-الاقترابُ من مواضع الفتن التي تؤدّي به إلى التهلكةِ.

ومن الصّعبِ شرح كلِّ هذه النِّقاطِ في هذه العجالة، ونتركُ الأمرَ لفطنةِ القارئ في البحثِ والاطّلاع لمعرفةِ الدَّاء والدواءِ من كتب علمائنا الأفاضل؛ من أهل السنةِ والجماعة، سلفًا وخلفًا؛ ليدركَ طريقه في الواقع الذي يعيش فيه، ويكون على بصيرةٍ من أمر دينِه ودنياه، والله من وراء القصدِ وهو يهدي السَّبيل

انتهي الجزء الأول ويليه الجزء الثاني أن شاء الله قريبا